الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
-قسنطينة-

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

الرقم التسلسلي: .....

رقم التسجيل.....

آيات البعث والحشر في القرآن الكريم

- دراســـــة فنيـــــة-

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الدراسات البلاغية

إعداد الطالب:

قيطون قويدر

إشراف الأستاذ الدكتور:

رابح دوب

لجنة المناقشة:

	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
الرئيس	زينب بوصبيعة	أستاذة محاضرة	جامعة الأمير عبد القادر
المقرر والمشرف	رابح دوب	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر
العضو	دياب قديد	أستاذ محاضر	جامعة منتوري
العضو	صالح غريبي	أستاذ مكلف بالدروس	جامعة تبسة

العام الدراسي: 2006-2007م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

يَبْنِي الرِّجَالَ وَغَيْرُهُ يَبْنِي القُرَى

شَتَّانَ بَيْنَ قُرَى وَبَيْنَ رِجَالِ

كلماتي تنحني خجلا وحروفها تتصبب عرقا أمام ما أغدقه عليّ أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور "رابح دوب" من فضل بتوجيهاته وإرشاداته القيّمة.

فله مني أسمى عبارات الاحترام والتقدير.

كما أتقدم بخالص شكري لعمال مكتبة "الشيوخ" وقسم الدوريات بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ولعمال مكتبة جامعة قاصدي مرباح بورقلة على مساعدتهم وتسهيلاتهم، فجزاهم الله عني كريم الجزاء.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إهداء

- إلى وَالِدَيَّ الفاضلين رحمانا حياتي.
- إلى إخوتي وأخواتي.
- إلى زوجتي الكريمة.
- إلى أصدقائي المخلصين الأوفياء.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقـــــدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا . قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: 01].

والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين والمؤيد بالكتاب والحق المبين وبعد:

القرآن هو كتاب الله المهيمن،ودستور المسلمين،وهو حجة الله على الخلق،وحجة الرسول في رسالته،ومعجزته الكبرى التي تحدى بها الأجيال جميعا،إنه كتاب الله خاطب به أولياءه فعرفوه، وأولي الألباب فتيقّنوه،وهو الشريعة والمنهج والطريق،نبع إلهي للمسلمين،بل للخلق أجمعين في كل آن.

ولقد اقتضت حكمة الله أن يؤيد دعوة كل نبي بمعجزة تكون أمرا خارقا عن مألوف العادات،ناقضة لها،وأن تكون من قبيل ما استحكم في ذلك الزمان،واشتهر فيه، فغلب أمره عند الخاصة،وعظم شأنه في نفوس العامة.ولذلك كانت معجزة موسى عليه السلام عصا تنقلب حية،ويدا تخرج بيضاء من غير سوء،لأنه كان أعجب الأمور وأغربها عند قومه السحر،ومعجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه إذ علا شأن الطب في عهده وعند قومه،أما محمد ﷺ فقد بعث في قوم أهل بيان،فتحت لهم البلاغة رواقها ،وشقت لهم الفصاحة نطاقها،فكثر شعراؤهم،وساد خطباؤهم،وتربعت أمتهم على عرش البلاغة والفصاحة،وملكت ناصية البيان؛ذلك لأنها الطريقة الوحيدة التي تلائم أحوالهم وظروفهم المعيشية الصعبة؛إذ كان الترحال دأبهم بحثا عن الماء والكلأ ، يقطنون إذا وجدا ،ويضعنون إذا افتقدا ،لذا كانت اللغة الرفيق الذي يكون معهم حيثما حلّوا وأينما ارتحلوا،فبرعوا فيها ،وفاق بيانهم جميع أمم الأرض ،فكانت معجزته ﷺ "القرآن" بلسان عربي مبين،دمغ ببلاغته أئمة الفصاحة الذين اعتقدوا أنهم لا ينازعون في هذا الأمر، فقد عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه،وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه،ومما زاد في تحيرهم وذهولهم أنه أنزل بلغة هي لغتهم ،يتلوه عليهم رجل منهم، فانقسموا في ذلك شيعا، وذهبوا في أمره طرائق قددا،ومع هذا التخبط وتلك الحيرة فقد فتن الكثيرون ببيانه، وسحر أسلوبه وجمال تعبيره،بأن تذوقوا بحاستهم الفنية جماله الفني الساحر،وأحسوا تأثيره المباشر على قلوبهم،وتحسسوا أثر سلطانه العجيب على نفوسهم،وحتى هؤلاء الذين حاربوه،وناصبوه العداء فقالوا عنه إنه الشعر وإنه سحر؛اعترفوا بالعجز البالغ عن معارضته ،وأدركوا إعجازه البياني الرفيع،

وقد سجل عليهم التاريخ هذا الاعتراف بأن قال من أقرُّوا له منهم بالسؤدد في البيان "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة،وإن أعلاه لمثمر،وإن أسفله لمغدق،وإنه يعلو ولا يعلى عليه".

ثم أنه تحداهم أن يأتوا بمثله،أو أن يأتوا بمثل آياته،ولو كانت مفتريات فعجزوا وهم أئمة البلاغة وفرسان البيان، وما زال هذا التحدي قائما مفتوحا وما حاول أحد تقليد القرآن إلا جاء بالغث الذي لا يقر ولايستساغ.

- فما هو سر تلك القوة الغالبة وذلك التأثير العميق؟

ولقد حمل المفكرون المسلمون همّ الكشف عن أسرار البلاغة القرآنية ودلائل الإعجاز فيه فتفرقت بهم السبل واختلفوا حول مكن المزية التي بها انفرد القرآن وعلا شأنه حتى صار هذا الأمر مبعثا لتأسس علم موضوعه "إعجاز القرآن"، وقد تكشف لهم وهم يبحثون في وجوه إعجازه عن كنوز لا يطيقها إحصاء أخذ كل منها بحسب رسوخه في علمه،حيث أنهم ناقشوه من زوايا عدة ، ومن نواحي مختلفة،ولا أعتقد أن أحدا منهم استطاع أن يكشف عن سر تلك القوة والغلبة،وذلك التأثير،وأن يصل في محيطه إلى قرار لما يزخر به من شتى الأفكار،ومن فنون القول ،ولما يتفرد به من سمو الأساليب ومعجز التراكيب؛ومن ثمّ كثرت بحوث القرآن وتنوعت ،وتعددت مناهجها وطرقها،ولا يزال هذا المورد معينا لا ينضب على مر الزمن يرده رواد الفكر وأساطين البيان فيتزودون بأعظم زاد ويمدون عقولهم بخير مدد.

ولقد منّ الله عليّ بأن هداني إلى دراسة كتابه العزيز ؛لأنال رشفة من بحر هذا البيان الإلهي، وقبضة من كنز علومه فاخترت هذه الدراسة الفنية بغية الكشف عن جمال القرآن وروعة أسلوبه قاصدا البحث عن مزاياه وأسراره البيانية والبلاغية،التي بها حصل على السؤدد.

وإن كل من قرأ القرآن وعاش معه بعقله وقلبه فترة متطاولة ؛ليلاحظ أن قواعد الإيمان وأصوله التي هي لباب الدين الحنيف ،وجوهر الدعوة، لم تعرض في القرآن بشكل تعقيدي جامد يأخذ الناس بالشدّة ويقسرهم على قبول تلك المبادئ ،أو الأصول دون ما إجالة للفكر وإعمال للذهن.

وحينما أكببت على قراءة القرآن لفت نظري اهتمامه البالغ بحقيقة اليوم الآخر، والذي يعتبر أحد أركان الإيمان، خاصة فيما يتعلق بالبعث والحشر حيث لا تكاد تخلو سورة من سوره إلا وقد تضمنت حديثا عن البعث والحشر إلا في القليل النادر، فاخترت أن تكون هذه الدراسة مقتصرة على الآيات التي تضمنت هذا الأمر فجاء عنوان البحث:

"آيـــات البعـــــث والحشـــر فـــي القـــرآن الكـــريـــم"

دراســـــــة فـنـيـــة

وكـــأيّ بحث يهدف إلى الوصول إلى حقيقة ما لابد له من أن ينطلق من إشكالية محددة،لذا كانت الإشكـــاليـــــــــــة التي اتخذتها منطلقا كالآتي:

إذا كـــان القرآن الكريم قد نزل بلغة هي من جنس لغة العرب ،وهم أئمة بيان وفصاحة ،وقد تلقوه بانـــبهار وتحـــيّر وغلـــبة؛ فما هو سر ذلك الانبهار ،وتلك الغلبة ،وذلك التحيّر؟ ماالســـــر الذي مكـــــــنّ للقـــــــرآن في نفوس المتلقيـــن؟

وهـــل يمكن للدراسة الفنية أن تجيبنا عن هذه التساؤلات ؟وماجدوى هذا النوع من الدراسة في ظل الدعـــاوى الكثيرة للبحث عن تفاسير ودراسات قرآنية معاصرة مناسبة لهذا العصر الذي لا يؤمن إلا بالماديـــة والعلمـــية؟وهل يمكن أن تكون الدراسة الفنية التي تهتم بإبراز الجانب الجمالي للقرآن الكريم بديـــلا عن الدراسات القديمة خاصة وضعف العرب في هذا العصر في تحكمهم في اللغة العربية صار بيّنا؟

ثم بعـــد ذلك ،كيف استطاع القرآن أن يقدم عقيدة البعث والحشر ويغرسها في النفوس ؟ وكيف اســـتطاع أن يزاوج بين العقل والاستدلال،وبين الفن والجمال في آيات البعث والحشر؟وهل يمكن أن تكـــون آيات البعث والحشر في القرآن الكريم كترا فنيا متميّزا ؟وماهي المزية الفنية التي يمكن الوقوف عندها في الأسلوب القرآني في عرضه لهذا الجانب المهم؟

وإذا كـــان القرآن يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية ،فأين يمكن أن نلمس هذا في آيات البعث والحشر؟

مـــن خـــلال هذا تتجلى لنا **أهميـــــة الموضـــــوع** المطروح للدراسة ،فبشكل عام تكمن أهمية الدراســـة الفنـــية للقرآن الكريم عموما فيما تكشفه من تفرد القرآن الكريم في أسلوبه ونظمه،وطرائق تعبيره،وأنه ليس نتاج بشر وإنما هو كلام الله الخالد الذي تعجز قدرات البشر على الإتيان بمثله ،وبأن محمداﷺكان مبلغا لهذا الذي جاءه من السّماء فما كان حديثا افتراه ولا أساطير اكتتبها .

وعليه فأهمية الموضوع تبدو من حيث محاولته الوقوف على جماليات التعبير القرآني ،وقدراته الباهرة في آيات البعث والحشر ،والكشف عن المزية الفنية والسمو البياني في هذه الآيات.

ومما لاشك فيه أن البحث في بلاغة التعبير القرآني من أجلّ العلوم وأفضلها ؛فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بدراسة آيات ترتبط بركن مهم من أركان الإيمان ألا وهو الإيمان باليوم الآخر خاصة في الجزء المهم منه وهو الإيمان بالبعث والحشر ،وقد رميت من خلال هذه الدراسة الوصول إلى الأهداف الآتية:

1- بيان الأهمية الكبيرة للدراسة الفنية للقرآن الكريم من خلال الوقوف على جمالية التعبير القرآني وأدائه المتميّز في آيات البعث والحشر .

2- التأكيد على المزية الفنية،والسمو الجمالي البلاغي والبياني للقرآن الكريم،وأهمية ذلك في إثبات إعجازه.

3- الوقوف على أسرار التعبير القرآني وفنياته،وطرائق عرضه لأكبر المسائل تعقيدا؛ألا وهي قضية البعث والحشر.

4- غرس الإيمان بالبعث والحشر من خلال عرض الأسلوب القرآني المعجز لهذا الأمر.

5- إيقاظ العقل البشري للتفكر في آيات الله في الأنفس والآفاق من ناحية،والتفكر في إعجاز أسلوبه الذي جاءت هذه الآيات بين ثناياه من ناحية أخرى.

6- إضافة دراسة علمية أكاديمية علمية لما قام به العلماء من أجل إبراز الجانب الفني الجمالي القرآني ،ومحاولة الإسهام في هذه السلسلة قدر المستطاع.

و لم يكن اختياري للموضوع أمرا اعتباطيا،بل هناك أسباب كثيرة دفعتني لاختيار هذا الموضوع يمكن أن أختصرها في:

أ :أسباب ذاتية:

وهي تلك الرغبة الجامحة التي صاحبتني لإنجاز عمل ما يتناول القرآن الكريم بصورة حديثة منذ أن التحقت بقسم اللغة العربية والدراسات القرآنية بجامعة الأمير عبد القدر للعلوم الإسلامية بقسنطينة،ودراسة البلاغة العربية،والإعجاز القرآني والدراسات البيانية لتتفتح عيناي على أسرار لا يمكن حصرها زادتني شوقا للأخذ من هذا الكتر بحظ وافر.

ب- أسباب موضوعية:

1- عدم وجود دراسة مستقلة تبرز الجانب الفني البلاغي والبياني في آيات البعث والحشر.

2- غنى آيات البعث والحشر بفنون بلاغية وبيانية ،وجماليات تعبيرية تحتاج إلى الإحصاء وحُسن الإخراج.

3- محاولة تنمية الحس الذوقي الجمالي والفني عند قارئ القرآن.

4- حاجة المكتبة الإسلامية عموما،والقرآنية خصوصا لهذا النوع من الدراسات التي تبرز عظمة القرآن الكريم ،وتثبت إعجازه الخالد.

و قضية اليوم الآخر من المواضيع التي استرعت اهتمام الكثير من الباحثين لكن تناولها كان من الجهة العقدية والفلسفية ،أما تناول هذا اليوم من الجانب البلاغي البياني الفني فكان قليلا،هذا مع أننا نسجل أهمية كتاب"مشاهد القيامة في القرآن" لـ"سيد قطب"،والذي أحرز فيه على عصا السبق في التنبيه للجانب الجمالي الفني بما عرض له من لفتات فنية في بعض الآيات التي ترسم مشاهد يوم القيامة بكل ما فيه من بعث وحشر وعذاب ونعيم وجنة ونار،ولقد كان هدف سيد قطب من وضعه لهذا الكتاب أن يسلط بقعة ضوء على الجانب الفني لهذه الآيات بوضعه لخطوط عريضة في هذا المجال تبقى بحاجة إلى التطبيق،والتوسيع ،ومع ذلك يمكن القول أن ما قام به سيد قطب في هذا الكتاب يعتبر فاتحة مهمة ،ومحاولة جادة في الدراسة الفنية الجمالية للقرآن الكريم .

وهناك دراسة أخرى لـ"بدرية بنت محمد" بعنوان"من بلاغة القرآن في مجادلة منكري البعث" ، وواضح من خلال العنوان أنها تناولت بالدراسة آيات الجدل الخاصة بإثبات قضية البعث وبلاغة القرآن الكريم فيها.وأخيرا نسجل دراسة أخرى بعنوان "آيات العذاب والنعيم في القرآن الكريم – دراسة فنية-قدمتها الطالبة "سعاد بولشفار" لنيل درجة الماجستير،وقد تمت مناقشتها بجامعة الأمير عبد للعلوم الإسلامية،وإن كان في آيات البعث والحشر عذاب ونعيم إلا أنها لم تتناول ذلك في دراستها حيث أنها خصصت دراستها لدراسة آيات العذاب والنعيم في الجنة والنار كما ذكرت ذلك في مقدمة بحثها.

وبالنظر إلى الإشكالية التي تطرحها هذه الدراسة،والأهداف التي ترمي تحقيقها؛فإن المنهج الأنسب لها يكون استقرائيا تحليليا،حيث سنعمد إلى استقراء هذه الآيات،ونقصد بها الآيات التي تناولت البعث والحشر في القرآن الكريم،باستخراجها ،وتصنيفها حسب مواضيعها،ليأتي بعد ذلك دور التحليل بإبراز الجانب الجمالي الفني في هذه الآيات .

ولتحقيق تلك الأهداف التي سبق وأن ذكرتها ،فإني رسمت خطة تتلاءم مع طبيعة الموضوع،ومع المنهج الذي اتبعته في الدراسة،فكانت كالآتي:

- مدخل:تحدثت فيه عن مفهوم الدراسة الفنية،مستعرضا تاريخها،ومراحل تطورها،ومحددا أهميتها.

- ثم قسمت دراستي إلى ثلاثة فصول تطبيقية،تناولت في الفصل الأول والذي كان تحت عنوان "التصوير الفني في آيات البحث والحشر"،سمات التصوير باللفظ القرآني في تلك الآيات،محاولا الوقوف على جماليات المفردة القرآنية،وعلى إسهاماتها في التصوير الفني القرآني،وتناولت أيضا بالدراسة العبارة القرآنية، ودورها المتميّز في التصوير،محللا مميزاتها،وخصائصها،ثم تناولت فنية التجسيم في آيات البعث والحشر،والذي يعتبر أحد ألوان التصوير الفني في القرآن الكريم،بتعرضي لتجسيم القرآن للأعمال والذنوب يوم القيامة،وبتجسيمه ليوم القيامة نفسه.

وفي الفصل الثاني حاولت الكشف عن روعة التناسق الفني في آيات البعث والحشر ،بدراستي لجرس الألفاظ التي تتركب منها تلك الآيات، وبدراستي لأوجه التناسق الفني المتعددة،والمختلفة التي تتوفر في جزئيات المشهد الذي ترسمه آيات البعث والحشر بتطرقي لفنية المقابلة ،وبدراستي لفواصل تلك الآيات،وبتحليلي أخيرا لتناسق تلك المشاهد مع جو السياق الذي أطلقت فيه.

وفي الفصل الثالث،والذي كان تحت عنوان"القوالب الفنية في آيات البعث والحشر"،تناولت القصة بدراستي لقصتي أصحاب والكهف،والرجل الذي مرّ على قرية،كما تناولت الأمثال التي تضمنتها آيات البعث والحشر بالتحليل والدراسة،وأخيرا تناولت بالتحليل بعض مشاهد البعث والحشر محاولا الوقوف على روعة الإخراج القرآني لها.

- خاتمة: سجلت فيها أهم النتائج التي استخلصتها من دراستي.

وأخير أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور **رابح دوب** الذي شرّفني بالإشراف على عملي هذا،كما أتقدم بالثناء العطر للأساتذة المناقشين شاكرا لهم تفضلهم عليّ بتقييم بحثي وتقويمه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المدخـــل:

الدراســـة الفنيـــة

مفهومها * تاريخها * أهميتها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جاء في لسان العرب أن الفن واحد الفنون ، وهي الأنواع،والفن الحال والفنُّ الضّرب من الشيء والجمع أفنان وفنون،وهو الأفنون،يقال:رعينا فنون النبات وأصبنا فنون الأموال.

افتن الحمار بأتنه،واشتق بها إذا أخذ في طردها،وسوقها يمينا وشمالا على استقامة،وعلى غير استقامة،فهو يفتن في طردها أفانين الطرد،والفنون الأخلاط من الناس،وإن المجلس ليجمع فنونا من الناس:أي ناسا ليسوا من قبيلة واحدة،وفنّنَ الناس جعلهم فنونا،والفَنَنُ الغصن.[1]

وجاء في القاموس المحيط : الفنان الحمار الوحشي له فنون من العدو ، واستفنّه حمله على فنون من المشي،وشَعْرٌ فينان له أفنان وامرأة فينانة كثيرة الشعر.[2]

يتبين جليا من خلال هذا المفهوم الحسي لمادة "فن" أن في مجملها تدل على معاني التنوع والتعدد والاختلاط أيضا،وهي كما نرى مفاهيم مستمدة من البيئة الصحراوية للإنسان العربي ،وإذا ما أردنا أن نبحث عن المعاني الثانية غير الحسية لهذه اللفظة فإننا نقف على ما هو قريب من هذا،فقد جاء أيضا في لسان العرب:الرجل يفنّن في كلامه أي يشتقّ في فنّ بعد فن،ورجل مِفنّ يأتي بالعجائب وامرأة مفنّة،وافتن الرجل في حديثه وفي خطبته إذا جاء بالأفانين.[3]

ويقال:فنّن فلان رأيه إذا لوّنه و لم يثبت على رأي واحد،والأفانين الأساليب وهي أجناس الكلام وطرقه، وافتنّ أخذ في فنون من القول.[4]

أما الفن اصطلاحا فهو:« كلمة مشتركة تدل على معان شتّى فهناك الفنون الجميلة كالرسم والموسيقى والتصوير،وهناك فنون أخرى يتحدث عنها الناس كفن الزراعة وفن التجارة وفن الحياكة وفن الطبخ وفن الإعلام،وغير ذلك من الفنون».[5]

فالواضح من خلال هذا المفهوم الأولي لكلمة الفن اصطلاحا أن هذا المفهوم سطحي؛ إذ بقي لصيقا بالمعنى اللغوي من خلال تركيزه على التنوع والتعدد والاختلاط، فإذا ما أردنا أن ننفذ إلى

---

(1)- لسان العرب،أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور،إعداد وتصنيف يوسف خياط،د ط، دار لسان العرب،بيروت،د ت،مادة(ف ن ن)،م2، ص1137.

(2)- القاموس المحيط،مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي،د ط،دار الكتاب العربي،باب النون فصل الفاء،ج4، ص256.

(3)- لسان العرب ، ابن منظور ،مادة(ف ن ن)، م2 ، ص1137.

(4)- القاموس المحيط ، الفيروزأبادي ، باب النون فصل الفاء،ج4 ، ص256.

(5)- نظرية التصوير الفن عند سيد قطب ،صلاح عبد الفتاح الخالدي،د ط، دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر،د ت، ص78.

معـــنى هـــذه الكلمة اصطلاحا بدقة فإننا نجدها تعني البراعة والحذق والجمال،ولا أخال هذا المفهوم بعيدا عن المفهوم اللغوي للفظة والذي سبق وأن ذكرناه،فحمار الوحشي ما سمي بالفنان لأن له طرقا وأســاليب شتى في قيادته لأتنه،وحسب،بل لأنه أيضا بارع،حذق في قيادتها على تلك الأساليب،وما سمـــي بالفـــنان أيضا لأنه يملك صنوفا من العدو أو لاختلاط ألوانه،بل سمي كذلك أيضا لما يوحي به تـــنوع عـــدوه واختلاط لونه من جمال وروعة،ولو تتبعنا المعاني اللغوية لهذه المفردة لوجدناها تصب جميعها في هذا الواد،ومع ذلك فإن للفظة معنى أساسيا موحدا حتى وإن اختلف ما أضيفت إليه فهو« المعالجـــة البارعة لوسيط (المادة الخام،ألفاظ،رخام،أصوات)من أجل تحقيق هدف ما »[1]،إذن،فالفن هـــو الحذق والمهارة التي يتمتع بهما امرؤما،واللذان يستطيع أن يصل بوساطتهما إلى تحقيق هدفه بعد بذل جهد.

والأدب لـــون مـــن ألـــوان الفنون،بل هو أهم ألوان الفنون على الإطلاق،وتتجلى مهارة الفنان وحذقـــه عـــندما ينتج من الكلمات معرضا للصور الفنية،ويدع عاطفته المتحفزة وإحساسه المرهف يعملان في هذا المعرض ويفسح المجال لخياله أن يجوب الآفاق الجميلة.[2]

وإذا كان الفن كما أسلفت هو المعالجة البارعة بحذق ومهارة وجمال فهو في الأدب«جودة العرض وحسن السبك وجمال الأسلوب وقوة العاطفة ونشاط الخيال».[3]

والفـــن لـــيس إنتاجا للجمال في أي عمل فني،وإنما هو إظهار لوجوده وكشف الستار عنه وعرضه أمام الناظرين يتذوقونه أو يتملونه،والمعيار الذي يمكن به التعرف إلى وجود الفن، وإدراك قيمته يرجع إلى الـــتأثر الوجداني ، فالوجدان هو المسرح الذي يتم به إدراك الفن،وتذوّق الجمال،وعلى قدر ما في أشـــخاص الفـــنانين والأدباء من إرهاف وجداني وإحساس عاطفي يكون استعدادهم لتقبل بواعث الجمال والاستجابة لها.[4]

وللفن قيمة جمالية ذلك أنه شيء فطري في النفس الإنسانية محبته مزروعة بداخلها والميل إليه شيء أصـــيل فـــيها ، فالنفوس الإنسانية السوية تواقة إليه محبة له،أما التي لا تهتز للفن وما يحتويه من جمال

---

(1)- النقد الفني دراسة جمالية وفلسفية،تأليف جيروم ستولنتيز،إعداد فؤاد زكريا،ط2،الهيئة المصرية للكتاب،1981، ص124.

(2)- نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، ص79.

(3)- المرجع نفسه ، ص 79.

(4)- المرجع نفسه ، ص 79.

وجـــلال فيها علة،وعليها ران يحجب عنها تذوق الفن،هذا وللفن قيمة اجتماعية أو اقتصادية فسوف يـــبدوا لنا الفن مهما كان لونه على أنه لون من الترف أو الضرب من التسلية، أما إذا نظرنا إليه من زاوية فنية جمالية فسنعتبره حقيقة أساسية من حقائق الوجود والحياة.[1]

وبين الفن والدين علاقة متينة،ذلك أن الدين يجعل الفن مطية يصل بها لتحقيق أهداف وغرس قيمه ومبادئه في النفس الإنسانية،والتعبير القرآني هو خير من جمع ما بين هاتين القيمتين(الدين والفن)ببراعة ،ذلـــك أنه«يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني،فيما يعرضه من الصور والمشاهد،بل لاحظنا أنه يجعـــل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية وإدراك الجمـــال الفـــني يشي بحسن الاستعداد لتلقى التأثير الديني حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفـــيع مستوى التعبير عن العقيدة،وحين تصفوا النفس لتلقى رسالة الجمال التي تبلغ في العقيدة حد الكمال».[2]

ذلك «أن المتذوق يبدأ السيطرة على الموضوع ثم يستنير الموضوع أمامه تدريجيا،وهنا تبدأ الذات في التراجع والتنحي عن امتلاك الموضوع،ويأخذ الموضوع دوره في السيطرة على المتذوق أن ينصت إلى حديث موضوع الجمال على نحو ما ينطق به وجوده الحسي ودلالته المعنوية وشحنته الوجدانية».[3]

ومـــع هذا فالحكم الجمالي على موضوع ما،هو مجرد شهادة له لا يمكنها أبدا أن تغير من طبيعته« فتاريخ الفن يثبت بوضوح أن دلالة العمل الفني وقيمته يمكن أن تفسر على أنحاء شتى على يد مختلف الأشخاص، وفي مختلف العصور».[4]

إذن فالدراســـة الفنـــية هـــي قراءة جمالية لموضوع ما تستهدف استخلاص قيمته والوقوف على خصائص تميّزه وتفرّده معتمدة في ذلك على الذوق والمقارنة .

والقـــرآن بوصـــفه كتابا متميزا،شكّل منعطفا تاريخيا في حياة البشرية كلها سرق الأضواء«وأخذ مكـــان الصدارة في حياة المسلمين منذ أن نزل من السماء يرسم معالم الطريق،ويضع أساس التشريع ويـــنظم السلوك،ويســـموا بمدارك الإنسان،فليس عجيبا أن يلتف المسلمون حوله ينهلون من ينابيعه

---

(1)- المرجع نفسه ، 79. .

(2)- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب،ط13،دار الشروق،بيروت، 1386هـ-1966م ، ص119.

(3)- الإبداع الفني وتذوق الفنون الجميلة،علي عبد المعطي محمد،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، 1985م ، ص379.

(4)- النقد الفني دراسة جمالية وفلسفية ، جيروم ستولنيتز ، إعداد فؤاد زكريا ،ص124.

ويستظلون بظله،ويسيرون على هداه.وكان طبيعيا أن يتأملوا أسلوبه،وطرق التعبير فيه،فيأخذهم الدهش وتمتلئ قلوبهم بنور العقيدة وتنبهر نفوسهم أمام بيانه وهم أساطين البيان».[1]

وهذه الحيرة التي ألمت بهم لما طالعوه وتأملوه كانت نتيجة لإدراكهم بما أتوه من عواطف شاعرة، وملكات بيانية أصيلة؛فلقد لاحظوا أنه من جنس كلامهم لكنه متفرد النظم؛فلم يعهدوا طريقته،و لم يخطر لهم على بال،فلقد«نزل في قوم بلغاء يرسلون الخطب البارعة وينظمون القصائد الرائعة، ويعقدون الندوات النقدية للموازنة بين القائلين،وحين أدهشهم القرآن بإعجازه جعلوا يتأملون آياته ويتصفحون سوره..فمن مال منهم إلى الإسلام فقد طالع نور البيان دون غطاء،ومن لج مع الباطل فقد صاول نفسه مصاولة شديدة حتى اضطر إلى الإذعان لروعة ما يسمع،وكلا الفريقين قد فهم البيان القرآني فهم الخبير المدرك وواجه ضياءه مواجهة الناظر البصير».[2]

ولقد اعتاد الدارسون لتاريخ الدراسة الفنية أو الإعجاز الفني للقرآن الكريم أن يبدأوا في التأريخ لهذا العلم من العصر العباسي،وذلك بما احتواه في نظرهم من لفتات فنية،ثم يقفزون مباشرة للعصر الحديث،والذي اشتهرت فيه الدراسات التي تركز على الجانب الفني الجمالي للقرآن الكريم، متجاوزين بذلك أهم مرحلة في نظري كانت مهدا لميلاد هذه الدراسة- الدراسة الفنية- ألا وهي مرحلة عصر النبوة ذلك« أن القوم إذ ذاك درسوا القرآن دراسة من يعرف مناحي القول المختلفة في بيانه،ولئن فاتهم الوقوف على المصطلحات البلاغية التي هيأ لها تتابع الزمن فيما بعد فلم يفتهم في شيء جوهر هذه المصطلحات،إذ عرفوا بفطرتهم المطبوعة مكان الإيجاز والإطناب،وموضع الحقيقة والمجاز».[3]

ولقد كان النبي ﷺ وهو أفصح الناطقين وأبلغ القائلين يتولى تفسيره وتوضيحه امتثالا لقول ربه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:44]،والرسول العربي المبين بفطرته الصافية،وسليقته الهادية يعرف مكان الحسن في البيان ومواضع الزلل، فكان يوصي بإرشادات أدبية تدل على اتجاهه الفني إذ ينهى عن التشادق والثرثرة والتفيهق وتكلف الأسجاع المرذولة؛حيث

---

(1)-بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ:دراسة تاريخية فنية مقارنة،فتحي أحمد عامر،د ط،منشأة المعارف المصرية،د ت، ص 10.

(2)- خطوات التفسير البياني، رجب البيومي ، د ط ، الشركة المصرية للطباعة النشر ، مصر ، 1971م ، ص10.

(3)- المرجع نفسه ، ص ن.

كـــان يقـــول:(إيايي والتشادق)،ويقول:(أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون)،ويعقب على من تكلف السجع في مخاطبته فيقول :(أسجع كسجع الكهان).[1]

ولقـــد كـــان ﷺ يفسر ما أشكل على المسلمين وتعسّر عليهم فهمه من آيات القرآن الكريم،كما كان الصحابةﷺيجتهدون بالرأي فيفسرون بعض آيات القرآن،أما البعض الآخر فكان يحجم،ويتحفظ عـــن القـــول في القرآن تحرجا منه،وهيبا،وتعظيما.مثل ذلك ما رواه البخاري(ت.256هـــ)عن أبي هريـــرةﷺأن رسول الله ﷺ قال[2]:(إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة)،اقرأوا إن شئتم:﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف:105].

وكـــان تفسيرهم يختلف حسب اختلاف معرفتهم بأساليب الكلام وفنون القول،إلا أنه كانت لهم نظـــرات تفســـيرية مهمة مستمدة من قربهم من رسول اللهﷺ،أو عن إعمالهم للفكر،حتى وإن كانت هاتـــه اللفـــتات قليلة؛حيث أن تركيب القرآن وما يحتويه من معاني بلاغية لفت أنظار العرب الخلص فتأملوه ونظره بعضهم بفكره وذوقه في آية أو آيات فأصاب أو كاد،وإن كانت تلك النظرات يغلب عليها الطابع اللغوي الذي فهموه من الآية بأخصر لفظ مثل قولهم﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾[المائدة:3]، أي غير متعرض لمعصية.[3]

وكدلـــيل على ذلك أورد هنا بعض النماذج التي تدل عل تلك اللمسات الفنية التي تلمسها النبيﷺ وصـــحابتهﷺ،مـــن ذلك مثلا:لما نزل قولهﷻ في آية الصيام:﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[البقرة:187]،سأل عدي بن حاتمﷺ:أهما الخيطان المعروفان؟ فقالﷺ :(بل هما سواد الليل وبياض النهار)،متنقلا بالمعنى من الحقيقة إلى المجاز .

ولما نزل قول الله تعالى:﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام: 82]،شـــق ذلك على المسلمين فقالوا يا رسول الله :وأيُّنا لا يظلم نفسه فقالﷺ:(ليس ذلك وإنما هو

---

(1) – انظر :إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،مصطفى صادق الرافعي،ط2،دار الكتب العلمية،بيروت،2003م،ص203.

(2)– صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبرهيم البخاري،ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي،ط1،دار ابن الهيثم،القاهرة،1425هـــ2004م،كتاب تفسير القرآن،حديث رقم:4729،ص563.

(3)–فجر الإسلام ، أحمد أمين، ط9،مكتبة النهضة المصرية،1964،ص131.

الشـــرك،ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه:﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:13]، وتفسير الظلم بالشرك على سبيل المجاز.

أما الصحابةﷺ،فقد كانت لهم وقفات ماتعة مهمة تنبئ عن حسهم الفني الراقي،وأكثر هؤلاء ابن عـــباسﷺ،فلقد كان واسع المحفوظ من تراث العرب،ومناقشته الشهيرة لنافع بن الأزرق حول بعض الألفاظ القرآنية تنطق بأبلغ الدلالة على سعة محفوظه وجودة تطبيقه.[1]

يـــروي ابـــن جرير الطبري في نفسيره قول الله ﷻ:﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[البقرة:266]،أن عمرﷺسأل الناس عن هذه الآيـــة،فما وجـــد أحدا يشفيه حتى قال ابن عباس وهو خلفه:يا أمير المؤمنين إني أجد في نفسي منها شـــيئا فالتفت إليه وقال:تحول هاهنا لم تحقر نفسك؟قال:هذا مثل ضربه الله ﷻ فقال:أيود أن يعمل أحدكـــم عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فـــنى عمره،واقـــترب أجله ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فأفسده كله فحرمه أحوج ما كان إليه .[2]

ومع هذا فإن القوم آنذاك لم يتعرضوا لقضية الإعجاز القرآني،وما كان ذلك إهمالا لشأن القرآن ، ولا تقصيرا في حقه،إنما كان إعظاما لأمره وتهيبا لمقامه وصونا له من أن يكون غرضا للآراء والأهواء ومـــيدانا لـــلجدل والخلاف فقد« تهيب كثير من الصحابة والسلف ممن كانوا علماء باللغة فقهاء في الديـــن تفســـير القرآن،وتـــركوا القول فيه خوف الزلل والقول فيه بالرأي والتألي على الله ﷻ في الكشف عن مراده من كلامه الذي لا يعلم تأويله إلا هو تبارك وتعالى».[3]

فقد روي أن أبا بكرﷺسئل عن قول الله تعالى:﴿ وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾[النساء:85]

---

(1)- انظر هذه المناقشة في : الإتقان في علوم القرآن،جلال الدين السيوطي،د ط،دار الفكر،د ت،ج1،ص120 وما بعدها.

(2)- انظر هذه النماذج وغيرها في : خطوات التفسير البياني ، رجب البيومي ، ص 10و ما بعدها.

(3)- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، أحمد سيد محمد عمار،ط1،دار الفكر،دمشق،1418هـ 1998م ، ص25.

،فقـــال:أي السماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لم أعلم،وكان عمر بن الخطاب ﷺ،وهو من الفصاحة في ذروة السنام والغارب يقرأ قوله تعالى:﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[عبس:31]،فلا يعرفه ،فيراجع نفسه ويقول ما الأب؟ ثم يقول:إن هذا تكلف منك يا بن الخطاب.[1]

ولقد كان لهذا التهيب ولهذه الرهبة أسباب كثيرة،من بينها أنهم كانوا يؤمنون إيمانا لا يداخله شك ،ولا تخالطـــه ريبة أن هذا القرآن معجزة الرسولﷺالتي أيده الله تعالى بها،لهذا فهو ليس مجالا للبحث، والخوض فيه أمر عسير لدقته وخطورته،ولعل أهم تلك الأسباب هو أنهم كانوا عرب ألسن فأدركوا بفطـــرتهم الســـليمة وذوقهم العربي الصحيح بلاغة القرآن وإعجازه فاستغنوا بذلك عن المسألة عن معانـــيه وعـــن الكلام فيه،ومما يدل على إدراك الناس وقتئذ لبلاغة القرآن وإعجازه إدراكا فطريا،ما روى أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ:﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر:94]،فسجد وقال:"سجدت لفصاحته"، وسمـــع آخر يقرأ:﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾[يوسف:80]،فقال :أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام. ·

وظـــل القـــوم بطباعهم الصحيحة وألسنتهم السليمة في غنى عن الكلام في القرآن ووجه إعجازه، ولهـــذا لم يتكلموا في ذلك،ولم يلتفتوا إليه لأن برهانه قائم في نفوسهم إلى أن ظهر في مجتمع المسلمين المغرضون أعداء الإسلام من أهل التشكيك الذين جاهروا بالزيغ،وبالقول في القرآن،وبالدس بمقالات ضـــالة تســـتهدف النيل من الإسلام وأهله بمحاولة النيل بالتشكيك من أقدس ما عندهم وهو القرآن العظيم،أضـــف إلى ذلـــك تبدل أحوال العرب وفساد ذوقهم وألسنتهم فاستدعى الأمر أن ينفر من المســـلمين رجال يذودون عن كتابهم ويدافعون عن حياضه وقد اتجهت جهودهم إلى دراسة المجاز في القـــرآن الكـــريم حتى يفسروا الاتجاهات الفنية التي نزل بها القرآن،وهذه الدراسات حتى وإن غلب عليها الطابع اللغوي إلا أنها تضمنت لمحات فنية رائعة ولمسات بيانية تدل على سلامة ذوقهم وحسن إدراكهـــم لموضع الجمال في القرآن الكريم ولقد كان«أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة(ت:210هـــ)في كـــتابه"مجاز القرآن"،والحق أن هذا الكتاب كان أقدم مؤلف عربي حفظه التراث خاصا بغريب القرآن،فهو أقرب إلى تفسير غريب القرآن منه إلى الكشف عن وجوه البيان فيه.

[1]- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج1،ص113.

ويتـــناول أبـــو عبيدة في مجاز القرآن من فاتحة الكتاب سورة سورة،فيعرض لكل سورة شارحا ما فيها من كلمات مفسرا غريبها ذاكرا من الشعر العربي الفصيح ما يؤيد المعنى الذي فضله على غيره، وقـــد توسع في تصوير الخصائص التعبيرية كالدلالة بلفظ الخصوص على معنى العموم،وبلفظ العموم على معنى الخصوص،وكمخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ومخاطبة الجميع مخاطبة الواحد،ومخاطبة الواحد مخاطـــبة الاثنين،وتنبه إلى التقديم والتأخير،والالتفات،والكناية«كما أن كتاب المجاز في زمنه المتقدم قد تـــناول بعـــض ما عرف أخيرا بعلم المعاني،فهو بذلك يحمل بذورا كثيرة لغراس علمي البلاغة(المعاني والبيان)،وقد اتّسعت مقدمته الأولى لكثير من الأمثلة القرآنية التي توقف الدارس على أساليب العرب في الكلام»[1]،ولقد اشتمل على علم العربية لعصره،إذ ضمّ أفانين مختلفة لما تدور حوله مسائل النحو واللغة،والـــبلاغة متجاورة غير متفرقة،مثل قوله تعالى:﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[التوبة:109]،فقد أتبع الآية بتحليل بياني وعدّها من مجاز التمثيل حين قال:« ومجاز الآية مجاز تمثيل لأن ما بنوه على التقوى أثبت أساســـا من البناء الذي بنوه على الكفر،والنفاق،فهو على شفا جرف،وهو مايجرف من الأودية فلا يثبت البناء عليه».[2] .

وبعـــد المجاز كان كتاب"معاني القرآن"لأبي زكريا الفرّاء(ت 207هـــ)،وقد ألم بكثير مما ألم به أبو عبيدة من مسائل البيان،وهو لم يقف عند الغريب بتفسير،وتوضيح معناه،وبيان إعرابه فقط،إذ تحدّث عـــن تركيب الجملة القرآنية،في تقديم كلمة على أخرى،وفي خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معـــنى مجازي،والانتقال من مخاطبة الشاهد إلى الغائب،وعن البعض يراد به الكل والإخبار عن الواحد بالاثنين،أو الجمع،واستعمال اللفظ في المعنى الضّد وغيرها،مع وجود تلك اللمسات الفنية التي لم يخل منها كتابه «حول صياغة الآيات وتركيبها بالرغم من ولعه بالنحو والقراءات،وتلك اللمحات الفنية المنتثرة هنا وهناك في تضاعيف"معاني القرآن"كانت تدور حول محور النحو أو اللغة أو القراءة مما يدل عـــلى أنّ للـــرجل العالم باعا كبيرا في علم النحو والقراءات».[3]من ذلك مثلا قوله معلقا على قوله تعـــالى:﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾[الرحمن:37]:« ترسم لوحة لمنظر من مناظر يوم القيامة،يثير الذعر

---

(1)- خطوات التفسير البياني ،رجب البيومي،ص47.

(2)- مجاز القرآن،أبو عبيدة معمر بن المثنى،تحقيق:محمد فؤاد سركين،دط، مؤسسة الرسالة،بيروت،ج1،ص269.

(3)- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ ، أحمد فتحي عامر ، ص19.

والمنع،فهناك سماء تنشق وتتصدع، وهناك لون أحمر مزعج وهناك من يجري وتلك عناصر من عناصر الصورة التي توحي بالخوف والقلق معاودة النفس في شأن الإيمان بالله والتصديق بنبوة النبي».[1]

ومـــنه نعـــلم أنه(معاني القرآن)،كان خطوة تالية لخطوة ابن عباسﷺ في التفسير الأدبي ،لأن ابن عـــباس ورجال طريقته كانوا يعتمدون على الحس العربي في فهم النص القرآني قبل أن تخطوا العربية خطـــوة ما في تأليف العلوم وتدوين المعارف،أما أبو عبيدة فقد حذا حذو هذه الطبقة فاحتكم إلى لغة العـــرب في فهـــم الـــنص والاستئناس بالشاهد،ثم انتفع مع ذلك بما تمخضت عنه الحركة الثقافية من بحوث علمية مثمرة،فقدم مجازه حافلا بأطايب اللغة والنحو والبلاغة.[2]

لكـــن الفـــراء كـــان له من الذوق ما أمكنه من«إدراك ما في نظم القرآن من حسن الإيقاع بين الفواصـــل في رؤوس الآي،وهـــي لمحة في موسيقى القرآن عجز عنها سابقه في التأليف ومعاصره أبو عبيدة».[3]

وفي العصـــر نفسه كتب الجاحظ(ت 225هـــ)"البيان والتبيين"و"الحيوان"و"نظم القرآن"،والمتأمل في كتابـــيه الأولين يرى أن الجاحظ كان ينظر في عمق إلى ما يشيع في جو النص القرآني من تأملات بعيدة المدى وإيحاءات عظيمة الخطر في مجال القول،لذلك كان«رجل التفسير البياني الأول الذي فتح أكمامه،ورســـم طريقه لأن الرجل بما يضرب من أمثلة قرآنية على ما يريد من فنون البلاغة،وأساليب البيان قد جعل القرآن القمة التي تتجه إليها الأنظار السديدة عند التماس النمط العالي من الفن الرفيع، فأطـــال في الاستشـــهاد بفرائده،ووقف عند كثير من آياته محللا شارحا ومهتديا إلى أسرار تفتحت مغالـــيقها على يديه حتى اجتمع له من ذلك أصول وافية كانت أساس البلاغة العربية الوطيدة،وعلى عمدها الراسخة نهض الفن البلاغي شامخ الذرى متسع الأبهاء والأرحاب».[4]

وكـــتاب الجاحظ الموسوم بـــ (نظم القرآن)،كان نبعا مهما في تاريخ الدراسات القرآنية المتعلقة بالإعجـــاز القـــرآني ثم لم يلبث أن تفجرت بعده ينابيع،وإن كان هذا الكتاب مفقودا و لم يبق منه إلا تلـــك الشذرات المنبثة في كتابيه"البيان والتبيين"و"الحيوان"،وبعضهما مبعث للنظر والتأمل ودليل على الذوق المرهف،وبعضها جاء إشارة عابرة تحتاج إلى تمحيص وتدقيق.

---

(1)- معاني القرآن ،أبو زكريا يحي بن زياد الفراء،ط3،عالم الكتب،بيروت،1403هـــ1983م،ص223.

(2)- خطوات التفسير البياني ، رجب البيومي ، ص62.

(3)- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ ، فتحي أحمد عامر ، ص23.

(4)- خطوات التفسير البياني ، رجب البيومي ، ص64.

قـــال الجـــاحظ معلقا على قوله تعالى:﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم:62]:«وليس في الجنة بكر ولا عشي،ولكنه على مقدار البكر والعشيان وعلى هذا قول الله ﷻ:﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾[غافــر:49]،والخــزنة الحفظة وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ ولا يختار دخولها إنسان فيمنع منها،ولكنها لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به». [1]

يظهــر من هذا أن الجاحظ كثيرا ما يحكم ذوقه في تناول الآيات التي يتأملها وقد كان ذلك خطوة مهمـــة في الدراســـات القرآنية«حيث أن تلك اللفتات البيانية الوجيزة كانت الأساس الذي بني عليه صرح البيان العربي من بعد». [2]

فلقـــد نظـــر الجـــاحظ إلى ألفاظ القرآن ومعانيه،فأطال النظر الفاحص ليهتدي إلى فطن بارعة في التحلـــيل والاستنتاج كانت عون البلاغيين جميعا في كثير مما كتبوه عن اللفظ والجملة والصورة«فما تحدث البلغاء عن فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام وأسرار الحذف والذكر ومواضع الإيجاز والإطناب، وجمـــال التشبيه والكناية والاستعارة وغيرها من الأبواب إلا بعد أن عرض لهم الجاحظ فنونا متفرقة مـــن استشفافه الذوقي لكتاب الله...لقد كان للألفاظ في إحساس الجاحظ أرواح تثقل وتخف وتعلوا وتهـــبط وكـــتاب الله ميزان دقيق لهذه الخفة حين تروق في موضع فتذكر ولهذا الثقل حين ينبوا عنه المكان». [3]

إذن فنظرة الجاحظ للأسلوب القرآني كانت نظرة عقلية مجردة تتأثر بذوقه الخاص فهي نظرة ذهنية فنـــية في أساسها مع أنها لم تكن لها قاعدة عامة للأسلوب القرآني تندرج تحتها هذه اللفتات الفنية،بل كمـــا أســـلفت كـــان شذرات منتثرة هنا وهناك من غير ترابط ولا اتساق،وعليه لم تكن الدلالات البلاغـــية في دراســـاته القرآنية مقصودة لذاتها لتكوّن نظرية عامة،وإنما كانت انسيابا تأثريا يفيض في بعض المواقف دون بعض.

وبعـــد الجـــاحظ يـــأتي تلميذه ابن قتيبة(ت 276هـــ)،الذي وضع كتابه"تأويل مشكل القرآن الكـــري"،وقـــد تهـــيأ لتأليفه بعد أن هضم تآليف من سبقوه كالمجاز لأبي عبيدة وبعد أن استفاد من

---

(1)- البيان والتبيين، أبو عثمان بن بحر الجاحظ،تحقيق:درويش جويدي،المكتبة العصرية،صيدا،بيروت،1423هـــ2003 م،ج1،ص 172.

(2)- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ ، فتحي أحمد عامر ، ص44.

(3)- خطوات التفسير البياني، رجب البيومي ، ص81.

مواقف بحوث أستاذه الجاحظ في هذا المجال،وقد تحدث عن المجاز عامة ثم عقد بابا للاستعارة وللمقلوب وللحذف والاختصار ولتكرار الكلام والزيادة فيه، وللكناية والتعريض،ولمخالفة ظاهر اللفظ معناه،« أما المعاني البلاغية عند ابن قتيبة فقد كانت شذرات تنتشر في تصانيف كتابه وخصوصا في باب التكرار والمجاز والمقلوب وهي دلالة صادقة على أنه أفاد من أستاذه الجاحظ، كما تدل على أنه صاحب بصر وذوق في حقل الدراسات القرآنية باعتبار القرآن فنا قوليا سما على سائر فنون القول وتفرد بالإعجاز في نظمه وتركيبه وبقي أسلوبه معجزة الزمان والمكان».[1]

ويبلغ المؤلف غاية الإتقان والجودة حين يتبع لفظا واحدا من الألفاظ القرآنية ليرى كيف مضت به الاستعارة إلى شتى المعاني حيث يقول مثلا:« ومن الاستعارة﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[آل عمران:107]،يعني جنته سمّاها رحمته لأن دخولوهم إياها كان برحمته، ومثله قوله:﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾[النساء:175]، وقد توضع الرحمة موضع المطر لأنه يترل برحمته قال تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[الأعراف:57]يعني المطر،وقال:﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾[الإسراء:100] يعني مفاتيح رزقه،وقال تعالى:﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[فاطر:2]أي من رزق».[2]

ثم ظهر الرماني (ت. 386هـ) بكتابه "النكت في إعجاز القرآن" حيث جمع فيه ألوان جمال التعبير القرآني ، وحسن تأليفه، وإحكام نظمه، وكشف فيه عن روعة الأداء، والتناسق فيما بين لفظه ومعناه ، وفي مخاطبته القرآن للغرائز والشعور، وتصويره لخلجات النفس الإنسانية.وعليه« كانت دراسة فنية عميقة تتعلق بإعجاز الأسلوب القرآني، والبلاغة كفن من فنون القول؛ فقد جمع فيه روعة من قبله في نظراتهم المنتثرة في تضاعيف كتبهم حول إعجاز النظم، وزاد بما يدل على رقة حسّه ،وذوقه وحصافة عقله وبعد مرماه لما وراء الصور البلاغية في القرآن من إثارة للحس، ورسم للعواطف وتشخيص للمعنى الذهني حين ينبض في عالم المرئيات».[3]

---

[1]- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ ، فتحي أحمد عامر ، ص67.

[2]- تأويل مشكل القرآن ،أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة،شرح ونشر أحمد صقر،ط3،المكتبة العلمية،القاهرة، 1401هـ1981م ، ص110.

[3]- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ ، فتحي أحمد عامر، ص84.

وقـــد تناول الرماني الآيات تناولا فيه الأداء النفسي والأداء التصويري إذ كان أول من تكلم عن الجانب أو الأثر النفسي في الاستعارة، وعلى هذا المستوى الذي يدرك خصائص الجمال في النظم وما يتصـــل بـــه ، ويعي القيمة الفنية للكلمة في الجملة وللجملة في العبارة ، كما تعمق في دراسة التشبيه وتناوـــله تناولا ذوقيا، كما تحدث عن صور أخرى كالتلاؤم والمزاوجة والمبالغة والإيجاز، تضاف إلى تناوـــله الفـــريد والجديـــد للتشبيه والاستعارة، مما أضاف إلى الدراسة الفنية نمطا جديدا متوخيا فيها الجانـــب النفسي والتأثير الوجداني ، ولقد تنبه الرماني إلى طريقة القرآن في مخاطبة الغرائز البشرية بدقة تصـــويره لخفايا النفس وكان النسق الفني في هذا الصدد صورا تنبض بالحركة وتتفاعل في مجال الحس فيبرز المعنى وتتماوج الأفكار.[1]

وعلـــيه يمكـــنني أن أقـــول أن ما قدمه الرماني،يعتبر بحق أول دراسة فنية تميزت بالدقة والوضوح ،والتماسك،فتحت الباب واسعا أمام دراسات أخرى تلتها.

ومن الدراسات الجادة التي كشفت عن فنية القرآن كتاب"بيان إعجاز القرآن"للخطابي(ت.388ه) ،حيـــث تحـــدث عن الأسلوب، فمنه البليغ الرصين الجزل ومنه الفصيح القريب السهل ومنه الجائز الطلـــق الرسل، ولقد تفرد الخطابي عن سابقيه ومعاصريه بتلك الإشارة الدقيقة إلى حقيقة الأسلوب فهـــو لا يعطي الأهمية للفظ وحده ، ولا للمعنى وحده، ولكنه يعطيها للنظم الذي يجمع بين الأمرين فالكلام عنده يقوم بأشياء ثلاثة : 1- لفظ حامل 2- معنى به قائم 3- رباط لهما ناظم.

يقـــول الخطابي رادا على المعترضين على قوله تعالى:﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾[يوسف:17]،الذين زعموا أن كـــلمة (افترس) هنا أصح من كلمة أكل إذ أن الافتراس خاص بالسباع أما الأكل فيعم كل آكل من الحـــيوان والإنسان:« إن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب،وأصل الفرس دق العنق،والقوم إنمـــا ادّعـــوا على الذئب أنه أكله أكلا، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه فلم يترك مفصلا ولا عظما وذلـــك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق يشهد بصحة ما ذكروه فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع وحكى ابن السكيت في ألفاظ العرب قولهم

---

[1]- المرجع نفسه، ص90.

:أكل الذئب الشاة فما ترك منها تامورا»[1]. ثم يمضي مستشهدا بالشعر وبالحديث النبوي وهو كما نرى يتناول الفروق اللغوية مع الاستشهاد بطريقة فنية جميلة تقنع وتمتع .

وخلاصـــة القول أن الخطابي تمم ما بدأه الرماني وأضاف إليه بعرضه للعبارة من حيث الوحدة لفظا ومعنى ونظما ، وأنه تناول الصورة البيانية معللا أسباب جمالها كاشفا عما ورائها من حيث الكلمات التي تدل عليها، وهو على تمكينه من دلالات اللغة وخصائص اللفظ ، وبعرضه للأثر النفسي للآيات في آخر رسالته وإن كان قد سبق إلى هذا إلا أن ما تناوله كان دليلا مهما للمعاني الثانية وراء النظم.

وللباقلاني(ت:403هـــ) أيضا بعض الإضافات المهمة التي يمكن عدها من اللفتات الفنية المهمة في الدراســـة القرآنـــية بمـــا تناثر له من آراء في:" التمهيد والانتصار والإعجاز" وإن غلب عليه الطابع الكلامـــي،إلا أنـــه تناول النظم القرآني باعتباره عملا فنيا موحدا،إذ أطنب في ذكر المعاني الثانية التي يســـتدعيها النظم القرآني كله وبإشاراته اللامعة التي تدل على فطنته وذوقه،ولولا انشغاله بالرد على المعترضين والمجادلين في القرآن لكنا قد رأينا له ما يثلج الصدر في هذا المجال.

ويتجـــلى ذلـــك في دراســـته الفنية لسورتي غافر والنمل إذ أخذ يعرض آيات السورة الواحدة تلو الأخرى رابطا بين معانيها ثم الكلمة، ثم عرض لبناء السورة جميعها.

أما الشريف المرتضى صاحب كتاب"الأمالي" فقد وقف أحيانا إلى سرد آراء قوية في النص الواحد تخـــتلف اتجاهـــا ومشـــربا ، وكلها موضع النظر والاعتبار، وهذه أهم ميزة في تناوله إذ تتعدد الآراء وتتنوع المواقف وتكثر اللفتات.

كمـــا يمكننا أن نعد أبا هلال العسكري(ت:395هـــ)من الذين كانت لهم لفتات فنية في دراسة القـــرآن الكريم في كتابه الصناعتين الذي نبه في مقدمته إلى أهمية علم البلاغة،وأنه من العلوم الواجب تعـــلمها بعـــد معـــرفة الله جل ثناؤه،وقد تكلم عن الفصاحة والبلاغة والإيجاز والإطناب والتجنيس والمقابلـــة والمماثلـــة والمـــبالغة، مكثرا من الاستشهاد بالنصوص القرآنية في أكثر المسائل التي عالجها وعـــرض إلـــيها كما نراه في هذا المثال معلقا على قوله تعالى:﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[يـــــس:78]

---

(1) – بيان إعجاز القرآن،ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي،تحقيق:محمد خلف الله و زغلول سلام،ط2،دار المعارف،مصر،1387ه،1968م،ص37.

فهـــذه رســـالة واضحة على أن الله قادر على إعادة الخلق مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها ، لأن الإعادة ليست بأصعب في العقول من الابتداء.[1]

ومن الذين أسهموا في هذا المجال الشريف الرضي(ت.436ه) في كتابه (تلخيص البيان في مجازات القـــرآن) و (المجـــازات النبـــوية)، فقد سلك مسلكا طيبا في إيضاحه للصور البيانية إذ بعد بها عن التقليد والغموض مفصحا عن جوانب التعبير الملهم في كتاب الله بإيجاز كل ذلك بأسلوب راق يدل عـــلى تأثره بروعة البيان القرآني،يقول معلقا على قوله تعالى:﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبـــياء:93]:«اســـتعارة والمراد بها أنهم تفرقوا في الأهواء واختلفوا في الآراء وتقدمتهم المذاهب وتشـــعبت بهم الولائج ومع ذلك فجمعهم راجع إلى الله ﷻ على أحد وجهين ، إما أن يكون ذلك رجوعـــا في الدنـــيا فـــيكون المعنى أنهم وإن اختلفوا في الاعتقادات صائرون إلى الإقرار بأن الله ﷻ خالقهم ورازقهم ومصرفهم ومدبرهم ، أو يكون ذلك رجوعا في الآخرة فيكون المعنى أنهم راجعون إلى الـــدار الـــتي جعلها الله تعالى مكان الجزاء على الأعمال وموفى الثواب والعقاب ، وإلى حيث لا يحكـــم فـــيهم ولا يملـــك أمرهم إلا الله ﷻ ، وشبه تخالفهم في المذاهب وتغرقهم في الطرائق مع أن أصـــلهم واحد وخالقهم واحد بقوم كانت بينهم وسائل متناسجة وعلائق متشابكة ثم تباعدوا تباعدا قطع تلك العلائق وشذب تلك الوصائل فصاروا أخيافا مختلفين وأوزاعا متفرقين».[2]

فكما نرى فلقد أشبعْ الشريف هذه الصورة البيانية تحليلا أظهر جمالها وكشف عن رونقها فلو« أن من كتبوا في تحليل الصور البيانية نهجوا منهج الشريف لكانت آثارهم الفنية عملا أدبيا رائعا ذا إمتاع ... والرجوع إلى أسلوب الشريف في التفسير البياني مما يمتع الحس ويمد اللسان»[3] ،وقد تمتع الرضي بحاسـة بيانـية استطاع بها أن يدرك مناحي الجمال في الألفاظ فهو حينما يقرأ الآيات يتأملها بذوقه مستنبطا العلائق الموجودة بين ألفاظها ، واقفا عند كل ملمح من الملامح الساحرة الوضيئة.

وبمجـــيء عبد القاهر الجرجاني(ت:471هـــ) تدعمت الدراسات القرآنية بآراء ومواقف غاية في الأهمية بما وضع عليه يديه من لفتات مهمة نبهت الكثير من الدارسين فيما بعد إلى الكثير من المواطن

---

(1)- الصناعتين"الكتابة والشعر"،أبو الهلال العسكري ،تحقيق:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم،ط1،دار إحياء الكتب العربية، 1371هـــ1952م، ص18.

(2) - تلخيص البيان في مجازات القرآن،الشريف الرضي،تحقيق محمد عبد الغني،ط1،دار إحياء الكتب العربية،القاهرة، 1374هـــ -1955م،ص232.

(3)- خطوات التفسير البياني ، رجب البيومي ، ص181.

الجمالـــية في القرآن الكريم ، خاصة في مجال الاستعارة إلا أن هيام عبد القاهر بفكرة النظم وشغله بها حـــرم الدراسات القرآنية من إضافات مهمة في مجال الدراسة الفنية الجمالية للقرآن الكريم، ومع ذلك كما قلت بلمساته القليلة في (الدلائل) و(الأسرار) فتح الباب واسعا أمام هذه الدراسة بما نثره من آراء، ولقد كاد أن يصل إلى الكثير من الحقائق الفنية فالنبع كان على ضربة معول منه كما قال سيد قطب،فالدلـــيل[1] الذي ساقه من قول اللهﷻ:﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي﴾[هود44] ،ينبئ على حس فني وعلى دقة التحليل«فإن أكثر الدارسين للبيان القرآني قد رووا غليلهم من كتابي الدلائل والأسرار فهداهم الشيخ إلى نور مبين ، وذهب المفسرون منهم بحظ وافر».[2]

وفي القـــرن نفســـه ظهر الزمخشري(ت:528هـــ) الذي اهتدى بما قاله عبد القاهر«فالذي يقارن صنيع عبد القاهر بصنيع الزمخشري يجد الأول قد رسم الخطة وأعد المثال وبين الطريق ويجد الثاني قد تولى التنفيذ الدقيق لما رسم صاحبه؛ حيث تَتَبّع آيات الكتاب آيةً آيةً ليوضح ما عناه الجرجاني بالنظم القرآني».[3]

ولقد كان الزمخشري صاحب بصيرة ناقدة وذوق صقيل، يتمتع بحس لامع وذوق حي فغطى هذا الجانـــب المفتقد في دراسة سابقه بدراسته التفسيرية البلاغية في (الكشاف)، حيث وقف طويلا عند الألفـــاظ القرآنـــية باحثا عن أسرارها ودفائنها كاشفا عن جمالياتها، كما تحدث عن تناسب الآيات، وقـــد هـــداه هذا التأمل الطويل والنظر المدقق إلى الوصول إلى لفتات فنية بارعة،لأن الرجل كان مع تذوقه الرائق حر التفكير واسع الإدراك لا يحجر واسعا ولا يلتزم تزمتا فيما يعرض من ملامح الصورة ،بل يعرضها حارة الدم قوية النبض تشرق بضياء الحياة.[4]

وبعـــد القـــرن الخـــامس شهدت العلوم العربية والدراسات الإسلامية جمودا قاتلا بانتشار الترديد والتقلـــيد والتلخيص مع وجود بعض اللمحات الفنية عند الفخر الرازي(ت:606هـــ) في (مفاتيح الغيب) و(نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، وإن كان عمله تلخيصا لما قاله الجرجاني والزمخشري.

---

(1)- انظر لهذا في:دلائل الإعجاز في علم المعاني،عبد القاهر الجرجاني،تعليق محمد رشيد رضا،ط2،دار المعرفة بيروت،لبنان،1419ه1998م، ص36.

(2)- خطوات التفسير البياني ، رجب البيومي ، ص228.

(3)- المرجع نفسه ، ص232.

(4)- المرجع نفسه ، ص253.

وقـــد بلغـــت الدراســـات البلاغية غاية الجمود مع السكاكي (ت: 626هـــ)الذي أغلق عليها بمفاتحـــه،ولولا بعض الرجال من مثل ابن الأثير(ت.637هـــ)صاحب(المثل السائر)،وابن أبي الإصبع (ت. 654هـــ)صاحب (بديع القرآن) لفقدت الدراسات البلاغية الفنية للقرآن الكريم ملمح حياتها.

فلقـــد خص ابن أبي الإصبع كتابه إلى بيان ما يستحسنه من مظاهر الجمال في الأسلوب فتحدث عـــن كـــل ألـــوان الجمـــال الـــبلاغي من استعارة وتشبيه وطباق وتجنيس وتورية وكناية وتعريض وغيرهـــا،وقد تمـــتع بـــذوق بصير مكنه من إدراك بعض فنيات التعبير القرآن،وتجلية فرائده المتميّزة، فنجده يعلق على قوله تعالى:﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر:19]بقوله:«وهذه فريدة أعجـــب مـــن كل ما تقدم فإن لفظة خائنة بمفردها سهلة مستعملة كثيرة الجريان على الألسن ، فلما أضيفت إلى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الموقع، بحيث لا يستطاع الإتـــيان بمثـــلها ، ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذهن مستقيم على شبهها، وأشباه ذلك في الكتاب العزيز لا تدخل تحت الحصر».[1]

وهـــناك أيضـــا كتاب(إعجاز القرآن)لابن الزملكاني(ت.651هـــ)وإن كان عرضا لآراء عبد القاهـــر وترديدا لأمثلته إلا أنه يمتاز عنه بالتبويب والتنسيق،وجمع المسائل المتفرقة في أبواب وفصول، وقد بحث فيه عن فنون البديع التي لم يعرض لها عبد القاهر إلا قليلا، و لم يذكرها إلا عرضا في أسرار البلاغة.[2]

تلا هذا العمل كتاب (الطراز) المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) لأمير المؤمنين يحي بـــن حمزة العلوي (ت:740هـــ)، والذي ألفه في عصر اكتملت فيه عناصر البحث البلاغي بعد أن انتظمت علوم البلاغة وتركزت وجهات النظر إليها وأقسامها وقواعدها وفنونها ، وقد أفاد من تلك الجهود ومن جميع المناهج ، وقد قسم كتابه ثلاثة فنون الفن الأول للمقدمات الضرورية في الموضوع ،والفـــن الـــثاني لبحوث المعاني والبيان، والفن الثالث يذكر فيه فصاحة القرآن العظيم وأنه قد وصل الغاية التي لا غاية فوقها.

بعـــد هـــذا الجمود الذي ابتليت به البلاغة العربية،وتأثرت به حتما الدراسات القرآنية، أضاء فجر جديد في العصر الحديث مع كوكبة من الدارسين كان لها الأثر البالغ في توضيح الجانب الفني الجمالي

---

[1]- بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري،تحقيق حنفي محمد شرف،ط2،دار النهضة ،مصر،دت،ص287.

[2]- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ ، فتحي أحمد عامر ، ص263.

للقرآن الكريم ، من ذلك (تفسير المنار) لـــ :رشيد رضا(ت:1354هـــ1935م)،والذي عرض فيه لألـــوان الـــبلاغة المعجزة التي تستتبع ألوانا من المعاني الثواني تبعا لاختلاف طريقة النظم، وتنوع أداء الأســـاليب وذكر في تفسيره عدة دلالات فنية مما يدخل في نطاق المعاني الجمالية مثل تلوين الكلام وهـــو ما يعرف بالالتفات، وهو أسلوب فني يكثر في القرآن الكريم جمالياته وروعته ودقته،كما ظهر محمـــد عبده(ت:1905م) في تفسير جزء عم وقد كان تفسيرا متميزا لأن هدفه كان محاوله إظهار القـــرآن الكـــريم كمـــا أنزله الله تعالى، فأعاد الدراسات القرآنية إلى عهود البلاغة العريقة في أزهى عصورها« وقارئ ما بقي لدينا من تفسير الرجل يدرك العقل المنطقي في قوة التفكير وجودة الترتيب وصـــدق الاســـتدلال كما يدرك الفن البلاغي في رسم الصورة واختيار الكلمات وائتلاف السياق ويدرك الروح التأثيري في امتلاك النفوس وامتلاء العواطف وإشباع الوجدان».[1]

وقـــد استطاع محمد عبده وأتباعه من تلاميذه كمصطفى المراغي، انتهاج طريقة جديدة كان لها الأثـــر في إظهـــار جانب فني في القرآن الكريم ؛إذ لم يعد الشرح البلاغي لديه ولدى أتباعه الكثيرين يـــدور في أكثر مناحيه حول تحديد التشبيه والاستعارة والكناية في دائرة البيان أو يتقيد في أكثر أموره بمصـــطلحات الفصـــل والوصل والخبر والإنشاء في دائرة المعاني؛بل أصبح الشرح البلاغي يمس ذلك وأكـــثر مـــن ذلـــك في دائرة الأسلوب الأدبي الواضح بأسراره السافرة بحيث تطالعك روح البلاغة وجوهرها مطالعة تشبعك وترضيك.

ولأحمـــد أحمد بدوي أيضا دراسة جادة، ومهمة بعنوان (من بلاغة القرآن) حيث درس المفردات ومـــدى تمكنها في موضعها من جملتها وقوة ربطها بأخواتها ولقد كان مهتما بالبحث عن الأساليب الفنـــية لـــتقديم جزء من الجملة على الجزء وتأخير كلمة عن كلمة وعن التعريف والتنكير وأسبابهما وعـــن أســـباب اســـتخدام الخـــبر موضـــع الإنشاء وكيف جمل هنا التشبيه وراق في هذا الموضع الجـــناس...إلى غير ذلك،ولقد درس النص وحدة متكاملة ودرس المعاني التي حواها النص ودرس ما بـــين اللفـــظ والمعنى من تناسب،مقسما دراسته قسمين اثنين،خص الأول لدراسة البلاغة في اللفظ والأســـلوب،وخص الثاني لدراسة المعاني،وكيف يتناولها القرآن؟وما الذي عني به من بين عناصرها؟ وكيف أبرز هذه العناصر ليؤثر في النفس الإنسانية تأثيرا خالدا ؟لأن القرآن كما يرى أحـــمد بدوي لا يعتمد على التفكير وحده في الإقناع بمخاطبة العقل فقط ؛بل في الوقت نفسه يثير غرائز النفـــس

---

[1]- خطوات التفسير البياني ، رجب البيومي ، ص288.

الإنسانية في وعده ووعيده وأوامره ونواهيه .

وفي العصر الحديث نشطت الحركة الأدبية نشاطا كبيرا، والتي تهتم بدراسة القرآن الكريم بالكشف عن أسراره الفنية وكنوزه الجمالية، فظهر في الجامعات العربية عدد من الدارسين أسهموا في مد هذا النوع من الدراسة بآراء طيبة وقيمة،من هؤلاء أمين الخولي الذي ألقى دروسا ثمينة في التفسير القرآني على طلبته بالجامعة، كما قدم أحاديث إذاعية جديدة تدور حول بعض المعاني القرآنية وعن طريقته في تناول النصوص القرآنية ، فتقول تلميذته عائشة عبد الرحمان :« والأصل في منهج التفسير الأدبي كما تلقيته عن شيخي—أمين الخولي-هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه فيجمع كل ما في القرآن عنه ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك ، وهو منهج يختلف تماما عن الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة ، يؤخذ اللفظ أو الآية مقتطعا من سياقه العام في القرآن كله مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه أو استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية».[1]

و لـ "محمد خلف الله " إسهام في الدراسات القرآنية إذ كان يدعوا إلى دراسة النصوص القرآنية في ظل ما تمخضت عنه العلوم الحديثة من ثمار جيدة في حقول النقد والبلاغة وعلوم النفس والتربية ، والاجتماع كما له دراسة لسورة الرعد درس فيها فواصل الآيات وأشار إلى وحدة موضوع هذه السورة، وأما ناحية الجمال الفني فيها فقد ظهر حسب رأيه في ائتلاف الألفاظ مع المعاني وفي تناسب الألفاظ والأصوات، وفي اشتقاق قاموس السورة من البيئة العربية ذات الرعد والبرق والسحاب وفي المتقابلات المختلفة من أمثال الغيب والشهادة والسر والجهر .

وأما الرافعي(ت.1356هـ1937م) فهو رائد من رواد النهضة الحديثة وكتاباته تتسم بالعمق والأصالة ومنها ما كتبه حول الإعجاز القرآني والبلاغة النبوية ، والإعجاز عند الرافعي إنما هو في النظم والتأليف ويمكن إيجاز آراءه فيما يأتي :

1-الكمال اللغوي : وذلك بالنزول عن التحدي بمثل القرآن كله إلى عشر سور مثله مفتريات -كما زعموا- إلى سورة واحدة من مثله،ولوهم أرادوا هذه السورة الواحدة ما استطاعوها لأن إحساسهم منصرف إلى أصل الكمال اللغوي في القرآن مستغرق فيه ... فلا يرون المعارضة تكون إلا على هذا الأصل وهو شيء لا تناله القدرة .

---

[1]- التفسير البياني للقرآن الكريم ، عائشة عبد الرحمان،ط6،دار المعارف ،القاهرة،1982،ج،1ص14.

2- الـــتكرار:الذي يجيء في بعض آيات القرآن فتختلف في طرق الأداء وأصل المعنى الواحد في العبارات المختلفة.

3- وجـــه تركيبه : فإنه مباين بنفسه لكل ما عرف من أساليب البلغاء في ترتيب كل آية أخرى في النظم والبلاغة لاختلاف المعاني وتباين الأغراض .

4- أنـــه لـــيس وْضـــعا إنسانيا البتة فلو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبا من أســـاليب العـــرب أو مـــن جاء بعدهم إلى هذا العصر.القلق والاضطراب فليس فيه من الغرابة التي يكســـوها الـــبلغاء كلامهم في تجويد وصفه وحبكه إنما فيه غرابة الانسجام والسهولة التي يسيل بها القرآن .

5- ســـلامة أسلوبه من القلق والاضطراب فليس فيه من الغرابة التي يكسوها البلغاء كلامهم في تجويد وصفه وحبكه، إنما فيه غرابة الانسجام والسهولة التي يسيل بها القرآن .

6- ليس فيها بين الدفتين إلا رهبة ظاهرة وإلا أثر من التمكن يصف لك منزلة المخلوق من أمر الخالق ولا تجد من أغراضه إلا ما كان في وصفه مادة لتلك الرهبة ... ولذلك الأثر والروح.

7-ما في أسلوبه من اللين والمطاوعة على التقليب والمرونة بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة.

8- مـــا فـــيه من البلاغة والفصاحة يقتضيه اقتضاء طبيعيا بحيث يبنى هو عليها ولا تبنى هي عليه ،فكـــل مـــا فـــيه من مجاز وتمثيل وكفاية لا يصح في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه ولو أدرت اللغة على هذا الوضع .

9- أن موســـيقى ألفاظه نمط فريد ليس معروفا لهم في كلامهم ، حتى لم يكن لمن يسمعه بد من الاسترسال إليه ، فإنه يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية كأنما يوقع إيقاعا لا يتلو تلاوة.

10-أنـــه لا يخلـــق عـــلى كثرة الرد وطول الدهر ، ولا تجد لذلك سرا إلا دقة النظم وإعجازه وخصائصـــه الموســـيقية ، وتساوق حروفه على أصول مضبوطة من بلاغة النغم بالجهر والهمس والمد والفن ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطا وإيجازا وإفرادا وتركيبا.

11-أن القـــرآن الكريم انفرد بصوت الحس الذي خلق من صريحه لغتهم وهو الذي يتكون من دقـــة التصـــوير المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب بمجاذبة النفس مرة ومداهمتها منها مرة أخرى ، والتنقل بها من شأن إلى شأن حتى تتصل بالمعنى وتصبح كأنها هي التي تطلبه فتقع في أسره.

12-أنه يتلطف في تحريك المشاعر والرفق بها فلا تضيق به النفس ولا تتخولها منها ملالة.

13-أن القــرآن بمادتــه اللغوية أصبح فوق اللغة التي يحذقها اللسن من الناس لأنها في القرآن في تركيب ممتنع أن يأتي بمثله الناس فخرجت من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم.

14-أن الحــركات الــنحوية والصرفية في القرآن لها من حكم البلاغة والفصاحة ما للكلمات والتركيب لشدة ما بينها من تلازم واتساق.[1]

إذن فإضــافات الــرافعي كان لها صدى واسع وكان لها دور في دفع الدراسة الفنية للقرآن إلى العمــق بــأن نــبه للجانب الموسيقي للقرآن من حيث الحرف واللفظ والعبارة والحركات الإعرابية، وعلاقــة ذلــك بالمعنى،كما نبه إلى الجانب النفسي والتأثيري في القرآن والذي صار يعرف فيما بعد بالإعجاز التأثيري.[2]

ولـــ" عـــبد الله دراز"(ت1377هـــ1958م)كتاب (النبأ العظيم)،وقد جعل هذا الكتاب للحديــث عن الجمال التوقيعي في توزيع الحركات والسكنات والجمال التنسيقي في وصف الحروف وتآلفهـــا على جهة ذات توافق وانسجام كما أجاد الحديث عن خصائص الأسلوب القرآني في الفقرة التي تتناول شأنا واحدا ، ثم فيما بين سورة وسورة،وفي القرآن بنوع عام،وقد بسط وافيا،كما تحدث عن الإيجاز والإطناب وعن فنون أخرى من البيان معتمدا على ذوقه وفهمه متحررا من آراء سابقيه ، والكـــتاب مقسم إلى قسمين خص القسم الأول منه للحديث عن معنى القرآن ، وخص القسم الثاني للحديث عن مخالفة القرآن لما يعرف من أساليب عند البشر،وقد توصل دراز من خلال مناقشته لهذين الأمرين إلى أن يستخلصْ خصائص أسلوب القرآن والتي يمكن إجمالها اختصارا في:[3]

1-القصـــد في اللفظ والوفاء بحق المعنى.وهذه خاصية انفرد بها القرآن فإن أبلغ البلغاء لا يستطيع أن يـــأتي بكـــلام لفظه قليل ومعناه واف،وإن قدر عليه مرة في موضع فإنه لا يمكن أن يكون عاما في جملة كلامه.

2-خطاب العامة وخطاب الخاصة : فالخطاب القرآني يرضى الخاصة ويفهم العامة .

3- إقـــناع العقـــل وإمتاع العاطفة : بحيث لا تغلب صفة على أخرى بأن يخاطب العقل فيقنعه ، ويؤثر في النفس فيمتعها ويشبعها.

---

(1)- انظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص134 وما بعدها.

(2)- هناك بحث مهم بعنوان"الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم"تأليف:محمد أحمد يوسف،مجلة الشريعة الإسلامية،العدد 36، 1988 ، الكويت ، ص17.

(3) - انظر: النبأ العظيم ، محمد عبد الله دراز، ط4،دار القلم ،الكويت،1977،ص 103و ما بعدها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4- البيان والإجمال : فليس في القرآن إسراف في اللفظ أو زيادة بل هناك تناسب ما بين الألفاظ وما يحتاجه المعنى دون نقص أو زيادة .

وأهم الدراسات في نظري التي أسهمت إسهاما رائعا في الدراسة الفنية للقرآن الكريم وشكلت فتحا جديدا في فهم القرآن مؤلفات سيد قطب(ت.1966م) (مشاهد يوم القيامة)و(التصوير الفني في القرآن)[1]، حيث يعد سيد قطب الرائد لظاهرة التصوير الفني في القرآن التي تعد قاعدة أساسية للتعبير فيه فيخصص فصلا كاملا للحديث عن هذه الظاهرة القرآنية الفريدة التي تكشف عن الخصائص العامة في هذا الأسلوب المتميز، وهي تلك الخصائص التي كان القدماء كالجرجاني والزمخشري على بعد مرمى حجر من إدراكها ، فسيد قطب لم يعرض لفنون البلاغة في الأسلوب القرآني كما عرضها القدماء و لم يقصرها على المعاني والبيان والبديع ، بل نظر إليها نظرة حديثة باعتبار أنها فصول في باب الأسلوب فيتناول هذه الظاهرة التصويرية الأساسية التي تنم عن الخصائص العامة في أسلوب القرآن ، ثم يتناول في فصول أخرى التناسق العجيب في جو الصورة القرآنية ، وفي تماثل جزئياتها وفي توزيع هذه الجزئيات على الرقعة فيها وفي التقابل بين جزء وجزء والتنسيق بين فكرة وأخرى.

ومن أحدث الكتب في هذا المجال كتاب(الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق) تأليف"عائشة عبد الرحمان"وكتابها(التفسير البياني للقرآن الكريم)،وقد تحدثت المؤلفة فيهما عن سمو التعبير القرآني وعن أفانينه المختلفة التي تصنع تميزه مدللة على ذلك بأمثلة تطبيقية لنصوص القرآن .

هذا باختصار حول تاريخية الدراسة الفنية وهي كما نرى مترامية الأطراف تحتاج إلى بحث مستقل لإحصائها وترتيبها فأنا لم أكثر من التمثيل خشية أن يطول الحديث وتتشعب المسائل ، فاقتصرت على ذكر أهم ما يمكن أن نعده رافدا من روافد الدراسة الفنية سواء عند القدماء أو المحدثين ، كما يحسن بي أن أنوه إلى دراسات أخرى مهمة في هذا المجال كدراسة "عبد العظيم الزرقاني " في كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن) ومؤلفات "عبد الكريم الخطيب" ومؤلفات "صالح فاضل السامرائي" (لمسات بيانية)، (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني)، (التعبير القرآني) وغيرها.

---

[1]- سيأتي الحديث إن شاء الله عن التصوير الفني في القرآن الكريم في ثنايا هذه المذكرة أثناء التعرض لفصل "سمات التصوير الفني في آيات البعث والحشر " .

أما عن أهمية الدراسة الفنية فتتمثل في :

1- أنهـــا تمكنـــنا مـــن الوقوف على سر الإعجاز الحقيقي للقرآن الكريم ، والذي أدركه العرب الأوائـــل الذيـــن نزل فيهم القرآن الكريم ، فهم لم يعرفوا هذه المصطلحات البلاغية التي قننها العلماء فـــيما بعد ولكنهم وقفوا أمام أسلوب القرآن مبهورين متحيرين وأدركوا بفطرتهم أنهم عاجزون عنه فما السر وراء ذلك ؟

2- الدراســـة الفنـــية للقرآن الكريم هي حياة متجددة له باعثة لسحره وتأثيره إذ أن«تاريخ الفن يثبـــت بوضوح أن دلالة العمل الفني وقيمته يمكن أن تفسر على أنحاء شتى على يد مختلف الأشخاص وفي مختـــلف العصـــور»[1].وهـــذا أمر لا ينبغي أن يؤسف له إذ أنه يدل أن في هذه الأعمال ثراء لا ينضب معينه.

3-الدراســـة الفنـــية أحسن وسيلة لإيصال معاني القرآن وأحكامه خاصة في العصر الحالي واللغة العربية تعاني من أهلها جفاء كبيرا جعلهم ضعافا في التحكم فيها .

4- الدراســـة الفنية باعتبارها وقفات لاستخلاص الجمال القرآني تمكن من الاستمتاع بالأسلوب القـــرآني ممـــا يهيـــئ إلى إمكانية التأثير على سامعه وقارئه حيث أن القرآن يجعل الجمال الفني مطية مقصـــودة للـــتأثير الوجداني ،كما أن«دراسة تركيب الفن تتيح لنا أن نستخلص هذه العناصر ونقدر أهميتها،وفضـــلا عن ذلك فمن الممكن أن تؤدي دراستنا إلى زيادة استمتاعنا بالفن...حتى تصبح أكثر حساســـية لكـــل مـــا هو متضمن بوفرة في العمل وبذلك يزداد الإبصار الجمالي حدة وبالتالي تزداد التجربة الجمالية إمتاعا».[2]

---

[1]- النقد الفني ، دراسة جمالية وفلسفية ، جيروم ستولينتز ، إعداد فؤاد زكرياء ، ص124.

[2]- المرجع نفسه ، ص322.

الفصل الأول :

التصوير الفني
في
آيات البعث والحشر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جـــاء في لســـان العرب:تصورت الشيء:توهمت صورته فتصَوَّر لي،والتصاوير التماثيل،قال ابن الأثـــير:الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته.[1]

أمـــا التصَوُّر فهو استحضار صور المدركات الحسية عند غيبتها عن الحواس من غير تصرف فيها بـــزيادة أو نقـــص أو تغـــيير،أو هو مرور الفكر بالصور الطبيعية التي سبق أن شاهدها وانفعل بها ثم اختزنها في مخيلته.

والتصـــوير هو:إبراز هذه الصور إلى الخارج بشكل فني ؛ فالتَصَوُّر إذن هـــو العلاقة بين الصورة والتصوير وأداته الفكر فقط،أما التصوير فأداته الفكر واللسان واللغة،والتصوير الذي هو لحاظ الفكر في صـــور الحقـــائق يختلف شدة وضعفا،باختلاف الفكر الذي هو أداته؛فتصور الشاعر جمال الفن في إحـــدى ظواهر الحياة إنما هو الإحاطة بدقائقها ، واكتناه السر الذي كانت له ، وفي كل صورة فنية طبيعية حقيقية أو صناعية خيالية جمال ظاهر أو خفي،فالفنان يمتاز عن غيره بتصور هذا الجمال الخفي ثم لا يكون فنانا حتى يصوره تصويرا فنيا، فكل من أبدع في التصوير كان مبدعا في التَّصَوُّرِ.

والأديـــب الفنان يستخدم التعبير لتصوير التجربة الشعورية التي مرت به،وللتأثير في شعور الآخرين يـــنقل هذه التجربة إلى نفوسهم في صورة موحية،مثيرة لانفعالهم ومن هنا يستمد التعبير قيمته في عالم النقد؛فالتعـــبير لـــيس ألفاظا وعبارات فقط؛ولكنه هو الأدب الكامل باعتبار ما يصوره من التجارب الشعورية.[2]

والتصـــوير في التعبير هو أرقى أنواع الفنون ذلك أن« الفن الرفيع هو الذي يحيل الأفكار التجريدية الجـــامدة إلى صـــور نابضة بالحياة،والتعبير الذي يرسم للمعنى صورة أو ظلًا،لا يخاطب الذهن وحده وإنما يخاطب معه الحس والوجدان ويثير في النفس شتى الانفعالات والأحاسيس».[3]

ولقـــد أشـــار سيد قطب إلى أن«التصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن؛فهو يعبر بالصورة المحســـة المتخـــيلة عـــن المعنى الذهني والحالة النفسية ،وعن الحادث المحسوس ،والمشهد المنظور،وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية،ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة،أو الحركة المـــتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة،وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني

---

(1)- لســـان العرب ، ابن منظور،مادة(ص ور) ،م1،ص.63.

(2)-نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، صلاح عبد الفتاح الخالدي ،ص74-75.

(3)- المرجع نفسه ،ص77.

شـــاخص حي،وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية،فأما الحوادث والمشاهد ،والقصص والمناظر فيردها شاخصــــة ،حاضـــرة فيها الحياة،وفيها الحركة فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيـــيل»[1]،ثم توســـع في معـــنى التصوير بأن جعل له آفاقا رحبة فهو:« تصوير باللون، وتصوير بالحركة،وتصـــوير بالإيقاع،وكـــثيرا مـــا يشـــترك الوصـــف والحوار،وجـــرس الكـــلمات،ونغم العبارات،وموســـيقى السياق في إبراز صورة من الصور تتملاها العين والأذن،والحس والخيال،والفكر والوجدان».[2]

فالتصـــوير إذن :هـــو الســـمة المميزة في القرآن الكريم،وهو أحد الملامح التعبيرية الأساسية في الأسلوب القرآني،هذا الأسلوب الذي اتّخذ تفرّده من نفس العطاء اللغوي الذي عرفه العرب القدماء ،فالألفـــاظ والتراكيب والصياغة النحوية هي ما تواتر في أصول اللغة،وهي التي عرفها العرب معرفة فطـــرية دقـــيقة،ومع ذلك فإن القرآن الكريم تحدّى حملة القول وأصحابه بالقول نفسه؛ فلقد تحدّاهم بـــالأداء التعبيري الفذ الذي قصرت عن إدراكه أقوى العقول وأصفى الألسنة،فالأسلوب القرآني هو جوهـــر الـــتحدي،وهو رمـــز المعجزة،ووسيلتها وشرفها، وهو ذو خصوصية متفرّدة ،وهو نمط في الأسلوب الأدبي بلغ حد الإعجاز ،ومن ثمّ كان التأثير النافذ المتغلغل في أعماق النفس.[3]

ولقـــد كـــان سيد قطب رائدا في هذا الإدراك الذي سجله في كتاب"التصوير الفني في القرآن"، وقد ذكر في كتابه خصائص وسمات التصوير،كما ذكر آفاق هذا التصوير في الموضوعات القرآنية .

ولعـــل مـــن أهم أسباب نجاحه في إدراك الخصائص العامة تلك هو« أنه نظر إلى القرآن كوحدة موضوعية متناسقة متكاملة وأدرك الرابط العام والخيط الدقيق المتين الذي يشد جميع آياته وسوره إلى بعضها البعض بتناسق موضوعي وفني معجز».[4]

هـــذا دون أن نـــنكر وجـــود هـــذه اللفتات عند بعض السابقين لسيد قطب باعترافه هو نفسه كالزمخشـــري الـــذي«كان يقع له بين الحين والحين شيء من التوفيق في إدراك بعض مواضع الجمال الفني في القرآن»[5]،وذلك كقوله في تفسير الآية:﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾[الأعراف154]

---

[1]-التصوير الفني في القرآن؛ سيد قطب،ص34

[2]- المرجع نفســـه ،ص35

[3] - من جماليات التصوير في القرآن الكريم،محمد قطب عبد العال،د ط،دم،1990،ص8.

[4] -نظرية التصوير الفني عند سيد قطب،صلاح عبد الفتاح الخالدي،ص14.

[5]-التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب،ص26.

«كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له :قل لقومك كذا وألق بالألواح ، وجر برأس أخيك إلـيك»[1]، وهــو توفــيق كمــا ترى محدود ينقصه التبلور والوضوح،فإن أجمل ما في هذا التعبير هــو"تشــخيص" الغضب كأنه إنسان ، يقول ويسكت ويصمت،فهذا "التشخيص" هو الذي جعل للتعبير جماله، وهو الذي أدركه الزمخشري ، ثم لم يحكم التعبير عنه ، أو عبر عنه بلغة زمانه فلا تثريب علـيه[2]،وأمــا عــبد القاهــر فقد بلغ غاية التوفيق «إذ أوشك أن يصل إلى شيء في كتابه "دلائل الإعجــاز" لولا أنّ قصةً المعاني والألفاظً ظلت تخايل له من أول الكتاب إلى آخره فصرفته عن كثير ممــا كان وشيكا أن يصل إليه،ولكنه على الرغم من ذلك كله كان أنفذ حسا من كل من كتبوا في هــذا الباب على وجه العموم حتى في العصر الحديث»[3].ولعل المتأمل في تعليقاته على بعض الآيات في كتابه الدلائل يدرك هذه الحقيقة،ويستطيع بنفسه أن يكتشف سعة الأفق التي تمتع بها عبد القاهر ، وأن يكتشــف أن ماكــان يعرض له من آراء هو أول الغيث في إدراك حقيقة الجمال الفني في القرآن[4]،فالنبع كان منه على ضربة فأس،اقتضت الأقدار أن تتركها لسيد قطب فينفجر على يديه.

وحقــيقة الــيوم الآخر من أهم القضايا التي شغلت بال الإنسان منذ أحقاب بعيدة،وأدهار مديدة ،ولقــد تتابعت الرسالات تؤكد وجود الحياة الأخرى، في محاولة منها لإقناع الإنسان بهذه الحقيقة، إلى أن جاء الإسلام فلم يعد الإنسان ينتظر رسالة جديدة تضيف كلمة إلى ما جاء به الدين عن الحياة الأخــرى،« ومن ثمّ حرص الإسلام على الاستجابة إلى ما ظلت البشرية تلتمسه من اقتناع مقدّرا ما في طبــيعة الإنسان الرشيد الواعي من ميل إلى الجدل،ومقررا حقه في أن يطلب ما يطمئن به قلبه ولو كــان مــتعلقا بمســألة غيبية» [5]، ولعل من رحمة الله لعباده أن ساق لنا من مشاهد اليوم الآخر في القــرآن بطريقة مثيرة جدا،حتى أصبح المؤمن مطلعا دائما على هذا العالم يعيشه بأحاسيسه ومشاعره وكأنــه يــراه رأي العــين، وإنما يرجع ذلك كما سبق وأن قلت إلى« ذكر القرآن مشاهد القيامة

---

(1)-انظر،الكشاف عن غوامض التنزيل،محمود بن عمر الزمخشري،،ط1،المكتبة التجارية الكبرى،مصر،1984،ج2، ص92.

(2)-التصوير الفني في القرآن،سيد قطب،ص26.

(3)-المرجع نفسه،ص29.

(4)- انظر تعليق عبد القاهر الجرجاني على قوله تعالى:"واشتعل الرأس شيبا"في كتابه دلائل الإعجاز في علم المعاني،تعليق محمد رشيد رضا ،ط2،دار المعرفة ،بيروت ،لبنان ، 1419هــ1998م، ص82 .

(5)- القرآن وقضايا العصر ،عائشة عبد الرحمان(بنت الشاطئ)،ط5، دار العلم للملايين ،بيروت،1982،ص160.

وعرضـــها بصـــورة محســـة، وبطريقة مثيرة في الذهن تصل معانيها إلى الحس والوجدان »[1]، هذه الطريقة في العرض جعلت ذلك العالم البعيد قريبا بكل ما فيه من بعث وحساب ،ونعيم وعذاب«فلم يعـــد ذلـــك العالم الآخر الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر موصوفا فحسب،بل عاد مصوّرا محسوســـا،وحيا مـــتحركا،وبارزا شاخصا،وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة ؛رأوا مشاهده ،وتأثروا بها ،وخفقت قلوبهم تارة،واقشعرت جلودهم تارة، وسرى في نفوسهم الفزع مرّة وعاودهم الاطمئـــنان أخـــرى ،ولفحهم من النار شواظ،ورفّ إليهم من الجنّة نسيم ،ومن ثمّ باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود ».[2]

أولاـــ سمـــات التصوير باللـــفظ القرآنـــــــي:

1 – التصويـــر الحســـي لأهـــوال القيامـــــــة:

يعتبر يوم القيامة حدا فاصلا بين عالَمين نقيضين؛عالم الدنيا،وعالم الآخرة،إنه اليوم الذي يعلن فيه عن نهاية حياة،وبداية حياة أخرى مختلفة،تتغيّر فيها موازين الكون،وتتعطل جميع نواميسه، وقد كان هذا التغيّر مهولا مرعبا،كما يصوّره لنا القرآن،فما هو دور اللفظ القرآني في نقل هيئة هذا الانقلاب؟.

أ:حالـــــة الكـــــون يـــوم القيامـــــة:

وردت في آيـــات البعث والحشر آيات[3] كثيرة تصور خراب الكون عند قيام الساعة، بما فيه من سمـــاء وأرض ونجـــوم وجبال ، وكواكب وبحار ،والقرآن وهو يتحدث عن هذا الانقلاب في حياة الكـــون يختـــار ألفاظا موحية تنبض بالحياة،وإن كان الأمر عقليا بحتا إلّا أنّ دقّة ألفاظه أعطت للمعنى تصـــويرا جعلـــته يســـمو عن التعابير العقلية المجرّدة فإذا الألفاظ حيّة، والمعاني سامية،ذلك أنّه حينما يخاطـــب يراعي أمرين·اثنين،الأوّل العقل فيقنعه، والشعور فيشبعه فهو« لا يخاطب العقل وحده،على نحـــو مـــا نعلم من طبيعة سائر أنواع الكلام ، ولكنّه يخاطب كلّا من العقل والشعور معا،أو قل إنّه يحمـــل إلى العقل معنى يخاطبه به وينهيه إليه، وينفث في المشاعر والخيال إحساسا يصوّره ذلك وينبّهها إلى ما فيه من حركة وحياة ».[4]

---

(1)–أسلوب الدعوة في القرآن الكريم،مخطوط رسالة دكتوراه دولة في الدراسات القرآنية،عبد الحليم بوزيد ،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ،قسنطينة ،1419هـــ1999م،ص234.

(2)–مشاهد القيامة في القرآن ،سيد قطب،ط7،دار المعارف ،القاهرة ،1981،ص38..

(3)–انظر هذه الآيات في:المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،فؤاد عبد الباقي،د ط،دار الحديث،القاهرة،1987.

(4)ـــ من روائع القرآن ،محمد سعيد رمضان البوطي ،ط3،مكتبة الفارابي ،دمشق،1975 ، ص168.

أ-أ: السمـــــــــــــــــاوات:

كـــثيرة هــــي الآيات التي تصور ما يحدث للسماء أثناء بعث الناس وحشرهم في اليوم الآخر، من ذلك قوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾[الطور:9].فلفظة"تمور"عبّرت بجرس حروفها ،وبانسجامها مـــع السياق وبظلها عمّا سيحدث للسماء من اضطراب، وجريان وعدم استقرار، والمور كما جاء في القاموس المحيط مأخوذ من:مار يمور مورا تردد في عرض وأتى نجدا، والدّم جرى وأماره أساله والمور المـــوج والاضطراب والجريان على وجه الأرض والتحرّك وناقة موّارة سهلة السير سريعة وسهم مائر خفـــيف نـــافذ داخـــل في الأجسام[1]، قال ابن عباس وقتادة: تتحرّك تحريكا ، وعن ابن عباس هو تشققها،وقال مجاهد تدور دورا.[2]

واللفظة معروفة مألوفة عند العرب ليست بالغريبة ولا المستهجنة، استعملوها في أشعارهم وخطبهم. قال الأعشى:

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَوْرُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ[البسيط][3].

وفي خطبة قس بن ساعدة« آيات محكمات مطر ونبات،وآباء وأمهات، وذاهب وآت، ونجوم تمور وبحور لا تغور، وسقف مرفوع ومهاد موضوع ».[4]

وقـــد رأيـــنا من خلال المعنى اللغوي أنهم استعملوا اللفظة فيما له علاقة وطيدة ببيئتهم إذ قالوا عن الـــناقة السهلة السير السريعة : موّارة وقالوا عن السهم الخفيف النافذ"مائر"، وهذا هو سر الإعجاز القـــرآني إذ أنـــه خاطـــب العرب بلغتهم فكلامه من جنس كلامهم، لكنه حين يستعمله يمنحه حياة جديـــدة متمـــيّزة؛هي هاته التي نراها في القدرة على التصوير بدقة متناهية،لأنه« وهو يستعمل المادة اللغويـــة المطـــروحة بين أيدي العرب من حروف وكلمات ويراعي قواعدهم في تأليفها ، يأتي بها في أســـلوب فريد متميّز ، أسلوب جديد لم تعرفه العرب في كلامها على كثرة ما عرفت من الأساليب والطرائق التعبيرية».[5] ومن خلال المعنى اللغوي تتبيّن جليّا جمالية هذا اللفظ في تصوير هيئة السماء

---

[1]- القاموس المحيط ،مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، ،باب الراء فصل الميم ،ج2 ،ص136.

[2]- تفسير القرآن العظيم ،أبو الفداء إسماعيل بن كثير،ط1،الشركة الدولية للطباعة والنشر،2001م،م4،ص241.

[3]-ديوان الأعشى ،دط،دار بيروت للطباعة والنشر ،بيروت ،1400هـ-1980م،ص144.

[4]ــ البيان والتبيين ،أبو عثمان بن بحر الجاحظ،تحقيق درويش جويدي،المكتبة العصرية ،صيدا-بيروت،1423هـ-2003م ،ج1 ، ص186.

[5]ــفي الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم،وليد قصاب،ط1،دار القلم،الإمارات العربية المتحدة1142ه2000م،ص 31.

يـــوم القيامة فهي مضطربة ذاهبة يمنة ويسرى تتحرك بسرعة لخفتها، وقد كانت من قبل ثابتة مستقرة فقد بنيت بناء أحكمت عرصاته،وبدقة شدّت لبناته، والمخيلة تندهش من هذه الحركة المخيفة الدائرة المـــتموّجة،التي تجعـــل الإنســـان يستسلم جاثيا على ركبتيه في اللحظة التي يدرك فيها أن المخلوقات ستموج بأعنف ما تموج به السماء فكيف به وهو من أضعف المخلوقات؟.

ومـــن جمالية هذا اللفظ أنه انتقى انتقاء مميّزا يتناسب مع الجو العام للسورة إيقاعا وصورا وظلالا، حيـــث أنهـــا -أي السورة- تقود حملة مرعبة قويّة تلاحق الإنسان لتجره ليذعن للحق، هذه الحملة« يشـــترك فيها اللفظ والعبارة،والمعنى والمدلول،والصور والظلال والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السّواء،ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف،وإيقاعاتها كما لـــو كانت صواعق،وصورها وظلالها كما لو كانت سياطا لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام» [1].

ومـــن الآيـــات التي تصور ما يحدث للسماء يوم القيامة قوله تعالى:﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾[الحاقـــة:16]،إذ لعبت لفظة"واهية"دورا مهما في رسم صورة السماء وتقريبها للحس حتى كـــأن المـــرء يراها رأي العين،وقد زاد من روعة التصوير التعبير بصيغة الماضي"وانشقت"فهذا العالم الذي كان بعيدا أو غير متقبل عند الكثيرين ها هو الآن يصير حاضرا متلمسا،وهذه من أهم السمات الـــتي تمتاز بها مشاهد يوم القيامة جميعا فهي«حاضرة اليوم تراها رأي العين وتحسها النفس،والفارق الســـحيق بـــين العالمين فارق قريب،بل لا فارق هناك في بعض الأحيان،بل ربما كانت"الأخرى" هي الحاضـــرة وكانت"الدنيا"ماضيا بعيدا يتذكره المتذكرون تلك سمة تحي هذه المشاهد في النفس وتقوي أثرها في الحس». [2]

وقد جاء في بصائر ذوي التمييز : أن وهى يهي:تخرّق وانشق واسترخى رباطه. [3]

قال سماك عن شيخ من بني أسد عن علي قال:تنشق السماء من المجرّة رواه ابن أبي حاتم،وقال ابن جريج هي كقوله تعالى:﴿ وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾[النبأ:19]،وقال ابن عباس:متخرّقة

---

(1)ــ في ظلال القرآن، سيد قطب ،ط10،دار الشروق،بيروت،1402هـــ1982م، م6، ص3391.

(2)ــ مشاهد القيامة،سيد قطب، ص39..

(3)ــ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد الدين بن يعقوب الفيروز‌آبادي، تحقيق محمد علي النجار ،ط3 ، القاهرة، 1996، ج5،ص288.وانظر:القاموس المحيط،،الفيروز بادي،باب الألف فصل الواو،ج4،ص402.

والعرش بحذائها.[1]

إن الإنسان وهو يتملى هذه اللفظة "واهية" يشعر بضآلة نفسه وحقارتها فالجو«جو هول وروع ، وهو يوقع في الحس شعورا بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة ، وبضآلة الكائن الإنساني تجاه هذه القدرة من جهة أخرى»[2] ، كيف لا يحس بذلك وهو يرى هذه السماء التي شدت لأعلى سقفا مرفوعا، فيستشعر عظمتها وقوتها يراها الآن من شدة الهول والجلال قد أرخت رباطها وأذعنت لخالقها، وانشقت وانفطرت،وأتت طائعة مستسلمة،ومن الذي يسمع﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ولا يتمثل بخاطره هذه النهاية الحزينة ، وهذا المشهد المفزع للسماء الجميلة المتينة،ثم لا يسري الروع في حناياه ،وتأخذه رجفة الفعل ورهبة الموقف.

والحقيقة أن سورة الحاقة وهذه الآيات التي بين أيدينا واحدة من آياتها « سورة هائلة رهيبة ، قلّ أن يتلقاها الحس إلاّ بهزة عميقة ، وهي منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع هذا الحس ، وتطالعه بالهول القاصم والجد الصارم ، والمشهد تلو المشهد كله إيقاع ملح على الحس بالهول آنا وبالجلال آنا وبالعذاب آنا ، وبالحركة القوية في كل آن ».[3]

ومن آياته التي لا تقل روعة عن سابقاتها في تصوير ما يحدث للسماء يوم القيامة قوله تعالى :﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء.104]، إذ ترسم الآية مشهدا عجيبا يقف أمامه القارئ فاغرا فاه. فهذه السماء ذلك المخلوق العجيب الذي وقف الإنسان أمامه عمرا مديدا يتأمله ويتدبره،ولطالما اهتدى بنجومها يوما واستأنس بها يوما آخر وطارد كواكبها وكل ما يعرج فيها ، يخيفه رعدها وبرقها ويطرب لجمالها وحسنها ، يخافها حينا ويرجوها حينا آخر؛ هاهي تنتهي في لحظة سريعة خاطفة وهو الذي قد ألح عليه هذا السؤال دوما كم من الوقت قد استنفد في بناء هذه السماء ؟ والقرآن يجيبه لكن العجب يبقى سادلا عليه رداءه. قلت وهو يرى ذلك كله، هاهو يراها كما لم تكن في لحظة « ذلك أن السماء قد طويت في

---

[1]ــ تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ج4 ، ص414.

[2]ــ في ظلال القرآن ،سيد قطب، م6 ،ص3677 .

[3]ــ المرجع نفسه ، ص3674.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هـــذا اليوم كما يطويْ خازن الكتب كتبه ، فلمَّت أطرافها وحزمت رقعتها »[1]،وجمال التصوير لا يقـــف عـــند سرعة الفعل وحسب وإنما يظهر في الحركة،وفي ما يرسمه لما بعد هذا الطي، فما الذي ســوف ينكشـــف له من عجائب كانت تحجبها عنه السماء؟،ليناله الروع والخوف من هذا المجهول المخـــتفي،فقد« قضي الأمر وانتهى العرض وطوي الكون الذي كان يألفه الإنسان..وإذا عالم جديد وكون جديد» [2]، وفي اختيار اللفظة السابقة حسن ودقة إذ نراها متمكنة في موضعها غير نابية عنه وهـــذا وجه من وجوه الإبداع في القرآن الكريم؛إذ أن يبدع في اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى، فتبدو كـــلماته في جمله كالقطعة في الآلة فتراها متمكنة في مكانها تحتله احتلالا، متلائمة مع غيرها ، ثم ترى الـــروح تسري في داخلها فتحس لها نبض الحياة متلألئة مشعة ،فتبهرك قوتها وجمالها ودقة تمكنها فلو حاولـــت لها انتزاعا نازعتك وغلبتك ، فالكلمات القرآنية « جاءت بحيث لا يوجد أفصح ولا أملح منها في مواقعها ومواضعها».[3]

وقد جاء في القاموس المحيط : طوى الصحيفة يطويها فاطّوى وانطوى ، وطوى الحديث كتمه[4] ، وقال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية : كما يطوي السجل الكتاب كذلك تطوى السماء .[5]

ومـــا زاد مـــن روعـــة التصوير في هذه الآية التشبيه؛ إذ شبه طي السماء بطي خازن الصحائف لصـــحائفه، فصورة طيّ الكتب مألوفة عند الناس مفهومة ، وقد يبدو لعدم الذوق أو قليل التبصر أن التشـــبيه هنا بسيط ولكن إذا نظره صاحب حس مرهف وتأمل هذا التشبيه في سياقه، وتلمس جمال ألفاظـــه وما يتيحه للخيال من صور يرسمها لرأى شيئا عجابا،إذ وجب علينا أن نميز بين التشبيه الذي يقصد منه توصيل حقيقة مجهولة أو تقريبها إلى الذهن والتشبيه الفني فالنوع الأول لا ينبغي النظر إليه بمعيار الفن وإنما تحدد قيمته بمقدار أدائه لوظيفته، ووفائه بالعناية منه فأنت تقول مثلا لمن يجهل كروية الأرض ، الأرض كالكـــرة ولمن لا يعرف شجر النّارنج " شجر النّارنج كشجر البرتقال " ، وتقول لمن لا يعرف النسر ولو سماعا ويجهل العقاب " العقاب طائر جارح كالنسر" ومثل هذا التشبيه الذي يـــؤدي الحقيقة أو ما هو قريب منها فطن إليه الرماني قديما حين قسم التشبيه إلى ما سماه تشبيه بلاغة

---

(1) – مشاهد القيامة،سيد قطب ، ص172.

(2)– في ظلال القرآن، سيد قطب ، م4 ، ص2399.

(3)ـــ الكلمة القرآنية، فضل محسن عباس ، ، مجلة الشريعة والدراسات القرآنية ، ديسمبر1985،ج4 ، ص15 .

(4)ـــ القاموس المحيط، الفيروزآبادي ، "باب الواو والياء فصل الظاء والطاء "، ج4 ، ص358.

(5)ـــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ، ج3 ، ص206.

وتشـــبيه حقـــيقة "[1] ، فإذا تجاوزت وظيفة التشبيه نقل الحقائق أو تقريبها إلى الأذهان،إلى أن يكون أداة فنـــيّة فـــإن له حينئذ شأنا آخر، ولا يعني ذلك أيضا أن كل تشبيه من هذا القبيل ذو قيمة جمالية ثابتة ، وإنما تتباين هذه.القيمة صعودا وهبوطا بتأثير عوامل دقيقة متشابكة كموقع التشبيه من السياق ، واقتصـــاره على نقل الواقع المادي أو استثارته للخيال وكذلك بناء عبارته نفسها ومدى حظه من الأصالة والتقليد.[2]

أ–ب: الأرض:

من الآيات التي تصور ما يحدث للأرض يوم القيامة قوله تعالى :﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[سورة الزمر.67].

قـــال الزمخشري في الكشاف:القبضة المرة من القبض،والقبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف،ويقال أيضـــا أعطـــي قبضـــة مـــن كذا،تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر...وكلا المعنيين محتمل،والمعنى: والأرضون جميعا قبضته،يقبضهن قبضة واحدة ،يعني أن الأرضيين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته؛كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة[3]، وفي الآية تنبيه على غاية عظمته وكمال قدرته ،وحقارة الأفعال التي تتحير فيها الأوهام بالنسبة إلى قدرته تعالى ودلالة على أن، تخريب العالم أهون شيء عليه.[4]

أجـــل إنه لأمر في غاية العظمة والرهبة لكنه حقير عند الله ﷻ،يقف الإنسان أمامه متحيّرا متعجبا ؛فكـــم مـــن صورة سيرسمها له خياله محاولا الوصول إلى هذا المعنى الذي تبهره به هذه الآية؛«فمن يقـــرع سمعه هذا الكلام المعجز استشعر من روعة النفس ،واقشعرار الجلد ما يمكن خشية الله وعظمته مـــن قلـــبه»[5]، ،فهـــذه الآية جاءت لتصور النهاية المشهودة للكون تصويرا فيه من الرهبة والعنف

---

[1]ـــ النكت في إعجاز القرآن،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني ،تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، ط2،دار المعارف،مصر،1387هـ—1968م ،ص68.

[2]- التعبير البياني، شفيع السيدط4،دار الفكر العربي،القاهرة،مصر،1415هـــ1995م، ص68 وما بعدها.

[3] - الكشاف ،الزمخشري ،ج3،ص 356.

[4]- تفسير أبي السعود:المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،محمد بن محمد العمیادي أبو السعود ،ط2،دار إحياء التراث العربي،بيروت،،1990م،ج7،ص 262.

[5]-البرهان في علوم القرآن،بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، د ط،دار التراث ، القاهرة،د ت،م4، ص313.

والعظمة وهو«مشهد رائع حافل يبدأ متحركا ثم يسير وئيدا حتى تهدأ كل حركة،وتسكن كل نأمة، ويخيم علـى ساحة العرض جلال الصمت ورهبة الخشوع،وروعة السكون،وإنها لصورة يرجف لها الحس ويعجز عن تصويرها الخيال والقرآن حريص على التنزيه والتجريد،يستخدم هذا التخييل والتجسيم ليبدو المشهد محسوسا مثيرا للحس مشبعا للنفس»[1]،ولقد فهم النبي ﷺمعنى هذه الآية فاستشعر عظمة الموقف وأحسه صحابته ﷺ، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبيدة عن عبد الله أن يهوديا جاء إلى النبيﷺ فقال:يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول:أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾.[2]، قال الزمخشري معلقا على هذا الحديث:وإنما ضحك أفصح العربﷺ، لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع، ولا هز ولا شيء من ذلك ولكن فَهِمَهُ وقع أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنفها الأوهام هيّنة عليه هوانا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل.[3]

وإن المرء ليزداد عجبا إن كان له حظ من معرفة بالبيان أن يعلم أن هذه الحالة التصويرية قد قامت بها لفظة بسيطة"قبضته" وهي لفظة مفهومة مألوفة لا غرابة فيها، لكن القرآن حينما استعملها نفخ فيها من روحه فإذا هي كما نرى حيّة مشعة،فإنما أعجز القرآن العرب لأنهم تلمسوه فوجدوا حروفه من حروف لغتهم وكلماته من كلماتهم ، وقد جاهرهم بالتحدي فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وإنما أعجزهم بأسلوبه الفذ وطريقته الباهرة المميزة ،فالأسلوب غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها كلام ما ، إنما الأسلوب هو السبيل التي يأخذها مؤلف ما في انتقاء المفردات والتراكيب لكلامه ،وهذا هو السر في تفاوت الناس في مراتب البلاغة والفصاحة مع أنهم أصحاب لسان واحد« وهذا هو السر أيضا في أن القرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة ، بل جاء كتابا عربيا جاء على مألوف العرب من هذه الناحية ، فمن حروفهم تألفت كلماته ، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه

[1] ـ مشاهد القيامة،سيد قطب ، ص145.

[2]- صحيح البخاري، البخاري، كتاب التوحيد،حديث رقم7414 ، ص860.

[3]- الكشاف، الزمخشري ، ج3 ، ص356.

المفـــردات وتكويـــن التراكيـــب جاء تأليفه ، ولكن المعجز والمدهش والمثير لأعجب العجب أنه مع دخولـــه عـــلى العرب من هذا الباب الذي عهدوه ، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التي توافروا عـــلى معرفتها ، وتنافسوا في حلبتها ، وبلغوا الشأو فيها.نقول إن القرآن مع ذلك كله وبرغم ذلك كلـــه قـــد أعجزهم بأسلوبه الفذ ومذهبه الكلامي المعجز ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه لأمكن أن يلتمس لهم عذرا أو شبه عذر وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعن».[1]

*يقول تعالى في سورة الزلزلة :﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[سورة الزلزلة:1].

هـــذا مشهد آخر من المشاهد المروعة العظيمة الأثر التي تصور ما يحدث للأرض يوم القيامة فـــ« الهـــول هـــنا مادي في مشاهد الطبيعة وحسي في داخل الإنسان لهذا المشهد الذي لم يألفه، والذي لم يفعـــم حســـه ونفسه»[2]،فنراه يقف متعجبا متسائلا عما حدث للأرض الهادئة الوديعة ، ما الذي زلـــزلها وَرَجَّهَـــا؟. وقد رسم هذا الهول لفظة"زلزلت" هذه اللفظة العنيفة القوية الثقيلة،فقد جاء في بصائر ذوي التمييز:زلزله زلزلة و زلزال :حركه فتزلزل.[3]

و" الزلـــزلة " في اللغـــة الحركة العنيفة و الاضطراب الشديد استعمل في الحسيات فقيل زلزل الإبل ســـاقها بعنف حتى يضطرب سيرها .و تزلزلت الأرض :اهتزت و ارتجفت، ثم استعمل في الشدائد و الأهوال و ربما كان الأصل فيه :زلت الصفاة :أي ملست حتى تَزِلَّ القدم عليها مضطربة.[4]

إن هـــذا الفعـــل ليصـــور حقيقة التحول المهول المروع يوم القيامة للأرض و قد أمعن الفعل في التصـــوير بالصيغة التي جاء عليها ،فجاء ماضيا ،« و مجيء الفعل ماضيا تقرير لأنه حادث فعلا».[5] كمـــا أنه قد جاء رباعيًا على وزن(فعلل) مكرر الحروف (الزاي و اللام) و تكرير حروفه تنبيه على معـــنى الزلل فيه[6]، و قد أسهم الإيقاع الناجم عن حركات الفعل في تصوير ثقل الزلزلة فالفعل مبني لـــلمجهول، مبدوء بالضمة الثقيلة المتبوعة بالسكون الثقيل، مختوما بسكون تاء التأنيث ليتناسب مع

---

(1)-مناهل العرفان في علوم القرآن،محمد عبد العظيم الزرقاني،د ط،دار إحياء الكتب العربية،عيسى البابي الحلبي و شركاؤه،د ت،ج2 ، ص199.

(2)- مشاهد القيامة،سيد قطب ، ص209.

(3)- بصائر ذوي التمييز ،الفيروزابادي ،ج3،ص136.

(4)- التفسير البياني، عائشة عبد الرحمان،ط6،دار المعارف،القاهرة،1982،ج1،ص82.

(5)- المرجع نفسه ،ص ن.

(6)- بصائر ذوي التمييز ،الفيروزابادي،ج3،ص136.

ثقل الفعل الحاصل للأرض،فهز الأرض ليس بالأمر الهين،و معنى"زلزلت"حركت تحريكا شديدا حتى يخيل للناس أنها خرجت من حيزها لأن فعل زلزل مأخوذ من الزَلَل و هو زَلَقُ الرَّجلين ، فلما عنوا شدة الزلل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتضعيف على شدة الفعل كما قالوا :كبكبه.[1]

و بهذه الصيغة التي جاء عليها الفعل دل على أن (التحريك) كان عنيفا شديدا وقعه ثقيل على الأنفس و هو تحريك متكرر زيادة في الشدة و لهذا المعنى ذهب أبو السعود في تفسيره لهذه الآية بقوله:أي حركت تحريكا عنيفا متكررا متداركا.[2]

إضافة إلى أن اللفظة سبقت بـ " إذا " الفجائية فصرفته إلى المستقبل دون أن يفقد التعبير أثره الذي يوحي به استعمال الماضي بدلا من المستقبل الصريح ، على أن المباغتة في "إذا" لها أثرها البياني في هذا الموقف وهذه أيضا ظاهرة أسلوبية تسيطر على الحديث عن اليوم الآخر الذي يأتي بغتة إمعانا في الترهيب.[3]

و لم يقف الأمر عند صيغة الفعل وحركاته أو عند تصدير الأمر بـ " إذا" الفجائية بل راح المعنى يزداد قوة بإضافة المفعول المطلق "زلزالها" إشارة إلى هول ذلك الزلزال ، وإن المرء ليدرك بساطة الفرق ما بين"إذا زلزلت الأرض زلزالها" وبين"إذا زلزلت الأرض".

بهذا كله استطاعت هذه اللفظة "زلزلت" بصيغتها وبمعناها وبتمكنها في موضعها وبعلاقتها بما بعدها وما قبلها أن ترسم مشهدا مثيرا بحيث تدع الخيال سابحا محاولا أن يرسم صورة لما تنقله له هذه اللفظة فتهتز القلوب وتزم الأنفاس حتى وكأنهم يعيشون هذه اللحظة العجيبة فهو «مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه الصورة كل شيء ثابت،ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون والأرض من تحتهم تهتز وتمور ، إنه مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض ،وتحسبه ثابتا باقيا ، وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن ، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة».[4]

ومن الآيات التي تصور هيئة الأرض يوم القيامة وكيف تكون حالتها حينما يبعث الناس،ويحشرون على ظهرها، يقول تعالى:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا،فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا،لَا تَرَى

[1]- التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور ،ج 30،ص 491.

[2]- تفسير أبي السعود،أبو السعود ،ج9،ص188.

[3] - التفسير البياني ،عائشة عبد الرحمان ،ج1،ص82.

[4]- في ظلال القرآن ،سيد قطب ،م6،ص3954.

فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾[طـه:105-107]،وهذه الآية و إن كانت قد وردت في سياق الإجابة عن سـؤال المشـركين للنبي ﷺ عن الجبال، إلاّ أنها أشارت إلى مآل الأرض بعد أن تنسف الجبال وتدك والـتي سـيأتي الحديـث في المبحث القادم عنها إن شاء الله ، فقوله تعالى"فنذرها" أي: الأرض[1]، المدلـول عليها بقرينة الحال لأنها الباقية بعد نسف الجبال[2]،فها هو يعرض لنا صورة الأرض مصورة في هذه الألفاظ"قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا"،أي بساطا واحدا،فالقاع«هو المستوي من الأرض»[3]،و"صفصـفا"لا نـبات فيه"[4]،وقيل:"الصفصف"الأرض المستوية من كل جهة [5] ، وفي اللفظـتين إيحاء بقوة الفعل وشدته ناتج عن هذا التناغم الموسيقي بينهما "قاعا صفصفا" ومن تكرير الحـرفين في صفصفا مما أكسب الجو دويا يستفز القلوب والعقول ، والتغيير هنا مادي ملحوظ بالعين ،وهـذه أيضـا سمة أخرى في آيات البعث والحشر خاصة في الآيات التي تصور انقلاب الكون يوم القيامة أنها أبرزت مواقف اليوم الآخر في صورها المادية،لأن أغلب الناس إنما غفلوا عن هذا اليوم لأن التفكير المادي غلب عليهم فتشبثوا بالدنيا ومتاعها:﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية:32]،لذلك كانت أصوات الآي الهـادرة بحقائق البعث وبالجزاء بعيدة المدى نافذة الدوي،تستفز العواطف الهاجعة فتبعثها فزعة، وتسـتجمع الأفكار المشتتة لتسلّم وتوقن بأن اليوم الآخر حق،وأن الأدلة على قدومه المحتوم لا ترد ، جـاءت الآيـات متماشية مع هذا التفكير المادي الغالب على عقول الناس و قلوبهم،فأبرزت مواقف البعـث و الحشـر و كـل ما في اليوم الآخر في صورها المادية«فكأنها تخاطبهم بلغتهم و تتابعهم في أفكارهم و مشاعرهم و تصوراتهم تلاحقهم في أهوائهم و رغباتهم لتلوح لهم من بعد أن الجزاء دائما من جنس العمل».[6]

(1)-تفسير القرآن العظيم، لبن كثير ، م4 ، ص171.

(2)-تفسير أبي السعود،أبو السعود ، ج6 ، ص42.

(3)- تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير ، م3 ، ص171.

(4)-الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ، ج1 ، ص116.

(5)- تفسير أبي السعود أبو السعود ، ج6 ، ص42.

(6)- النقد الأدبي "دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن"، صلاح الدين محمد عبد التواب،د ط،دار الكتاب الحديث ،1423هـ-2003م ، ص55

"لا تـــرى فيها عوجا ولا أمتا"،وقد وردت"عوجا"بكسر العين،وهناك فرق بين عوج بالكسر وبالفتح ؛فـــالعوج بالكســـر في المعـــاني وبالفتح في الأعيان[1]،فما السر في استعمال عوج بالكسر في وصف الأرض؛والأرض عـــين؟ردّ الزمخشـــري على هذا بقوله:« اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصـــف الأرض بالاستواء والملاسة،ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون؛وذلك أنّك لو عمدت إلى قطعـــة أرض فسوّيتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة واتفقم على أنه لم يـــبق فـــيها اعوجـــاج، ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندســـية لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر،ولكن القياس الذي يعرضه صاحب التقدير والهندسة ،وذلك الاعوجاج لمّا لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فـــيه عـــوج بالكسر»[2] "ولا أمتا " الأَمْتُ: الانْخفاضُ، والارْتفاع والاختلاف في الشيء، والعوج ،والروابي[3] أو هوالنتوء اليسير،يقال مدّ حبله حتى ما فيه أمت .[4]

هـــذه الألفـــاظ المتناســـقة في الآية ترسم لنا صورة الأرض يوم القيامة؛هذه الأرض بجبالها وتلالها وبحارهـــا وأوديـــتها وأنهارها، بمخفضاتها ومرتفعاتها، تكون سطحا واحدا مستويا حتى« لا ترى في الأرض يومـــئذ واديـــا ولا رابية ولا مكانا منخفضا، ولا مرتفعا» [5]،وقريب من هذا قول النبي ﷺ الذي رواه البخاري عن سهل بن سعد قال:سمعت النبي ﷺيقول:(يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضـــاء عفـــراء كقرصة نقي)[6]. لكن هذه الألفاظ لا تقف وظيفتها عند استثارة خيال المستمع أو القـــارئ ليتصور حالة الأرض، بل إن هناك صورة أبعد يجمح إليها خيال المتنعم المتذوق، وهي حالة الـــناس عندما تكون الأرض على هذا الشكل من الاستواء،وقد اجتمع عليهم كل ما هو مرعب من نقر وصيحة وزلزلة وتحول في الكون لا يحتمل ولا يتصور، فيبحثون عما ينجيهم أو يخفيهم ،فها هم يهيمون على وجوههم بحثا عما يسترهم ويحميهم أو يهديهم فيتخبطون خبط عشواء عساهم يجدون

[1]- انظر:تفسير أبي السعود ،أبو السعود،ج6،ص42 ،و الكشاف، الزمخشري ج2 ص448.

[2]- الكشاف،الزمخشري ،ج2،ص448.

[3] - لسان العرب ،ابن منظور ،مادة(أ م ت)، م1،ص95.

[4]- انظر: تفسير أبي السعود ،أبو السعود،ج6،ص42.والكشاف،الزمخشري،ج2،ص448.

[5]- تفسير القرآن العظيم ؛ابن كثير،ج3،ص171.

[6]- صحيح البخاري، البخاري ، كتاب الرّقاق ،حديث رقم 6521 ،ص762.

وعفراء:بيضاء إلى حمراء ، كقرصة نقي : الخبز الحوّارى: ما كان دقيقه أبيض وهو لباب الدقيق.انظر:لسان العرب ،ابن منظور،مادة (ع ف ر)،م2،ص820.

ما ينقذهم مما هم فيه ويتمسكون به فهذه الأرض« مستوية ليس فيها علامة تدل على بناء أو مسكن أو عمـــل ولا على أثر أو شيء من العلامات البارزة التي يهتدي بها الناس إلى ما يريدون من الطرق والأمكنة وما إلى ذلك».[1]

هـــذه الصـــور الكثيرة التي تتداعى إلى خيال القارئ، ويزدحم بها عقله ويحسها ويشعر بها رسمتها هـــذه الألفاظ القليلة فقط وهذه هي الوظيفة الحقيقة للفن ،إذ أن وظيفته تتمثل في «إثارة الانفعالات الوجدانـــية وإشـــاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة، وإحاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل».[2]

ثم لنرى ذلك النظم العجيب في هذه الآية حيث احتلت كل لفظة مكانها ولو قدمنا أو أخرنا لفظة واحـــدة لاهد البناء أصلا ويكفينا فقط أن نؤخر الجار والمجرور(فيها)فتكون الآية"لا ترى عوجا و لا أمـــتا فـــيها"ليتضح لنا ميزة هذا البناء المعجز أو أن نغير في"عوجا ولا أمتا" لتصبح" أمتا ولا عوجا" فســـنرى أن الترتيب قد اختل وذهب عن هذه الآية رونقها فكأنما تلك الألفاظ بجرسها قد صفّت في قطعـــة موسيقية بديعة فلا لفظ ينبو به مكانه أو يضيق به إخوانه فلقد أعجز العرب القرآن بـــ«مزايا ظهـــرت لهـــم في نظمه،وخصائص صادفوها في سياق لفظه،وبدائع راعتهم من مبادي آيه ومقاطعها ومجـــاري ألفاظهـــا ومواقعها..وبهرهم أنهم تأملوه سورة وعشرا عشرا وآية آية فلم يجدوا في الجميع كـــلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك،أو أشبه أو أحرى وأخلق،بل وجـــدوا اتســـاقا بهر العقول وأعجز الجمهور»[3]،ولذلك أيضا نص أبو هلال العسكري على حسن الترتيب بقوله:«وينبغي.أن ترتب الألفاظ ترتيبا صحيحا،فيقدم منها ما كان يحسن تقديمه وتؤخر منها ما يحسن تأخيره ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ولا تؤخر منها ما يكون التقديم به أليق».[4]

أ-ج- الجبـــــــــــــال:

من التحولات المروعة المرعبة للكون يوم القيامة والتي يصورها القرآن بألفاظه المعبرة المنتقاة،

---

[1]-القيامة مشاهدها وعظاتها في السنة النبوية،محمد صالح أديب،ط1،المكتب الإسلامي،بيروت،1415هـ-1994،م1 ، ص126.

[2]- التصوير الفني للقرآن الكريم سيد قطب ، ص195.

[3]- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني ، ص44.

[4]- الصناعتين "الكتابة و الشعر"،أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم،ص151.

فيعيشـــها الإنســـان بحسه ووجدانه،حتى كأنه يراها ويسمعها ، ما يحدث للجبال، هاته الجبال التي يقـــف الإنسان متعجبا من عظمتها وقوتها فلا مخلوق عنده أعظم منها ،تزول يوم القيامة وتنسف وتدك،وتترع عنها هيبتها ويجذب عنها كبرياؤها.

ومـــن الآيات التي صورت بشكل رائع ما يحدث للجبال يوم القيامة قوله تعالى:﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا،فَكَانَتْ هَبَاءً مُنبَثًّا﴾[الواقعة:5-6]

قـــيل البس : الفت والدك :"وبست الجبال بسا" أي فتتت من قولهم ببسست الحنطة،والسّويق بالمـــاء ، فتت به وهي البسيسة ، وقيل معناه :سيقت سوقا سريعا من قولهم : انبست الحيّات : أي انسابت انسيابا سريعا،وقال ثعلب:معنى "وبست الجبال بسا " ،خلطت بالتراب.[1]

فالجـــبال بـــالمعنى الأول قد فتت فصارت كالبسيسة، قطعا صغيرة ،وهي بالمعنى الثاني تساق سوقا سريعا، وفي هذا صورة مذهلة تتملاها العين ،ويحسها الشعور ،فكيف لتلك الراسيات العظام الضاربة بأوتادها في أعماق الأرض أن يهون أمرها فتساق وتسيَّر؟ ، والقارئ والمستمع لهذه الآية يشعر بذلك وكأنـــه يرى الجبال وهي تسير سيرا، ثم إن اللفظة بجرسها ساهمت في إكمال الصورة "بسّت" خاصة بالسين المشددة، حتى وكأن القارئ يسمع الضجيج الناتج عن التحريك والزحزحة.

وعليه نرى أن القرآن لا يقف عند معنى واحد بل يمنح الخيال عدة صور ليتنقل بين ثناياها ويعيش معناها بكل إيحاءات اللفظ وشحنته حتى يوقن المرء بأن هذا الخبر حقيقة لأنه قد اقتحم خياله وعقله ووجدانـــه، فهـــذه الحقيقة البسيطة الواضحة «تعرض في صور شتى وترتسم في عالم كامل بالمشاهد وتـــتراءى في عشرات من الأوضاع والأشكال والسمات وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة ، تتملاها النفس ويتابعها الخيال ويستغرق فيها الحس وتتراءى فيها الظلال وتضيف إلى الثروة الأدبية صفحات مفردة لا شبيه لها ولا مثال».[2]

وإذ نـــلمح قوة الفعل في هذه اللفظة نلمحه أيضا في متمم الجملة المفعول المطلق "بسّا" حتى كأنّ اللفظـــة شيء ساقط من أعلى، نتج عن انحباس الصوت عند ضم الشفتين عند الباء ثم تلك الزحزحة مـــع حرف السين المشدّد ،والخيال يتابع ذلك كله وينتظر النهاية المرعبة لتأتي مع الانفجار الناتج عن

---

(1)- لسان العرب ،ابن منظور، مادة(ب س س)،م1،ص212.

(2)- مشاهد القيامة سيد قطب ، ص39.

حرف المد الأخير وكأن اللفظ ينقلنا لمعنى آخر قريب من هذا يشير إليه قوله تعالى:﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾[الحاقة:14]،فالنظارة يتابعون بأعناقهم الأرض والجبال وهي محمولة ثم تـــدك فتفتـــت كالبسيسة وكأنها لم تكن يوما تطاول بعظمتها السماء هذه الجبال الصلبة الراسية في عـــنفوان وقـــوة متحدية كل شيء؛تتحول تحت وقع الواقعة الخافضة،الرافعة إلى فتات يتطاير كالهباء المنبـــث،فما أهـــول هذا الهول الذي يبس الجبال الراسية الصلبة بسا ،ويتركها هباء منبثا ،وما أجهل هؤلاء الذين يتعرضون له وهم يكذبون بالآخرة وما فيها ،وهذا أثره قد تراءى لهم في الجبال.

إنّ هـــذا الاختيار الدقيق لهذه اللفظة التي تحمل كل هذه المعاني التي استفادتها عبر الزمان لا يمكن أن يحســـه إلاّ خـــبير عليم يعرف حق المعرفة كل لفظ وما يحمله من طاقة فيلبس معانيه ما يناسبها من الألفـــاظ، فالأديب البليغ ‹‹هو من يستنفد ما للألفاظ من معان أضفاها عليه الزمان ، فتثير في النفس أعمـــق الاحساسات وتملأ الخيال بشتى الصور›› [1] ، ولذلك ذهب ابن رشيق إلى أن‹‹ اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوّته››.[2]

وتزداد الصورة تجلية في الآية نفسها بقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة:6].

جـــاء في القاموس المحيط:أنّ الهباء مأخوذ من الهبوة وهو الغبرة ،ودقاق التراب ساطعة ومنثورة على وجـــه الأرض، [3]،وقوله " منبثا "مأخوذ من بث الخبر يبُثّه وأَبَثّه وبَثّثه ويبُثّه:نشره وفرّقه فانبث،وتمر منبث متفرق منشور،وبُث الغبار وبَثْبَثَه هيَّجَه.[4]

وقد نقل ابن كثير حول هذه الآية ما نصه:‹‹ قال أبو إسحاق عن علي‌ﷺ:هباء منبثا كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء،وقال العوفي عن ابن عباس في قوله:"فكانت هباء منبثا"الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت،يطير منه الشرر فإذا وقع لم يكن شيئا،وقال عكرمة:المنبث الذي قد ذرته الرياح وبثّته.وقال قتادة" هباء منبثا "كيبيس الشجر الذي تذروه الرياح››.[5]

---

[1]- من بلاغة القرآن ،أحمد أحمد بدوي ، ط3 ، مكتبة النهضة ،مصر ، ص6.

[2]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي حسن بن رشيق المسيلي القيرواني الأزدي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،ط2 مطبعة السعادة،مصر ، 1374 هـــ ـــ 1955 ، ج1 ، ص124.

[3]- القاموس المحيط، الفيروزآبادي،ج4،(باب الهمزة، فصل الهاء)،ص402.

[4]- المرجع نفسه ،ج1(باب الثاء فصل الميم)،ص161.

[5]- تفسير القرآن العظيم،ابن كثيرج4،ص283.

إنّ هـــذه الصور المختلفة التي دلّت عليها هذه الألفاظ؛صورة البس أو التفتيت والانسياب،وصورة الهباء ،والذي هو الغبار أو ما يطير من النار أو يَبَسِ الشجَرِ ،وصورة البَثّ،والذي هو النشر والتفرقة، صـــور مألوفة في واقعنا المادي ترسم في القرآن باللفظ وحسب، ولكنها بقوة وإيحاء مختلف أشدّ وطئا وأعظم تأثيرا إذ أنّ « ما يبدو لنا من حقيقة على مسرح واقعنا المادي ينعكس في القرآن بألفاظه التي ترسم صورة مجسّدة متحركة بشتّى أنواعها ؛ولئن كانت الحياة المادية تمثّلها الطبيعة وكائناتها؛فإنها في القـــرآن تـــتحرك مـــن تلقاء ذاتها أكثر مما تؤديه الحياة نفسها،فالفكر الحي بألفاظه الحيّة يحرك جميع الحواس،والحـــياة قـــد تشغل حاسة عن الأخريات،وإنّ ما تملكه لفظة القرآن من مقدرة على تحريك النفس والوجدان والعقل والمخيّلة يشهد لخصائصها بالتفرد في ميزاتها».[1]

نعـــم إنّ اللفظ ليمعن في رسم الصورة حتى كأنها تسيطر على الإنسان روحا وعقلا وحسّا أكثر ممـــا قد تسيطر عليه هذه الصورة إن رآها في حياته الواقعية ،ثمّ إن الصورة القرآنية ترتقي شيئا فشيئا حتى تكتمل فهاهي في البداية صورة الجبال وهي تبس-سواء كان ذلك بالتسيير والتحريك أو الحمل والـــدّك حتى تفتت ،والقرآن لا يقف عند هذا الحد بل يزيد الصورة أكثر ارتقاء فيشبّه فتات الجبال بالهـــباء السهل التطاير ،ثم هاهي الريح تأتي لتكمل الصورة فتنشر ذلك الهباء وتذهب به كلّ مذهب حـــتى لا يـــبدو للجبال أيّ أثر.هذا المعنى الذي تنطق به ألفاظ القرآن لا يحسّه إلا كل صاحب ذوق متدبّر فمـــن حُـــرِم الذوق حرم فرصة الاستمتاع بنفيس الكلام،وعدم القدرة على التمييز بين جيده ورديئه حـــتى ولو كان من أهل اللغة أنفسهم.نقل الزركشي في البرهان عن ابن أبي الحديد قوله:« اعلم أنّ معرفة الفصيح ،والأفصح والرشيق والأرشق والجلي والأجلى والعلي والأعلى من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه...وليس كل من اشتغل بالنحو أو باللغة كان من أهل الـــذوق وممن يصلح لانتقاد الكلام ؛وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان وراضوا أنفسهم بالرســـائل والخطب والكتابة والشعر وصارت لهم بذلك دربة وملكة تامة؛فإلى أولئك ينبغي أن يرجع في معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض».[2]

وللصـــورة الموالـــية جمـــال أحاول أن أقف عليه لنرى دور اللفظ في التصوير القرآني ؛حيث يقول تعالى:﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه:105].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1)- الإعجاز الفني في القرآن،عمر السلامي،د ط،مؤسسات عبد الكريم،تونس، ،1980ص88.

(2)-البرهان في علوم القرآن، الزركشي،م2،ص124.

جـــاء في لســـان العرب :نسفت الريح الشيء تنسفه نسفا ،ونسف البعير الكلأ ينسفه بالكسر إذا اقـــتلعه بأصـــله ،**وانتسفت** الشيء اقتلعته[1]،وفي تفسير هذه الآية قال ابن كثير :أي يذهبها عن مكانها ويمحقهـــا ويســـيّرها تسييرا[2]،فإذا كنا قد رأينا في الآية السابقة نهاية الجبال بأن صوّرت ببطء حيث يمـــنح النظارة فرصة لمشاهدتها؛فهناك أولا التفتيت،ثمّ تذرية الرياح ونشر وتطيير في الجو،في هذه الآية الأمر مختلف؛ فكل شيء يتم بسرعة هكذا دون إمهال فنهاية الجبال تكون في لمح البصر دون أن تمنح الـــناظرين فرصـــة للمشـــاهدة فهي تقتلع من مكانها وكأنها لم تكن.« في مشهد من مشاهد القيامة تتضـــاءل فيه أيام الحياة الدنيا وتتكشف الأرض من جبالها وتتعرى»[3]،ولعلنا حينما نعود إلى سياق الآيـــة نعرف السر في الإسراع هنا في إتمام نهاية الجبال،حيث الخبر هنا جاء بعد سؤال المشركين عن الجـــبال﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾.أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟[4]،لأنهم اعتقدوا لعظمتها ولقوتها أنها باقية، فكان الجواب سريعا "فقل ينسفها ربي نسفا" والفاء للمسارعة إلى إلـــزام السائلين[5]،أي ما تستعظمون أمره يوم القيامة في لحظات يقتلع من مكانه ومن أصله فلا أثرله بعد عين،فقد جمعت هذه اللفظة بين حسن التصوير والملاءمة وبين التأثير ؛ فسرعان ما ينطقها اللسان حتى ترى القلب يهتز لها« وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة في اللفظ».[6]

ب- حالـــة النـــاس يـــــوم القيـــامـــة:

صـــور أخـــرى أمعن القرآن في رسمها يوم القيامة بعد التحول العجيب للكون،هي صورة الناس وموقفهم وحالتهم من ذلك التبدل،سواء كانوا مؤمنين أو كفارا،عصاة،أوتقاة ؟،فكيف يكون الناس يوم القيامة عندما يبعثونَ من قبورهم ،ويحشرون؟.

الآيـــات كثيرة سأتناول بعضا منها لنرى كيف أسهم اللفظ القرآني في التصوير حتى صار الإنسان كأنه يرى نفسه من خلال ذلك اللفظ التصويري.

---

[1]-لسان العرب،ابن منظور،(مادة ن س ف)،م2،ص323.

[2]-تفسير القرآن العظيم،ابن كثير،م3،ص171.

[3]-في ظلال القرآن،سيد قطب،م4،ص2351.

[4]-تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير،ج3،ص171.

[5]-تفسير أبي السعود،أبو السعود،ج6،ص42.

[6]- النكت في إعجاز القرآن ،ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، الرماني ،ص98.

يقول تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[يس: 49].

جاء في بصائر ذوي التمييز أن: الخصم مصدر خاصمته أي نازعته،والخصم : المخاصم المنازع ،والجمع خصوم وخِصام وأخصام،وقد يكون للاثنين والجمع والمذكّر والمؤنث،والخصِم: الخصم الكثير ،والخُصم-بالضم-الجانب والزاوية،وأصل المخاصمة أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أي بجانبه.[1]

فهذه اللفظة تصوّر تفاجؤ الناس بيوم القيامة لغفلتهم عنه، وهم منصرفون لدنياهم معرضون عن آخرتهم بحثا عن معايشهم يلهيهم الأمل، والنهاية قريبة منهم، فهاهم يبيعون ويشترون ويتواعدون ويتداينون ويبرمون الصفقات ويتجادلون بعيدا عن أهليهم وأقاربهم فلم تأتهم القيامة وهم جالسون مع أحبائهم أو هم نائمون بل تأتيهم في السوق لأن التخاصم عادة ما يكون فيه، فمن كان يعتقد أن هذه اللفظة تنقلنا هذه النقلة العجيبة فالقارئ بمجرد أن يقرأ هذه اللفظة يرتسم أمامه مشهد الناس وهم في أسواقهم يتخاصمون متعلق كل منهم بالآخر مثنى وجماعات «والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، وحينما هم كذلك إذا أمر الله ﷻ إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلاّ أصغى ليتا ورفع ليتا وهي صفحة العنق يسمع الصوت من قبل السماء »[2]،وهم في السوق أكيد أنهم سيكونون بعيدين عن أهليهم وهذا ما تدل عليه "فلا يستطيعون وصية" فعندما تبهتهم وتفاجئهم النفخة وهم يختصمون لا فرصة لهم لكتابة وصاياهم أو لوداع أهليهم فإن أول ما يفكر فيه المشرف على الموت الموقن بالهلاك أن يكتب وصيته ويودع أهله ، ألا يفعل الكثير من الناس حينما يكون ساع إلى الهيجاء أن يكتب وصاياه ويودع أهله ، كما أن الكثير من الناس زمن الحروب و الكوارث الطبيعية يجمع أهله وأحبته في غرفة،ليجلسوا منتظرين قضاءهم، فإما أن يموتوا معا أو يحيوا معا، كأن كل واحد منهم يريد أن يملأ عينيه من أحبائه في لحظات موته هّذا إذا رتب وأعدّ .أما الساعة فهم غافلون عنها لا تمنح فرصة للإعداد والترتيب ، ثم أن هذه اللفظة دلت على أن زمن النفخ يكون نهارا ،فالاشتغال والخصام يكون نهارا لا ليلا وفي هذا تعظيم للحصول حينما يكون المرء مشاهدا له فما يأتي ليلا يكون أهون مما يأتي نهارا.

---

(1)- بصائر ذوي التمييز،الفيروزآبادي،م2،ص547.

(2)- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، م3 ، ص579.

كـــل هذه الصور أوحت بها هذه اللفظة الواحدة ولو شئنا أن نبحث عن معاني هذه اللفظة لوجدنا الكثير وهذه ميزة راقية في اللفظة القرآنية حيث إن الإيحاء اللفظي في العمل الأدبي هو الذي يرتفع به إلى سمـــو الفـــن والأدب الحـــي الخالد ، والإيحاء في القرآن صفة ملازمة لألفاظه تقوم بتدقيق معالم الصورة التي تعرضها الآية، وتدع المخيلة متحركة سابحة في أبعاد المعاني وأهدافه .« فالقارئ يستطيع بحكم ما تملكه لفظة القرآن من قوة في الإيحاء أن يغوص في المعنى الباطني للآية وأن يفتح آفاقها ويلج في منعرجاتها ، وما تخفيه من أسرار ومعان دقيقة وحينئذ يدرك مزية الإيحاء اللفظي في القرآن »[1].

ثم إن اللفظة ساهمت في رسم الصورة بجرسها المتميّز؛ فاجتماع الخاء المشددة وهي من حروف الحلق و مـــن صفاتها الاستعلاء ،و الاستعلاء هو ارتفاع جزء كبير من اللسان عند النطق بالحرف و هو من الصفات القوية ،واجتماعه مع الصاد و هو من المجموعة الأسلية، ومن صفاته الصفير مما يوحي بقوة الفعل و شدّته.

يقـــول تعالى أيضا: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل:87].

حيـــنما تـــأتي الساعة بغتة فتداهم الناس ،وهم منشغلون بأمور حياتهم متناسين هذا اليوم فما هو أثر ذلك عليهم ؟إنه الفزع والرعب .هذا ما تصوره هذه اللفظة "ففزع "

جـــاء في لســـان العرب لابن منظور[2] :الفزع الفَرَق ،والذعر من الشيء. ،وأفزعه وفَزَّعَه ،أخافه ورَوَّعه فهو فزِع.

فالـــناس يـــوم القـــيامة حينما يسمعون الصيحة يصيبهم الذعر،والفرق والخوف ممّا يشاهدون من الأهوال قال أبو السعود في تفسيره أنّ المراد بالفزع في قوله تعالى: "ففزع من في السماوات والأرض: « مـــا يعتري الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الأمر الهائلة الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق من الرعـــب والتهيّـــب الضروريين الجبلين»[3]،وقد ورد الفعل بصيغة الماضي مع أنّه معطوف على فعل

[1]- الإعجاز الفني ، عمر السلامي ، ص98 وما بعدها .

[2]-لسان العرب،ابن منظور،مادة (ف ز ع)،م2،ص1085.

[3]-تفسير أبي السعود،أبو السعود،ج6،ص303

مضـــارع "ينفخ" للدلالة على تحقق الأمر ووقوعه إثر النفخ[1]،فهذه اللفظة البسيطة تعرض علينا في صورة دقيقة«مشهد الحشر ومافيه من هول و فزع ».[2]

إنّ القـــارئ لهـــذه الآية تستوقفه هذه اللفظة لتمدّ أمامه مشهداً مروّعا مذهلا ؛إنه مشهد الخلائق حيـــنما ترعـــبهم الصيحة، ثم تنهال عليهم التغيّرات التي لا قبل لهم بها فيفرون في كل مكان بحثا عن مـــلجأ أو مســـتقر ،فـــالأرض صارت قاعا صفصفا لاعوج فيها ولا أمتا،والجبال قد نسفت نسفا ،فيستسلمون بعد عناء وجهد ،وبعد أن يقرون بضعفهم فيأتون لله داخرين.

وقـــد ناســـبت اللفظـــة موقعها مناسبة عجيبة ؛فقد قال الله تعالى في سورة النمل :﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ،وقال في سورة الزمـــر: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[الزمر:68]، فاستعمل في "النمل" "ففزع "،وفي "الزمر " "فصعق "،وإنّما قال ذلـــك في الزمر لمناسبة ما بعده وهو قوله تعالى "فإذا هم قيام ينظرون "،فإن ذلك في مقابل الصعقة،في حـــين خـــتم آيـــة الـــنمل بقوله:" وكل أتوه داخرين "وهو المناسب للفزع؛إذ معنى "داخرين " : صاغرون،فناســـب كـــل لفظ مكانه الذي وضع فيه[3]،وهذا الاستعمال هو الجديد الذي فاجأ أهل البـــيان في لغـــة القـــرآن إذ«أنه في كل شأن يتناوله من شؤو ن القول يتخيّرله أشرف المواد وأمسها رَحِمـــا بالمعنى المراد ،وأجمعها للشوارد،وأقبلها للامتزاج،ويضع كل مثقال ذرّة في موضعها الذي هو أحـــق به؛بحيث لا يجد المعنى في اللفظ إلا مرآته الناصعة ،وصورته الكاملة ،ولا يجد اللفظ في معناه إلا موطنه الأمين،وقراره المكين،لا يوما أو بعض يوم بل على أن تذهب العصور وتجئ العصور،فلا المكان يـــريد بســـاكنه بدلا،ولا الساكن يبغي عن مترله حَولا،وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان» .[4]

---

(1)-المرجع نفسه،ص ن.

(2)-في ظلال القرآن،سيد قطب ،م5،ص2655.

(3)-انظر:التعبير القرآني ،فاضل صالح السامرائي،ط2،دار عمار،عمان،الأردن،2002،ص179.

(4)-النبأ العظيم ، عبد الله دراز،ص92.

أمـــا مشـــهد الناس حين يبعثون من قبورهم فقد صوّر بصور شتى من ذلك قوله تعالى:﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر:6-7].

ففـــي هـــذه الآيـــة يصف حالة الناس حال بعثهم من قبورهم وقد استعمل التعبير القرآني لفظة" خشعا "في وصف أبصار الناس يوم القيامة عندما يشاهدون تلك الأهوال.فكيف تخشع الأبصار؟.

الخشـــوع والإخشـــاع:الخضـــوع،وقيل الخضـــوع في الـــبدن والخشـــوع في الصـــوت والبصر،والخشوع:السّكون والتذلّل،والضراعة والسكون وخشعا أبصارهم أي مطرقة في نظرها.[1]

فالخشـــوع يـــدل بأصله الحسي على قرب الشيء من الأرض:أكمة خاشعة ملتزقة لاطئة بالأرض، وبلـــدة خاشـــعة أي مغـــبرة لا مـــترل بها،والخاشع من الأرض الذي تثيره الرياح لسهولته فتمحو آثاره،ويقـــال خشـــع ســـنام البعير إذا أفضى فذهب شحمه وتطأطأ شرفه،وجدار خاشع إذا تداعر واســـتوى مـــع الأرض ومن هذا الأصل الحسي جاء الخشوع بمعنى السكون والخشوع بمعنى التطامن والذل.[2]

وقال ابن كثير خشعا أبصارهم : أي ذليلة أبصارهم .[3]

والســـر في اختيار التعبير عن حال الناس يوم القيامة عندما يبعثون بوصف الأبصار بأنها خاشعة أن « خشـــوع الأبصار كناية عن الذلة والانخذال ،لأن ذله الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما »[4]، وفي الكـــناية جمـــال بيّن إذ لو أنه عمد إلى التصريح فقال مباشرة : أذلاء منكرين لما كان ذلك الذي نـــراه في اختيار الكناية من ماء ورونق والعرب« تعد الكناية من البراعة والبلاغة ، وهي عندهم أبلغ من التصريح ».[5]

إن القارئ ليستشعر في نفسه تلك الذلة التي يأتي عليها الناس يوم القيامة لربهم صاغرين مذعنين« ولـــك أن تذهـــب بذهـــنك كل مذهب ، فيما تكون عليه مشاعر العباد ، في تلك الساعات المثقلة

---

(1)- بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي ، ج2 ،541.

(2)- انظر :لسان العرب ،ابن منظور ،مادة(خ ش ع) ،م1،ص 835،ا.

(3)-تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ج4 ، ص263.

(4)-الكشاف ، الزمخشري ، ج4 ، ص44.

(5)- البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، م2، ص300.

بالرهــبة والخوف وشديد القلق والتي تحمل ما تحمل من الترقب المضني الذي يهز الكيان هزا ويشغل المرء عن أي شيء وراء نفسه».[1]

وفي الآيــة نفســها نجـد لفظة أخرى صورت مشهد الخلائق يوم القيامة تصويرا رائعا هي لفظة الجراد في قوله:﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾،إذ شبه الناس يوم القيامة عندما يخرجون من قبورهم بالجراد ووجه الشبه هو الكثرة ، قال الزمخشري تعليلا لسر الشبه بالجراد أن "الجراد مثل في الكثرة والتموج يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض جاءوا كالجراد"[2]،ولا يخفى علينا ما للتشبيه من فائدة في إشراك القارئ في البحث عن الصورة وفهم المعنى،فالمعنى«إذا أتاك ممــثلا فهــو في الأكــثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة،وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه،وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر،وإباؤه أظهر واحتجاجه أشد » .[3]

إن هــذه اللفظة لترسم لنا مشهدا شاخصا متحركا مكتمل السمات والحركات فهذه جموع كثيرة خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر ، ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصوير المنظر المعروض .

وهكــذا تعلــن القــدرة الإلهية إعلانها ، ويبدو مشهد الخلائق وهو المشهد الذي يبدو عدد أصــحابه مستعصيا على الحصر وأيّ من العباد يستطيع حصر ذلك؟ والحق أنه لا يحيط به إلاّ الخالق القادر الذي هو بكل شيء محيط ، مشهد يراه الرائي هناك حيث يخرج الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية ، ويقومون لرب العالمين ومع هذا العدد الهائل للبشرية منذ بدء الخليقة إلى يوم البعث يمتد رواء الهول ، ويضرب الترقب بجرانه ، فلا تحس لتلك الجموع الحاشدة صوتا ولا تسمع لهم ركزا.[4]

2- التصوير الحسي للعصـــــاة:

في يــوم القيامة الذي تتغير فيه موازين الكون يجد الإنسان نفسه أمام حقيقة مرعبة مهولة تتغير فيه الهيــئات والنفســيات بــين عــاص وتقي وبين مؤمن وكافر، وكما عنى القرآن برسم مشاهد حية لانقــلاب الكــون ، عنى أيضا برسم صورة الإنسان، وقد يكون هذا التصوير حسيا أحيانا ونفسيا

(1)- القيامة مشاهدها وعظاتها ، أديب محمد صالح ، م1 ، ص134.

(2)- الكشاف ، الزمخشري ، ج4 ، ص44.

(3)- أسرار البلاغة في علم البيان ،عبد القاهر الجرجاني ،تحقيق محمد الاسكندراني و محمد بن مسعود،ط2،دار الكتاب العربي،بيروت،1418هـ-1998م، ص114.

(4)- القيامة مشاهدها وعظاتها ، أديب محمد صالح ، م1 ، ص122.

أحـــيانا أخـــرى،إذ لا يـــتوقف الترهيب القرآني عند التصوير الحسي لأهوال القيامة فيتواصل شريط التصوير ليوضّح للمشاهدين مناظر مرعبة،مفزعة أخرى من مشاهد الآخرة هي مشاهد تصور أحوال العصاة حسيا لحظة بعثهم وحشرهم، وهذه الآية تؤدي هذا الدور يقول تعالى:﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[طـــه:102]، فالقارئ لهذه الآية تسترعي اهتمامه لفظة "زرقا" إذ أخبر القرآن على أن المجرمين يوم القيامة يحشرون زرقا ، فما هي القيمة التصويرية لهذه اللفظة؟ .

جـــاء في بصـــائر ذوي التمييز أن الزّرق – محركة- والزّرقة- بالضم- لون معروف بين البياض والســـواد ، زرقت عينه –كفرح- زرقة وزرقانا ،والزرقة أيضا :العمى[1].وذهب صاحب اللسان إلى أن الـــزّرقة البـــياض حيثما كان ، والزّرقة خضرة في سواد العين وقيل أن يتغشى سوادها بياض[2]، وزرقت العين انقلبت وظهر بياضها[3].

أما ابن كثير فذهب إلى أن المراد : معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال[4].

وإن كان المعنى الأول قد يكون هو المقصود، وأقصد به أن "زرقا" تعني بياض العين وذهاب نورها علامـــة على أن هؤلاء يحشرون عميا لأن بياض العين دليل على العمى؛ إلاّ أني أميل إلى اختيار المعنى الحقـــيقي وهو زرقة العيون وإنما جعلوا كذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب« فإن الـــروم الذيـــن كانوا،أعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق العـــين أو عمـــيا لأن حدقـــة العين تزرق»[5]،فأي صورة شنيعة ترسمها هذه اللفظة للعصاة المجـــرمين فـــزرقة العـــين علامة ميزوا بها ،تدل على إجرامهم،ولذلك سمّاهم "المجرمين".هذه الصورة يعرفها العرب ويبغضونها ولذلك وصفوا أشرس أعدائهم ، وأبغضهم إليهم بأنهم زرق العيون ، والمجاز في إطلاق الكل وإرادة به الجزء فقد وصف المجرمين بأنهم زرق،والمراد عيونهم لا غير لزيادة التشنيع والتفضيع،وهذه اللفظة كما نرى جميلة في إيقاعها متّسقة مع المعنى،أضف إلى ذلك أنّ لها معـــاني لا تحصى تبعث الخيال على البحث والتنقيب عن صور شتى، فدلالاتها تقبل ذلك كله؛فللمفردة القرآنية

---

(1)- بصائر ذوي التمييز ،الفيروزآبادي، ج3،ص128.

(2)-لسان العرب،ابن منظور،مادة(ز ر ق)،م2،ص21.

(3)-اجتهادات في التفسير العلمي في القرآن الكريم،محمد عادل أبو الخير،ط1،مركز الدلتا للطباعة،القاهرة،مصر،ص181

(4)-تفسير القرآن الكريم،ابن كثير،م3،ص171.

(5)-تفسير أبي السعود،أبو السعود، ج6،ص41.

ميزات ثلاث رئيسية –جمال وقعها،واتّساقه الكامل مع المعنى،واتّساع دلالاتها لما لا تتسع لـــه عادة دلالات الكلمات الأخر،وإن كنا «قد نجد في أسلو ب بعض الأدباء كالجاحظ والمتنـــبي بعض هذه الميزات الثلاث ،أمّا أن تجتمع كلها معا ،وبصورة مطّردة لا تختلف أو تشذ فذلك مما لم يتوافر إلا في القرآن ».[1]

صورة أخرى فظيعة يرسمها القرآن للعصاة يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإســـراء:97].

فقوله تعالى "على وجوههم "تصوير للحالة التي يحشر عليها العصاة يوم القيامة،إنهم لن يكونـوا ماشين على أقدامهم كما كانوا في الدنيا،بل سيمشيهم الله على وجوههم،وهو منظر يثـــير في النفس الاشمئزاز والخوف والرعب بمجرد أن يتصوره الخيال،وتقشعر منه الأبدان لقسوته،و"على وجوههـــم ":أي سحبا كقولـــه تعـــالى:﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:48]،روى البخاري عن أنس بن مالكﷺأن رجلا قال:يا نبي الله كيف يحشـر الكافر على وجهه؟ قـــال:(أليس الذي أمشاه على رجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه علـــى وجهه يوم القيامة ؟،قال قتادة بلى وعزة ربنا[2]، إنها صورة مهينة مزعجة وأي مهانة أكبر يمكن أن يلقاها إنسان أكثر من أن يسحب على وجهه وأي ألم أفظع من أن يفتت لحم الوجـــه وأن تشوّه ملامحه ، فالمقصود من اختيار هذه اللفظة هو« الجمع بين التشويه والتعذيب لأن الوجـــه أرق تحملا لصلابة الأرض من الرجل وهذا جزاء مناسب للجرم لأنهم روّجوا الضلالة في صورة الحق، ورسموا الحق بسمات الضلال فكان جزاؤهم أن حوّلت وجوههم أعضاء مشي عوضـــا عن الأرجل» [3]،وحتى تكتمل الصورة رعبا و إهانة فقد سبقت اللفظـــة بـــ "نحشـــرهم" ،والحشر هو جمع الناس من مواضع متفرقة إلى مكان واحد ولما كان ذلك يستدعي مشـــيهم عدي الحشر بحرف (على) لتضمينه معنى يمشون[4] ،فهم يمرون ويسحبـــون على وجوههـــم حتى لا يظن ظـــان أنهم يحشرون واقفـــين على وجوههم،وفي « الالتفات من الغيبة إلى التكلم

---

(1)– التعبير الفني في القرآن الكريم،بكري شيخ أمين،ط1،دار العلم للملايين،بيروت،1994،ص185.

(2)– صحيح البخاري، البخاري ،كتاب:الرّقاق ، حديث رقم 2523، ص762.

(3)– التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج15 ، ص217.

(4)–المرجع نفسه ، ص ن.

إيذانـــا بكمال الاعتناء بأمر الحشر»[1]، لأن الآية مسبوقة بقوله تعالى:﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ ،وحقـــيقة الالـــتفات هو «نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر،اســتدرار للسامع وتجديدا لنشاطه وصيانة لخاطره من الملال والضجر ،بداوم الأسلوب الواحد عـــلى سمعـــه»[2]، ثم زاد الصـــورة إتماما وإكمالا بقوله"عميا وبكما وصما" فهم لا يحشرون على وجوههـــم وحسب بل إنهم مع ذلك الألم ومع تلك الإهانة سلبوا القدرة على الرؤية وعلى السماع وعـــلى التكـــلم فلا يرون ما هم فيه فيجتنبوه ولا يسمعون ما حولهم، ولا يصرخون فينفسون على أنفســـهم ولا يتكلمون فيستنجدون أو يتذللون أو يطلبون الرحمة«كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا يـــنطقون بـــالحق ويتصاومون عن استماعه فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا يســـمعون ما يلذّ مسامعهم ولا يتعلقون بما يقبل منهم »[3]، إن هذه الصورة لتعبر إلى النفس والروح فـــتقودهما إلى الإذعان والاستسلام ، وهذا هو سرّ تأثير القرآن في العرب وتلك هي سياسته إذ أنه « رأى ألسنتهم تقود أرواحهم فقادهم من ألسنتهم»[4].

يقول تعالى:﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه:124].

هـــذه الآية ترسم كذلك صورة حسية للعاصي يوم القيامة فهاهو يحشر" أعمى "،والعمى ذهاب البصـــر كله أو ذهاب بصر القلب والفعل[5].وفي تفسير هذه الآية نقل ابن كثير قول عكرمة أنه قال: «عمـــي عليه كل شيء إلا جهنم»[6]،فالذي أعرض عن آيات الله بأن صدّعنها و لم يتبعها يأتي يوم القـــيامة عـــلى هذه الصورة المفزعة البائسة ،وهذا المعنى نفسه نجده في في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:72].

---

(1)-تفسير أبي السعود، ، أبو السعود ، ج5 ، ص196.

(2)- البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ،م3، ص314.

(3)- الكشاف ، الزمخشري ،ج2 ، ص379.

(4)- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،مصطفى صادق الرافعي ،ص58.

(5)-انظر:القاموس المحيط ،الفيروزآبادي،باب الألف فصل العين،ج4،ص366.

(6)-تفسير القرآن العظيم، ابن كثير،ج3،ص175.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالمقصـــود ب"أعمـــى "الثانـــية:أي لا يهتدي إلى ما ينجيه ولا يظفر بما يجديه لأن العمى الأول موجب للعمى الثاني وقد جوز بكون الثاني بمعنى التفضيل على أن عماه في الآخرة أشدّ من عماه في الدنـــيا ولذلـــك قرأ أبو عمرو الأول ممالا والثاني مفخّما[1]،فأي هول ترسمه هذه اللفظة حيث يقف الـــناس محشـــورين وقـــد مرّ بهم من الأهوال ما تشخص له الأبصار وتتحرك له القلوب ؛فإذا هي هواء،ومع ذلك يضاف للعصاة فقد البصر ليزداد فزعهم فزعا وخوفهم خوفا،وإنّ السياق «يرسمه في المشهد المزدحم الهائل ،أعمى ضالا يتخبط ،لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به،ويدعه كذلك لا يقرر في شأنه أمرا،لأن مشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب؛يؤثر في القلوب »[2]،واللفظة في كلا الآيتين بسيطة بعيدة عن التكلف والتعسف باحتلالها لموقعها ومناسبتها لسياقها ،وقد أحاطت بالمعنى وأبانت عنه بمهارة فائقة،يقول ابن أبي الإصبع المصري ناصحا لمن يبتغي جـــيد الكـــلام:«وليكن كلامك سليما من التكلف بريئا من التعسف وليحط لفظك بمعناك وتشمل عبارتك على مغزاك ».[3]

3-التصويـــــر النفســـــي للعـــصـــاة :

تســـتمر معاناة العصاة يوم القيامة لتمتد من الحس إلى النفس تعرضها علينا آيات قرآنية كثيرة ؛إذ تتقلـــب نفـــس العاصي يوم القيامة في آلام شتى لا قبل لها بها ؛هذه النفس التي تعرّف بأنها « القوة الكامـــنة في الجسم الإنساني والتي هي مجمع الخير والشر ومستقر الغرائز والنزعات المحركة لهذا الجسم المـــادي في تصـــرفه واتجاهاته...»[4]،فما هي الحالة النفسية للعصاة يوم القيامة؟ وكيف أسهم اللفظ القرآني في تصويرها ،ونقل مشاهد حية لها؟

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[الفرقان:27].إذ تصوّر لنا لفظة "يعض" حالة التحسر والندم الشديدين التي يكون عليهما العاصي يوم القيامة.وحقيقة العـــض هـــو«الإمساك بالأسنان،عضِضته وعضَضْتُ عليه-(بالكسر والفتح- عضًّا وعضِيضاً <يوم

---

(1)-تفسير أبي السعود،أبو السعود،ج5،ص187.

(2)-في ظلال القرآن،سيد قطب،م4،ص2241.

(3)- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن،ابن أبي الإصبع المصري(585-654)،تحقيق حفني محمد شرف،مطابع شركة الإعلانات الشرقية،القاهرة، 1383هـ،ص420.

(4)-نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، توفيق محمد السبع،سلسلة البحوث الإسلامية ،السنة الثالثة،1391هـ-1971م،ج1،ص40.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يعـــض الظالم على يديه >عبارة عن شدة الندم لما يرى من عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك»[1]،وإن كان فعل العض حسيا إلا أنه يدل على حالة نفسية إذ « تخرج الدلالات الحسية بمجرد التعبير الحسي إلى الإيحـــاء النفسي فهما يمثلان هدفا واحدا في النسيج التصويري وتلاحمهما يعني أنهما مكملان إلى بعضـــهما لأن المقصد من العذاب الحسي هو تعذيب للنفس أيضا»[2]،ومجيء الفعل "يعض " مضارعا دلالـــة على استمرار الفعل وتكرره إذ أن البلاغيين يقولون إن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث والجملـــة الاسمية تفيد الثبوت والاستقرار [3]،ثم إن الظالم لا يعض يدا واحدة بل يعض الاثنتين«فلا تكفـــيه يد واحدة يعض عليها إنما هو يداول بين هذه وتلك أو يجمع بينهما لشدّة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضّه على اليدين وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسّمها تجسيما» [4]، وقـــد أخـــرج التعـــبير القرآني الصورة بأسلوب فذ إذ أنه عبّر عن أثر نفسي والذي هو الحسرة والغيظ بمشهد حسي متحرك وهو مشهد العض؛فالقارئ المتذوق لهذه الآية لا يقف مطولا عند تلك الحـــركة الحسية المتمثلة في عض اليدين بل إن خياله لينفذ به إلى ما يوحي به هذا الفعل وما يعكسه من شدّة التحسّر وكثر الغيظ والحنق « فليس المراد من عض الظالم على يديه تلك الحركة المادية التي تتمثل في وضع اليدين بين الأسنان والضغط بهما عليهما، لأنه لا قيمة لها في ذاتها، وإنما القيمة الحقيقة لمـــا ترمـــز له ،وتدل عليه ونعني به الإحساس بالندم والتحسّر على ما فات وذلك هو ما تظطرب به نفـــس الكافر في ذلك.اليوم وهو المراد من الآية الكريمة»[5]،لأن «عض اليدين والأنامل والسقوط في الـــيد وأكـــل البـــنان، وحرق الأسنان وقرعها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من رواد فها فيذكر المـــرادفة ويـــدل بها على المردوف، فيرتفع الكلام في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان مالا يجده عند لفظ المكنّى عنه».[6]

---

[1]-بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ج4،ص74.وانظر: لسان العرب،ابن منظور،م2،مادة (ع ض ض)ن،ص805.

[2]-آيات العذاب والنعيم في القرآن الكريم –دراسة فنية-،سعاد بولشفار،مخطوط رسالة ماجستير ،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ،قسنطينة.ص35.

[3]- الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم ، نذير حمدان ،ط1،دار المنارة،جدة السعودية، 1312هـ - 1991م،ص194.

[4]-في ظلال القرآن ،سيد قطب،م5،ص2560.

[5]-التعبير البياني ،شفيع السيد،ص112.

[6]-الكشاف ، الزمخشري،ج3 ،ص95.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقـــارن عبد الله هنداوي بين هذه الآية وبين قوله تعالى :﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:119].فيرى أن في الآيـــة الأولى عبر بالعض على اليدين،وفي الثانية عبر بالعض على الأنامل فيقول:«هنا يعرض المولى مشـــهدا مـــن مشـــاهد القيامة يصور فيه ندم الظالمين الضالين ،فالموقف أشدّ هولا والحسرة أشدّ ألما والـــندم بلـــغ منتهاه ،ولذلك صورت حركته بصورة أقوى وأشد من سابقه وهو عض الأنامل غيظا وحســـرة ففـــي هذا السياق لا يعض أنامله فقط ولا يعض يدا واحدة لأنها لا تشفي ما به من شدّة الحســـرة والندامة وإنما على يديه معا؛يداول بين هذه وتلك أو يجمع بينهما لشدّة ما يعانيه من هول الموقف؛ إذ النفس والهة مكروبة يحيط بها العذاب من كل جانب، فتتذكر ما حدث لها في الدنيا فتندم أشـــدّ الندم ولات ساعة مندم فيجسم حالته النفسية التي هي في قمة انفعالها وثورتها وندمها على ما فـــات بعـــض اليدين لبيان مدى الحسرة والندم وشدّة التفجع بعد فوات الأوان»[1]،ومن خلال هذا نـــرى أن اللفظة القرآنية تمتاز عن غيرها من الألفاظ بمزيات تنعدم في الألفاظ التي يتكون منها كلام الناس وتعابيرهم مهما بلغوا من السمو البلاغي وارتقوا في مدارج الفصاحة هذه المزية هي:

- تتـــناول مـــن المعـــنى ســـطحه وأعماقه وسائر صوره وخصائصه ولا تقف عند العموميات التي تقف عند حدودها تعبيراتنا البشرية .
- تمـــتاز عن سائر مرادفاتها اللغوية بتطابق أتم مع المعنى المراد منها فهما استبدلت بها غيرها فلن يسد مسدّها و لم يغن غناءها ولم يؤد الصورة التي تؤديها .[2]

ويرســـم التعبير القرآني الموالي صور ة أخرى للمعاناة النفسية للعصاة إذ يقول تعالى:﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[إبراهيم:42،43].فقد وصفت الأفئدة بأنها" هواء"،وقدجاء في لسان العـــرب[3]:الهَـــواء، ممـــدود: الجَوُّ ما بين السماء والأَرض، والجمع الأَهْوِيةُ، وأَهلُ الأَهْواء واحدها

---

[1]-البلا غة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية، عبد الله محمد سليمان هنداوي،ط1،،مطبعة الأمانة،مصر، 1416هـ-1995م،ص57.

[2]-انظر:من روائع القرآن ،محمد سعيد رمضان البوطي،ص139.

[3]-لسان العرب ،ابن منظور،، م3،مادة(هــ و ا)،ص848.

هَوىً،وكلُّ فارغٍ هَواء. والهَواء: الجَبانُ لأَنه لا قلب له، فكأَنه فارغٌ، الواحد والجمع في ذلك سواء. وقلـــب هواء: فارغٌ، وكذلك الجمع. وفي التريل العزيز: وأَفْئِدَتُهم هَواء؛ يقال فيه:إِنه لا عُقولَ لهم. أَبـــو الهيثم: وأَفْئِدَتُهم هَواء قال كأَهُم لا يَعْقِلون من هَوْلِ يوم القيامة، وقال الزجاج: وأَفْئِدَتُهم هَواء أَي مُنْحَرِفة لا تَعِي شيئاً من الخَوْفِ، وقيل: نُزِعَتْ أَفْئِدَتُهم من أَجْوافِهم؛ قال حسان:

أَلا أَبْلِغْ أَبا سُفيانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَواء [الوافر].[1]

وقـــال أبـــو عبـــيدة :جوف لا عقول لهم[2]،فالقلوب خالية خاوية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخـــوف ولهذا قال قتادة وجماعة :إن أمكنة أفئدهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف[3]،وفي قول قتادة إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:18]،فهذه اللفظة ترسم صورة حيّة لـــلحالة النفسية التي يكون عليها هؤلاء من الخوف والفزع ؛فقلوبهم طائرة خاوية من كل وعي ومن القـــدرة على التحمل،وإذ ترسم اللفظة هذه الصورة بما تحمله من معنى فهي ترسمه أيضا بجرسها الناتج عـــن تركيـــبة حروفها وعن حركاها.فالكلمة مبنية من الهاء والهمزة،وهما حرفان حلقيان والواو وهو حـــرف شفوي،وتشترك هذه الحروف في صفات الجهر والاستفال والانفتاح والإصمات ؛فانطلاق الهواء عند النطق بحرف الهاء وهو كما قلت حرف حلقي ليمتد إلى "الواو "وهو حرف شفوي ليعود مـــرة أخرى إلى الهمزة وهو حرف حلقي مع توالي حركتي الفتح واجتماعهما مع مد بست حركات ممـــا يدع الفم منفتحا كل هذه المدة مما يوحي بالفراغ الرهيب الذي عليه الأفئدة فهي خاوية لاشيء فـــيها من شدّة الخوف والفزع لا تقر ولا توعى،ثم انحباس الهواء مع السكون على الهمزة آخرا ليرمز إلى شـــدّة الفراغ كمن يلقي حجرا في بئر سحيقة ويتبعها مصغيا بأذنيه حتى تسقط في القعر « وليس يخفـــى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصـــوت بمـــا يخـــرج فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدّة وبما يهيء له من الحركات المختلفة في إظطرابه وتـــتابعه عـــلى مقاديـــر تناسب ما في النفس من أصولها ؛ثم يجعل الصوت إلى الايجاز والاجتماع،أو الإطـــناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوه مما هو بلاغة

---

(1)- شرح ديوان حسان بن ثابت،ضبط وتصحيح عبد الرحمان البرقوقي،ط3،دار الأندلس،بيروت،1983م،ص63.

(2)-انظر:الكشاف،الزمخشري ،ج2،ص306،وتفسير أبي السعود،ج5،ص56.

(3)-تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير،م2،ص541.

الصـــوت في لغـــة الموسيقى »[1]،وإن القارئ لن تشدّه تلك الصورة الحسية التي ترسمها لفظة هواء للأفـــئدة فما الصورة هاته إلا جسرا يعبر منها ليستشعر حالة هؤلاء وما هم عليه من الوجل والخوف «فهـــؤلاء آدميون بينهم وبين المستمعين صلة الجنس المشترك والحس المتشابه؛فهي ترسم في نفوسهم حية،ويصـــل الشـــعور بها من هؤلاء إلى هؤلاء بالمشاركة الوجدانية وبالتخييل المحسوس ،فإذا قرأها القارئ مشت رعدة الهول في حناياه كأنما يلقاه ».[2]

يقـــول تعالى:﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[يونس:27].

صورة أخرى ترسمها هذه الآية للعصاة توضح الصورة النفسية التي يكونون عليها فهم يستشعرون الذل والمهانة والخزي، ومما يلفت النظر هو التعبير عن شدّة المهانة والإذلال بقوله "ترهقهم ".

جاء في القاموس المحيط: أنّ ترهقه كفرح:غشيه ولحقه أو دنا منه والإرهاق أن تحمل الإنسان ما لا يطـــيقه ،وأرهقـــه طغـــيانا:أغشاه إياه وألحقه به ،وعسرا كلفه إيّاه.[3]،قال ابن كثير في تفسيره:« تـــرهقهم "تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها»[4]،فهي تغشاهم وتكربهم؛فاللفظة إذن تـــبرز بوضـــوح حالـــة الكآبـــة والمهانة التي يشعر بها العصاة « وفي إسناد الرهق إلى نفوسهم دون وجوههـــم إيـــذان بأنهـــا محيطة بهم غاشية لهم جميعا »[5]،ألا تراه حين وصف المؤمنين قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:26].،ومن خلال المعنى اللغوي للفظة إذ تعني التغطية والتغشية يصوّر لنا كأن الذلة غطاء قد أسبل على هؤلاء العصاة فلم يترك لهم منفذا للتنفس أوالأمل، فالذلة قد ركبتهم وأثقلتهم،وإن الذهن ليذهـــب بـــه الخـــيال في رسم صورة هؤلاء البؤساء؛وجوه كالحة،أجسام ملتصقة بالأرض،خطوات متعـــثّرة ،رؤوس منكّسة،إلى غير ذلك مما يكون انعكاسا رهيبا للحالة النفسية التي هم عليها، ومما زاد

---

[1]-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي،ص153.

[2]-التصوير الفني في القرآن الكريم ،سيد قطب،ص53.

[3]-القاموس المحيط،الفيروزآبادي،ج3،باب القاف فصل الراء،ص239.

[4]-تفسير القرآن العظيم،م2،ص414.

[5]-تفسير أبي السعود،أبو السعود،ج3،ص139.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التعـــبير جمـــالا الاستعارة حيث جعل الذلة كأنها غطاء يغشي ويغطي،فصار الأمر المعنوي محسوسا ملموسا «فالألفاظ المستعارة ألفاظ موحية لأنها أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه ،وتصور المنظر للعين وتنقل الصورة للأذن وتجعل الأمر المعنوي محسوسا »[1]؛فلقد أحكم الله ﷻإعجاز نظم كتابه، ومهما كان المتلقي عارفا بفنون البيان واسع الخبر والتجربة بضروب التصرف في أفانينه وأساليبه يبقى عاجزا عن مجاوزته والسبق إلى غاياته« وليس ذلك مردّه إلى الإغراق والإبعاد أو إقامة حواجز من غرائب الألفاظ وخفاء دلالتها أو اصطناع وجه من البيان لا تعرفها العرب وهو الـــذي أعجـــزهم ببعيانهم وأفحمهم بلسانهم ،وإنما مرده إلى كثرة التصرف في فنون الكلام ومباغتة المتلقي بما لا يتوقعه والعدول به عمّا كان يستشرف إلى ما لا يقع منه بخلد ولا يسبق إلى خاطر».[2]

4- التصويـــر الحـــســـي للمتقيــــــن:

كما يصوّر التعبير القرآني العصاة حسيا ونفسيا في آيات البعث والحشر، يقوم أيضا بتصوير المتقين حســـيا ونفسيا،ومن الآيات التي ترتسم فيها هيئة المتقين لحظة البعث والحشر ،قوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمـــران:106]، حيث تنقل لفظة "تبيض" صورة حسية للمتقين يوم القيامة، ففي حين يكون العصـــاة سود الوجوه،عَلَتْهُم غبرة ،يكون المتقون بيض الوجوه ، قال ابن كثير: "يوم تبيض" يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة[3]، وقد خص أهل التقى بالبياض « فمن كان من أهل نـــور الحـــق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضّت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه ويمينـــه»[4]،وإن كان البياض كناية عن الراحة والاطمئنان ،كما أن السواد كناية عن الخوف والفزع إلا أنـــه يجب أخذ المعنى كما تشير إليه اللفظة« فالبياض والسواد ؛بياض وسواد حقيقيان يوسم بهما المؤمن والكافر يوم القيامة، وهما بياض وسواد خاصّان ؛لأن هذا من أحوال الآخرة فلا داعي لصرفه

---

(1)- التعبير الفني في القرآن الكريم،بكري شخ أمين،ص 202ومابعدها.

(2)- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ "دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن،محمد الأمين الخضري ،ط1،مطبعة الحسين الإسلامية ،القاهرة،1413هـــ1993م، ص04.

(3)- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ، م1، ص381.

(4)- الكشاف ، الزمخشري ، ج1، ص209.

عــن حقيقــته»[1]،فخيال القارئ تستثيره هذه اللفظة حسا ووجدانا ؛تستثيره حسا في محاولته رسم صورة لتلك الوجه الكثيرة المجتمعة ،وقد وسمت بالبياض ،وعبثا يحاول أن يصل إلى مدى هذا البياض تقابلها تلك الوجوه الكثيرة المجتمعة وقد لطخت بالسواد والغبرة ،وعبثا يحاول أن يصل إلى مدى هذا السواد وتلك الغبرة،وفي الجمع بين البياض والسواد في هذه الآية مقابلة لطيفة تكثر في مشاهد الآخرة عمومـــا وفي آيات البعث والحشر منها خصوصا سيأتي الحديث عنها في فصل التناسق الفني إن شاء الله،وتســتثيره وجدانــا لتلك الطمأنينة التي تحملها هذه اللفظة ، والسياق يرسم أمامنا« مشهدا من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية....فنحن في مشهد هول ، هول لا يتمثل في ألفاظ ولا في أوصـــاف ولكن يتمثل في آدميين أحياء ، في وجوه وسمات ...هذه وجوه قد أشرقت بالنور وفاضت بالبشـــر فابيضّت من البشر والبشاشة وهذه وجوه كمدت من الحزن واغبرت من الغم واسودّت من الكآبة».[2]

بهـــذه البســـاطة في التعبير يرسم القرآن صوره فالمفردة الواحدة كافية لأن ترسم صورا لا حد لها ســـواء استعملت استعمالا حقيقيا أو انتقل بها من الحقيقة إلى المجاز ، فهذه اللفظة "تبيض" استعملت على حقيقتها دون الالتجاء إلى الاستعارة أو التمثيل لكنها تثير الحس والروح معا وهذه سمة في ألفاظ القـــرآن لا نجدها في غيره« فكثيرا ما نقرأ أو نسمع الآية فتمس قلوبنا مسا خفيفا كالنسيم العابر أو نـــتأثر بها من جانب يتصل بلحظة التلاوة، وكم يكون في النسق الذي ظهر ساذجا عمق كل العمق، وبلاغة كل البلاغة يرى فيه المجتلي الوقّاف كل حرف يكاشف روحه سر، وإن لم يلتمح في السياق تمثيل رائع أو استعارة بارعة ومحسن براق».[3]

أيضـــا من الآيات التي تصور المتقين حسيا قوله تعالى:﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا﴾[مريم: 85]، إذ تصور لفظة"وفدا" الهيئة التي يحشر عليها المتقون ويقبلون فيها على الله ﷻ.

أما المعنى اللغوي لـــ "وفدا" فنقول:وفد فلان على الأمير يَفِد وَفْدا ووفودا ووِفادة (أي ورد رسولا فهو وافد والجمع وفد مثل صاحب وصحب وجمع الوَفد أوفاد ووفود)[4]، كما تعني لفظة وفدا كما اخـــتار ذلك ابن كثير :القادمون ركبانا ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار

---

[1]-التحرير والتنوير،محمد الطاهر بن عاشور،ج3،ص44.

[2]-في ظلال القرآن ،سيد قطب،م1،ص445.

[3]- إنّا نحن نزّلنا الذكر، عز الدين علي السيد ،مجلة الأزهر ،م41،رمضان سنة1389 هـــ،نوفمبر1969م ،ص484.

[4]- بصائر ذوي التمييز ،الفيروزأبادي،ج5،ص242.

الآخــرة ، وقــد نقــل ابن كثير أيضا عن عبد الله بن الإمام أحمد فيما يرويه عن النعمان بن سعد قوله: كنا جلوسا عند علي ﷺ فقرأ هذه الآية :﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾،قال : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ولا يحشر الوفد على أرجلهم ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رحائل من ذهب فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة.[1]

وسواء كانوا ركبانا- مهما كانت طبيعة المركوب-أم كانوا يمشون على أرجلهم يبقى للفظة إيحاؤها وتأثيرهــا فالخــيال يســافر معها ليرسم صورة لهؤلاء الوافدين على الرحمان يستقبلون بره وغيثه[2]، وعبــثا يحــاول أن يتصور عددهم الهائل وهم مجموعون قادمون مرة واحدة وأن يتصور هيئاتهم وما يكونــون علــيه من الفرح والسرور، وفي اختيار هذه اللفظة السلسلة العذبة اللطيفة جمال وروعة بما تحملــه من معنى التبجيل والتكريم«وهم أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامــته كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم»[3]، لقد استغنت هذه الآية عن ذكر كــيف سيأتي هؤلاء أيكونون مشاة أم ركبانا؟ ولم تحدثنا عن هيئتهم أو منظرهم ولا على ما يلقون مــن استقبال، ولا عنْ مكان الاستقبال وزمنه لكن وجود هذه اللفظة جمعت هذه المعاني جميعا دون إغــراق في التفاصيل لتمنح الخيال فرصة للمشاركة في البحث عن فهم المعنى، وهذه إحدى خواص كتاب الله المعجز إذ أنه يقتصد في اللفظ مع وفائه بالمعنى«ومعنى هذا أنك في كل من جمل القرآن تجد بــيانا قاصــدا مقدرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية دون أن يزيد اللفظ على المعنى أو يقصــر عــن الوفــاء بحاجات الخلق من هداية الخالق ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير نجده قد جلّ لك المعنى في صورة كاملة لا تنقص شيئا يعتبر عنصرا أصليا فيها أو حلية مكملة لها، كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلا فيها وغريبا عنها» [4].

كما تصور اللفظتان "مسفرة"و"ضاحكة" في قوله تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس:38-39]، الهيئة التي يكون عليها المتقون يوم القيامة .

---

(1)- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، م3، ص142 وما بعدها .

(2)- مشاهد القيامة ،سيد قطب ، ص103.

(3)- الكشاف ، الزمخشري ، ج2،ص423.

(4)- مناهل العرفان في علوم القرآن محمد عبد العظيم الزرقاني ، ج1، ص220.

والمسفرة ذات الإسفار ،والإسفار النور والضياء ،يقال :أسفر الصبح إذا ظهر ضوء الشمس في أفق الفجر، أي وجوه متهللة فرحا وعليها أثر النعيم [1]، وهذا ما نجده في قول أبي نواس:

تَحَسَّنَتِ الدُنيا بِوَجهِ خَليفَةٍ هُوَ الصُبحُ إِلّا أَنَّهُ الدَهرَ مُسفِرُ [الطويل].[2]

فالتقاة يقبلون يوم القيامة ووجوههم مسفرة :أي مستبشرة[3]، أو هي مضيئة متهللة من أسفر الصبح إذا أضاء.[4]

أما الضحك فهو انبساط الوجه وتكشير الأسنان من السرور،ضحك :كعلم ضَحْكا-بالفتح- ،وضِحِكا-بكسرتين-وضَحِكا:ككتف،وتضحَّكن وتضاحك،فهو ضاحك،وضحّاك[5]،وإن كان إسفار الوجه،وضحكه كنايتان عن السعادة الغامرة، والسرور الكبير الذي يشعر به هؤلاء، إلا أن له قبل ذلك تلك الدلالة الحسية التي تجبر القارئ لأن يتوقف عندها بخياله،فلابد أن ترتسم صورة السعادة على الوجه ،وتظهر ملامحه بشرا وحبورا وتهللا لأساريره.قال ابن كثير:«مسرورة فرحة من السرور في قلوبهم قد ظهر البشر على وجوههم»[6]،ففي ذلك اليوم الهائل الرهيب حيث يفر المرء من أحبته لشدّة ما يمر عليه؛ تتجلى أمام العين لوحة فنرى فيها وجوها مسفرة ،مشرقة ،ضاحكة ،مستبشرة.

هاتان اللفظتان بسيطتان كل البساطة ،مألوفتان كل الإلف لكنهما موحيتان كل الإيحاء ترسلان الخيال ليغوص في عالم عجيب من المعاني،وتدعان المخيّلة محلقة ،سابحة في أبعاد المعاني لتتراءى أمامها عوالم عجيبة من الصور الباهرة وكلما ازدادت تعمقا ؛ازدادت الصورة وضوحا وجمالا وإبداعا،فالقارئ يستطيع بحكم ما تملكه لفظة القرآن من قوة في الإيحاء أن يغوص في المعنى الباطني للآية،وأن يسافر في أعماقها،وأن يفتح آفاقها ويلج في منعرجاتها ،باحثا بذوقه عمّا تخفيه من أسرار ومعان دقيقة خَفِيَّة لا يستطيع لها عدا أو إحصاء.

5- التصوير النفسي للمتقين:

---

(1)- تفسير التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، ج30 ، ص137.

(2)-- ديوان أبي نواس ،د ط ،دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ،1406هـ1986م ،ص307.

(3)- تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير، م4، ص477.

(4)- تفسير أبي السعود،أبو السعود ، ج9، ص113، والكشاف،الزمخشري ،ج4،ص187.

(5)-بصائر ذوي التمييز،الفيروزآبادي،ج3،ص460.

(6)-تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير، م4،ص477.

لا يـــتوقف الترغيب القرآني في آيات البعث والحشر عند التصوير الحسي للمتقين و إظهارهم في صـــور جذابـــة ،بـــل يســـتمر ليكشف عن نفوس هؤلاء وما أفرغ عليها من النعيم النفسي الذي يعيشونه،فمن الآيات التي تصور الحالة النفسية للمتقين في ذلك اليوم قوله تعالى :﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾[النمل:89].

جاء في لسان العرب حول كلمة "أمن" :الأمانُ بمعنى. وقد أَمِنْتُ فأَنا أَمِنٌ، وآمَنْتُ غيري من الأَمْن والأَمـــان. والأَمْنُ:ضدُّ الخوف.قال ابن سيده: الأَمْنُ نقيض الخوف، أَمِن فلانٌ يأْمَنُ أَمْناً وأَمَناً؛ حكى هذه الجوهري، وأَنتَ في آمِنٍ أي في أَمْنٍ كالفاتح.وقال أَبو زياد: أَنت في أَمْنٍ من ذلك أَي في أَمان. ويقـــال: آمَـــنَ فـــلانٌ العـــدُوَّ إيماناً، فأَمِنَ يأْمَنُ، والعدُوُّ مُؤْمَنٌ.[1]،فلفظة " أمنون " تفيد الاطمئنان والراحة؛فعـــندما تنقلب موازين الكون فتمور السماء ،وتنسف الجبال،وتدك الأرض ،وتسجّر البحار وغـــير ذلك«في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين أحسنوا في الحـــياة الدنيا فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر »[2]،وأيّ شيء يمكن أن يتمناه المرء في ذلك اليوم الرهيب المفزع المهول المخيف «والأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء وما بعده فضـــل من الله ومنّة ،ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة،بل أمّنهم يوم يفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ».[3]

إنّ هـــذه اللفظـــة لتصور لنا مشهدا مثيرا ؛مشهد المتقين وهم واقفون كأنهم حصلوا على صك الأمـــان لا يرعبهم ما يُرعب الآخرين ؛الدنيا كلها من حولهم تظطرب ،والنفوس تهتز، والقلوب لدى الحـــناجر فـــزعا ورهـــبة أمـــا هم فالأمر لا يعنيهم لأن الله أسدل عليهم أمنه وأفرغ عليهم سكينته ،والقـــارئ حيـــنما يقف عند هذه اللفظة يسري السرور في كيانه ويغشاه الهدوء بعدما أن اضطربت نفســـه مع الآيات التي هزّتها وأرعبتها وهي تصوّر لها أهوال يوم القيامة ،وسبيل القرآن في ذلك إثارة الوجـــدان والمشاعر «نعم ...لقد برز الأسلوب القرآني في كل ما تعرض له من أغراض،ولم يعتمد في مـــرّة واحـــدة عـــلى مجرد الألفاظ وحدها ،أو على المعاني فحسب؛وإنما سلك طريقا فنيا في الأداء ،ومنهجا أدبيا في التعبير اتجه به مباشرة إلى إثارة وجدان القارئ أو السامع إثارة رقيقة تحدث السرور

(1)- لسان العرب ،ابن منظور ،م1،مادة(أ م ن)،ص107.

(2)- في ظلال القرآن ،سيد قطب ،م5،ص2669.

(3)-المرجع نفسه ،ص ن.

في الـــنفس فتقبل،أو تحدث فيها الألم فترفض،لأن التعبير لم يعتمد على التفكير وحده ليقنع،بل على الوجـــدان أيضا ليستميل ؛ومن ثمّ كانت تلك الصور القرآنية البارعة فائقة الروعة في إيحائها وتأثيرها ،فهـــي لم تدع الوجدان إلا وهو ينفعل ولا القلب إلا وهو يختلج ويسرع في النبضات ...والأمر لا يعـــد وبعـــد كل هذا أن تكون كلمات جاءت بها آيات كتاب الله ،ولكن لا عجب، فلقد كانت الكلمات التي أضفى الله عليها من روحه ،فإذا هي المثال الخالد في إعجاز البيان» [1].

ويقول تعالى أيضا:﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾[الإنسان:11].

ففي هذه الآية لفظتان تحملان صورة لهؤلاء المتقين الذين يخافون يوم الآخرة ؛فيبدل الله خوفهم أمنا ويـــريحهم مـــن عـــناء ذلك اليوم ويبدلهم بذلك "نضرة " و"سرورا "؛فاللفظتان تكشفان عن الراحة النفسية التي يشعر بها هؤلاء يوم القيامة ،والنضرة هي الحسن والبهجة.جاء في اللسان:فالنضرة:النعمة والعـــيش والغنى، وقيل: الحسن والرونق، وقد نضر الشجر والورق والوجه واللون، وكل شيء ينضر نضرا ونضرة ونضارة ونضورا، ونضر ونضر، فهو ناضر ونضير،ونضر أي حسن، ونضر الله وجهه ينضـــره نضـــرة أي حسن. بريقه ونداه، والنضرة نعيم الوجه. وقال الزجاج في قوله تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، قال: نضرت بنعيم الجنة والنظر إلى ربها عز وجل. وأنضر النبت. نضر ورقـــه.[2]، وإن كانت النضارة تكون للوجه إلا أن هذا التعبير كناية عن الفرح والسعادة«أي جعل لهم نضرة وهي حسن البشرة ،وذلك يحصل من فرح النفس ،ورفاهية العيش » .[3]

"وســـرورا ":أي ســـرورا في القلـــوب[4]،فهناك علاقة بين القلب،وبين الوجه ،فإذا حلّت السعادة بالقلـــب ظهرت في الوجه ضياء ونضارة ،وإذا اقتحمته التعاسة ارتسمت عليه سوادا وعبوسا،لذا نجد في كـــثير مـــن الأحيان أن القرآن حينما يعبّر عن الحالات النفسية يعمد إلى رسمها على الوجه فتتغير ملامحه كعادته في تصويرّ الأمور المجرّدة صورا حسية وذلك أن القلب إذا سرّ استنار الوجه وتهلل.

وأخـــيرا يقـــول تعـــالى :﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ،ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً،فَادْخُلِي فِي عِبَادِي،وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[الفجر:27-30].

---

[1]-النقد الأدبي ،عبد التواب صلاح الدين محمد ،ص68.

[2]-لسان العرب ،ابن منظور،مادة (ن ض ر)،م 3،ص657.

[3]-التحرير والتنوير ،محمد الطاهر بن عاشور ،ج29،ص 388.

[4]- الكشاف ،الزمخشري ،ج4،ص169.

فموضـــوع هـــذه الآيات هو نفس المؤمن والتي تكون يوم القيام " مطمئنة "، وقد أورد ابن منظور حول هذه المادة ما يأتي:طْمأَنَ الشيءَ: سَكَّنه. والطُّمَأْنِينَةُ: السُّكونُ.واطْمَأَنَّ الرجل اطْمِئناناً وطُمَأْنينة أي سَكَن.[1]

فهـــذه الـــنفس تبقى آمنة لا يستفزها خوف ولا فزع؛فأثناء ذلك الفزع المهول تبقى هذه النفس ساكنة سكونا دائما،لاينتابها رعب ولا يداخلها وجل؛ فأصحابها في راحة تامة.

وإن كانت اللفظة ترسم الصورة النفسية بمعناها اللغوي وبظلها ،فهي ترسمها بجرسها الهادئ «وقد تبدو الإشارة إلى رسم الصورة بجرس الكلمة أمرا غريبا بعض الشيء،لكننا نجد هذا النمط التصويري في القرآن ،وفي غيره من النصوص شعرا ونثرا،بلغ في القرآن الكريم مستوى رفيعا لا يبارى »[2]،ومن خـــلال هذا يتبين للمتأمل في ألفاظ القرآن ،وخاصة في الألفاظ التي تضمنتها آيات البعث والحشر أن القرآن الكريم اختار ألفاظا موحية معبّرة رغم أنها بسيطة معروفة مألوفة ،فليس هدفه الزخرفة اللفظية وإنمـــا اللفـــظ مطـــية للإقـــناع والتأثير فمن «الخصائص الإقناعية للتصوير القرآني اختيار الكلمات التصـــويرية المعبّرة ،فهو يستخدم ألفاظا معروفة عند البشر ولكن هذه الألفاظ تبقى ألفاظا جامدة في الاســـتعمال البشـــري تدل على معانيها دلالة ذهنية عقلية،أما عندما تتناولها الريشة القرآنية المعجزة فسرعان ما تدب فيها الحياة الشاخصـــة والحركة المتجـــددة ، وتتحول إلى ألفاظ وتعبـــيرات ذات روح»[3]،ومـــا اســـتطاع القـــرآن أن يحقق ذلك إلا لأنه تخيّر الألفاظ المناسبة للمقام ،ولذلك رأى الخطـــابي أن القـــرآن إنما صـــار معجزا «لأنه جاء بأفصـــح الألفاظ في أحسن نظـــوم التأليف مضمنـــا أحسن المعاني .[4]

ثانيا– سمـــات التصويـــر بالعبـــارة القـــرآنيـــة :

---

[1]-بصائر ذوي التمييز ،الفيروزآبادي ،ج2،ص ص516-517.

[2]- التعبير البياني ،شفيع السيد ،ص32.

[3]- أساليب الإقناع في القرآن الكريم ،-دراسة تطبيقية لسورة الفرقان-مخطوط رسالة ماجستير ،ابن عبد القادر بطاهر ،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة-، ص40-41.

[4]- بيان إعجاز القرآن:ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ،الخطابي ،ج4،ص212.

قد رأينا في المبحث الأول أن اللفظ القرآني يستقل لوحده برسم الصورة سواء أكان ذلك بظله أو بجرســـه، لكن قد يشترك أكثر من لفظ في أحيان كثيرة في التصوير، إذ تكون العبارة كلها بألفاظها مجتمعة مشتركة في تكوين الصورة وتوضيحها فللعبارة القرآنية أيضا دور في التصوير، والعبارة هي:« مجموعة ألفاظ مشتقة على نحو معين لأداء معنى ذهني أو معنى شعوري» [1]، إذن فالألفاظ هي أسس بـــناء العبارة وإن العباوة لتستمد دلالتها «من مفردات الدلالات اللغوية للألفاظ ومن الدلالة المعنوية الناشـــئة مـــن اجتماع الألفاظ في نسق معين ، ثم من الإيقاع الموسيقي الناشئ من مجموعة إيقاعات الألفاظ متناغما مع بعض ثم من الصور والظلال التي تشعها الألفاظ متناسقة في العبارة». [2]

وإذ تلعـــب العـــبارة القرآنية دورا في التصوير إلاّ لأنها «تتمتع بخصائص جمالية وفنية تدع القارئ ينصـــهر في جوهـــا كلما تمعن وتدبر،وإذ تستطيع العبارة القرآنية أن تقوم بهذا الدور فلأنها تميزت في سبكها ونظمها وأسلوب عرض أفكارها وفي روحها وتصويرها وظلال صورها وإيحاءاتها» [3]، وقد تكـــون العـــبارات المصورة في القرآن طويلة أحيانا وقد تكون قصيرة موجزة أحيانا أخرى وهذا ما يســـمى عند البلاغيين بالإيجاز والإطناب،لكني فضلت استعمال مصطلحي الطول والقصر لأن القرآن كمـــا ذهـــب إلى ذلك عبد الله دراز إيجاز كله وليس فيه إطناب، ذلك لأن« القرآن الكريم يستثمر بـــرفق أقـــل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني ، أجل تلك ظاهرة بارزة فيه كله، يســـتوي فـــيها مواضـــع إجمالـــه التي يسميها الناس مقام الإيجاز وموضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطـــناب ولذلـــك نسميه إيجاز كله لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإســـراف ميلا ما ،ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلي بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها فليس فيه كلمة إلاّ هي مفتاح لفائدة جليلة وليس فيه حرف إلاّ جاء لمعنى". [4]

1-القصـــــــر:

مـــن العبارات القصيرة التي ساهمت في التصوير، وقد تضمنتها آيات البعث والحشر قوله تعالى وهـــو في معرض الحديث عن العصاة وصفتهم حين بعثهم ،وحشرهم:﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ

---

(1)- النقد الأدبي أصوله ومنهجه ، سيد قطب،د ط ،دار الكتب العربية ،بيروت ،ص47.

(2)-المرجع نفسه ، ص48.

(3)- الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، عمر السلامي ، ص109.

(4)- النبأ العظيم،عبد الله دراز،ص130.

جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس:27] .

فقولـه تعالى:" كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا " عبارة ترسم صورة حسية للذين قد اكتسبوا السيئات وقد جاءوا يوم القيامة ترهقهم ذلة،تتبعهم ،وتطارهم ،وتطغى عليهم فتغشاهم، فشبه حالهم تلك بالذي قد أغشى وجهه قطعا من الليل مظلما ،وقد هندست هذه العبارة هندسة عجيبة بحيث لو أننا حذفنا أي لفظة أو استبدلناها لانهد البنيان كله، وقد شاركت كل لفظة فيها في رسم الصورة :"أغشيت وجوههم ، قطعا من الليل ، مظلما"

الغشاء:الغطاء،غشيت الشيء تغشية،إذا غطيته،والأغشى:الخيل الذي غشيت غُرَّتُه وجهَه واتّسعت، وقيل الأغشى من الخيل وغيرها،ما ابيضَّ رأسه كله من بين جسده مثل الأرخم [(1)]، والغاشية :القيامة والنار وقميص القلب وجلد ألبس جفن السيف من أسفل شاربه أي نعله.[(2)] والمقصود"كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما "أي سواد مفرطة في السواد [(3)]، و"مظلما" حال من الليل.

والآية كما قال ابن كثير[(4)] إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة كقوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[آل عمران:106]، وقوله تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾[عبس:40]، وهذه الآيات كلها تصور معنى واحد مما يدل على خاصية مهمة في القرآن الكريم هي«براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء».[(5)]

---

(1)- لسان العرب ،ابن منظور ،مادة(غ ش ا)م2،ص990.

(2)- القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ،وانظر بصائر ذوي التمييز ،ج4،ص133.

(3)- تفسير أبي السعود،أبو السعود ،ج3،ص139.

(4)- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، م2، ص414.

(5)-مناهل العرفان ، الزرقاني ،ج1،ص214.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقـــد كـــان موقـــع العبارة قمة في التصوير فرسم مشهدا فريدا حيث « يستحيل الليل جسما محسوسا، يمزق قطعا، ثم تغشى الوجوه بهذه القطع » .[1]

ولقـــد ظهر الجمال في هذه القطعة من خلال التشخيص، بأن جعل الليل وهو شيء مجرد شيئا محسوسا بأن صار قطعا وكأن هناك من يحمل تلك القطع ويغشى بها وجوه العصاة فتسودّ.ولعل مـــن جماليات هذا الفن ـــالتشخيص ـــ «أنه يلقي الطمأنينة في نفس القارئ عندما يقدم له مثيله في رفع مستوى الأشياء فيتلاشى الشعور بالغربة والانعزال وهكذا يجعل التشخيص المعالم كائنات عاقلة "أو أشخاصا فيشعر المرء بمشاركتها الوجدانية ».[2]

وللتشـــخيص فـــائدة عظـــيمة تتمثل في شدة الإثارة ليزداد معها عمق التأثير ذلك«أنه يمتلك مخـــزونا مؤثـــرا في توسيع رقعة الخيال لدى المتلقي وليس تلك النقلة العادية في مجال الاستعارة؛ فهذه النقلة تعني التّحول من مجال الإخبار إلى مجال الرؤية بواسطة الخيال».[3]

يقـــول مجـــيد عـــبد الحميد ناجي:التشخيص ينقل الصور من مجرد الإخبار الذي يحتمل الصدق والكـــذب إلى تخـــيُّل مشاهدة أحداثها ووقائعها مما يوهم المتلقي أن ما هو مبني على الظن أصبح يقينا.[4]

وفي موقـــف الأهوال التي تمر بالناس يوم القيامة حيث يرون ما لم يخطر لهم على بال فتَشْخَصُ الأبصار، وتتحرك القلوب من أماكنها ويسكنها الفزع والرعب، حيث تظهر عظمة الإله وقدرته فيعـــترفون له صـــاغرين ويأتونه مذعنين. يقول تعالى:﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طـــــه:108]، إذ تلقى العبارة "وخشعت الأبصار للـــرحمان فـــلا تسـمع إلاّ همسا" بقعة من الضوء ليتجلى موقف الناس وهم مجمعون في المحشر

---

(1)- مشاهد القيامة، سيد قطب، ص125.

(2)- جماليات المفردة القرآنية ، أحمد باسوف ،ط2،دار المكتبي،دمشق،1999، ص141.

(3)-المرجع نفسه ،ص ن.

(4)- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية،ناجي مجيد عبد الحميد،ط1،المؤسسة الجامعية للدراسات،بيروت،1984 ،ص178.

فتخشـــع أصواتهم ولا يسمع إلا الهمس، "وخشعت الأصوات للرحمان ": أي خفضت الأصوات من شدة الفزع وخفقت [1]، أو خضعت لهيبته.[2]

والهمس الصوت الخفي وكل خفي أو أخفى، ما يكون من صوت القدم والعَصْر ومضْغُ الطعام. وقال أبو عمرو:الهمس السيّر بالليل، وقال الليث :الهمس حبسّ الصوت في الفم مما لا إشراب له من صوت الصدر ولا جهارة في المنطق ولكنه كلام مهموس.

ويقال: اهمس، وصه:أي امش خافيا واسكت.[3]

وفي ســؤلات نافع بن الأزرق لابن عباس أنه قال أخبرني عن قوله تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طــه:108] ، قال الوطء الخفي والكــلام الخفــي وهــذا يــوم القيامة قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم أما سمعت قول الشاعر[4] وهو يقول:

فَباتوا يُدلِجونَ وَباتَ يَسري بَصيرٌ بِالدُجى هادٍ هَموسُ [الوافر] .[5]

ففـــي أثناء الهول الرهيب من نسف للجبال ودك للأرض فتغدو قاعا صفصفا مستويا لا يرى فيه عوجــا ولاأمـــتا،ثم تشرق بنور ربها ينادي في الناس ليجتمعوا فيسيرون نحو الداعي مذعنين. وفي هـــذه الأثـــناء يرتســـم مشهد الخلائق بعدما مر عليهما ما مرَّ من الهول وقد انخفضت أصواتهم وخضعت خوفا وفزعا وكأنهم قد بكموا ولا يسمع إلاّ الهمس وهو الركز الخفي الناتج عن خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر، فما أعظمه من مشهد رهيب حيث «تسود الموقف كله رهبة وصمت ،وخشوع سائد، والوجوه عانية وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين».[6]

---

[1]- الكشاف، الزمخشري ؛ ج2،ص448.

[2]- تفسيرأبي السعود ، أبو السعود، ج6،ص43.

[3]- بصائر ذوي التمييز ، الفيروزأبادي، ج5،ص334.

[4]- هو أبو زبيد الطائي (ت.41هـ-661م) شاعر جاهلي من قبيلة طيء باليمن،أدرك الإسلام،واختلف في إسلامه.

[5]- غريب القرآن في شعر العرب ، نافع بن الأزرق أبي عبد الله بن عباس،تحقيق محمد عبد الرحيم،أحمد نصر الله،ط1 ،مؤسسة الكتب الثقافية،بيروت،لبنان،1413هـ -1993م،مسألة رقم 154، ص184.

[6]- مشاهد القيامة ، سيد قطب ، ص106.

وقــد زادت الاســتعارة في قوله "خشعت الأصوات" جمالا وحلاوة إذ أسند الخشوع للأصوات على سبيل التخييل الذي يعتمد على «تنزيل الخيال إلى منزلة الحقيقة ».[1]

وإذ ترســم العبارة الصورة بمعنى ألفاظها وتناسقها ، فإنها ترسمها أيضا بجرسها، فجو العبارة كله صــمت وخشــوع وهمــس وقد جاء ذلك نتيجة لانتقاء حروف الألفاظ فأغلبها من الحروف المهموسة.

والهمــس: هو جريان النطق بالحرف لضعف الاعتماد عليه وهو من الصفات الضعيفة وهو ضد الجهــر وحروفه عشرة (فحثه شخص سكت)، فالهمس إذن من صفة الخاء والشين والتاء والهاء والسين،إضــافة إلى أن الاستفال وهو من الصفات الضعيفة من صفات حرفي العين والميم وهذه الحــروف نفسها هي التي تتكون منها اللفظتان "خشعت ، همسا" وفي اختيار الحروف المهموسة "الهاء والسين" للفظة "همسا" تطابق رائع ولطيفة نادرة بين المبنى والمعنى.

يقول تعالى:﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ،لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:21-22]، فالآيــة تصوّر مشهدا مثيرا للإنسان يوم القيامة ،حينما تنقلب موازين الكون ويجد نفسه في عالم آخر كل شيء فيه متغير بعد أن سيق إليه ونقل عــلى جناح السرعة، ومعه اثنان يرقبانه سائق وشهيد، لتصدمه هذه العبارة المؤنبة"فكشفنا عنك غطــاءك فبصرك اليوم حديد" وهذه العبارة مع قصرها ترسم مشهدا يدغدغ الخيال ليهيم سابحا فيستحيل أمامه منظرا يحسه ويعيشه.

والكشف لغة:هو الإظهار.والكشف:رفعك الشيء عمّا يواريه ويغطيه[2]،والغطاء:هو الحجاب المغطــي لأمور المعاد ،وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والإلف بها وقصر النظر عليها[3]؛فقد شــبهت الغفلة هنا بالغطاء حيث جعلت «كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئا فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فيبصر ما لم يبصر من الحق» [4]وحينما يكشف عنه غطاؤه تراه يبصر إبصارا نافذا لزوال المانع الذي كان عليه،قال

(1)- يوم الدين والحساب ،محمد شكري عياد، ص95.

(2)-بصائر ذوي التمييز ،الفيروزآبادي، ج4،ص354.

(3)-تفسير أبي السعود ،أبو السعود ،ج8،ص130.

(4)-الكشاف ،الزمخشري، ج4،ص22.

ابـــن كثير في تفسير هذه الآية :«أي قوي لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرا حتى الكفار في الدنيا، يكون يوم القيامة على الاستقامة».[1]

والغطــاء هنا مجاز بمعنى يستر ويوري البصر.وحديد إذن هو البصر الشديد الحدّة ،فبصر الإنسان ســيتحول إلى بصــر شديد الحدّة في اليوم الآخر ويرى الملائكة والجن من سائق وشهيد ،وقرين وعــالم الغيبــيات الذي كان غير مرئي لنا ،فالعلماء يعتقدون بوجود أبعاد أخرى غير مرئية لنا موجــودة في الكون،ولكــن لا نــراها ولا نستشعرها ،وتصل إلى ستة أبعاد أخرى (غير بعد الوقت)،ولعل هذا يفسر عدم رؤيتنا للملائكة والجن في عالمنا[2]،وقد يكون معنى "فبصرك حديد "أي صــار لا يطرف ولا يتحرك لشخوصه،وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهــيم:43]،وقوــله تعالى:﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[الأنبياء:97].باختصار« أي أن أهوال هذا اليوم العظيم قد كنت عنها في غفلة ولكنك اليوم أبصرتها ،حين أزلنا على بصرك من غشــاوة ،فهــو اليوم قوي وقد كان قبل اليوم كليلا»[3]،وقد قامت العبارة بأداء تصويري رائع مــوح عن طريق الاستعارة فهذه الغفلة، ذلك الأمر المعنوي ينقلب أمرا محسوسا لتشبيهه بالغطاء «فالألفــاظ المســتعارة ألفاظ موحية لأنها أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه،وتصــور المــنظر للعــين وتنقل الصورة للأذن وتجعل الأمر المعنوي ملموسا محسّا»[4]،إذ الخــيال يذهب بالقارئ لِيُصَوِّر الإنسانَ وهو يقاد وعلى جانبيه سائق وشهيد ،وعلى عينيه غطاء وقــد نقــل مــن عالم إلى عالم آخر وفجأة يزاح الغطاء عن عينيه ليفيق فإذا بعالم جديد وبحياة جديدة فيبهت بما يرى.

وإن رسمــت العبارة صورة حسية مذهلة فإنها بظلها ترسم صورة أخرى لنفسية ذلك الإنسان مما يناله من الفزع جراء تفاجئه بما حدث وقد دلت هذه الجملة على أوسع معنى بأقصر عبارة «

---

(1)--تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير،م4،ص224.

(2)- اجتهادات في التفسير العلمي في القرآن الكريم ،محمد عادل أبو الخير،ج3،ص172.

(3)-من بلاغة القرآن في مجادلة منكري البعث ،بدرية بنت محمد بن الحسن العثماني،ط1،دار الراية للنشر والتوزيع ،الرياض السعودية،1417هـ ،ص ص104.105.

(4)-التعبير الفني في القرآن ،بكري شيخ أمين ،ص202.203.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهــــذه ظاهرة جليّة نستطيع أن نثبتها في طريقة التعبير القرآني مهما اختلفت بحوثه وموضوعاته ، لا تجـــد في الجملـــة القرآنـــية كلمة زائدة يصلح المعنى مع الاستغناء عنها ولا تستطيع أن تترجم معناها بألفاظ عربية من عندك إلاّ في عدد من الجمل مهما حاولت الإيجاز والاختصار» .[1]

يقول تعالى أيضا:﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنْ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[المعارج:43]، يصـــور فيها حال الناس لحظة خروجهم بعد النفخة الثانية لّما تشقق الأرض عنهم لتخرج ما قد أثقلـــت بـــه،ففي ســـؤلات نـــافع بن الأزرق لابن عباس أنه قال: أخبرني عن قوله تعالى:﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ ،قال: القبور قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال:نعم أما سمعت قول عبد الله بن رواحة وهو يقول:

حَتّى يُقالَ إِذا مَرّوا عَلى جَدَثي أَرشَدَهُ اللَهُ مِن غازٍ وَقَد رَشَدا [البسيط].[2]

ســـراعا: مأخوذة من سَرُعَ فهو سريع، وفرس سريع وخيل سِرَاع[3]، والمعنى كما قال ابن كثير :أي يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ينهضون سراعا.[4]

والنَصب: مصدر نَصبْتُ الشيء إذا أقمته[5] ، قال النابغة الذبياني :

ظَلَّت أَقاطيعُ أَنعامٍ مُؤَبَّلَةٍ لَدى صَليبٍ عَلى الزَوراءِ مَنصوبِ [البسيط].[6]

والنَصب أيضا: المنصوب. والنُصب: ما عُبد من دون الله،قال الأعشى:

وَذا النُصُبِ المَنصوبَ لا تَنسُكَنَّهُ وَلا تَعبُدِ الأَوثانَ وَاللَهِ فَاعبُدا [الطويل] .[7]

والنُّصب :العلم المنصوب ،والنَّصْبُ: الغاية.[8]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1]- من روائع القرآن ، البوطي ، ص145.

[2]- غريب القرآن في شعر العرب ، مسألة رقم173،ص204، وانظر الإتقان في علوم القرآن ص131.

[3]- بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ج3، ص214.

[4]- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ج4، ص424.

[5]- انظر: بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي،ج5،ص60.

[6]- ديوان النابغة ،ط1،دار السعادة، بيروت، دت،ص 47.

[7]- ديوان الأعشى ،ص46.

[8]- لسان العرب ،ابن منظور ،مادة (ن ص ب) ، م3،ص643.

ولتنوع المعنى اللغوي للفظة بحسب تغير حركاتها اختلف في تفسير هذه اللفظة فقد أورد ابن كثير أن ابن عباس ومجاهد والضحاك قالوا في تفسيرها :إلى عَلَم يسعون، وقال أبو العالية ويحي بن أبي كثير :إلى غاية يسعون إليها، وقد اختلفت القراءات أيضا فقد قرأ الجمهور (إلى نَصب) بفتح النون وإسكان الصاد وقرأ الحسن البصري (نُصُب) بضم النون والصاد وهو الصنم، أي أنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه.(1)

والإيفاض:الإسراع ،ووفضت الإبل :أسرعت،وناقة ميفاض :مسرعة،وكذلك النعامة،والوفض:العجلة(2).أي كأنهم: نُصِب لهم شيء فهم يسرعون ويتسابقون إليه ،قال ابن كثير يبتدرون أيُّهُم يستلمه أول .(3)

فالعبارة بألفاظها المتميزة قد نسجت أمام أعيننا صورة متحركة ؛هي صورة الناس حينما يبعثون من قبورهم مسرعين تعلوهم الذلة والصغار، كما كانوا من قبل في دنياهم يفعلون، فالجزاء من جنس العمل؛ فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه، وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا إذ كانوا يقدمون الذبائح والقرابين لها وكان الناس منهم يسرعون إلى تلك المعابد للعق دماء الذبيحة لنوال البركة والصحة، وقد حرم الإسلام ما أهل لغير الله وما ذبح على النصب لما فيها من بذاءة ومرض وكفر،فها هم أولا يسرعون يوم القيامة إسراعهم ذاك ، ولكن شتان ما بين هذا وذاك ! ففي العبارة تصوير لمنظرهم المشؤوم كما كانوا في دنياهم .(4)

إن هذه العبارة بتراص ألفاظها لتثير الخيال برسم منظر تلك الجموع الحاشدة التي لاعد لها ،وهم ينسلون من أجداثهم مسرعين يتعثرون في خطاهم يغشاهم الهوان وتغطيهم الذلة، ،ويصطدم بعضهم ببعض تماما كما كانوا يفعلون في حياتهم حينما تقدم القرابين فيتقدمون متدافعين للوصول إلى الأنصاب التي اتخذوها آلهة من دون الله ليتبركوا بها، ويرجون نفعها وتشبيه حالهم يوم القيامة بحالهم في الدنيا تشبيه رائع فريد قلما يتفق وقوعه؛ ذلك أن أسلوب التشبيه

---

(1)- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، م4، ص424.

(2) - لسان العرب ،ابن منظور ،مادة (و ف ض)،م3،ص985.

(3)- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير، م4، ص424.

(4)- مشاهد يوم القيامة، سيد قطب، ص188،وانظر: اجتهادات في التفسير العلمي للقرآن الكريم، ،عادل أبو الخير ،ص 181.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يكشف عند تأمله عن دلالتين اثنتين«إحداهما المقارنة والأخرى الوصف غير المباشر وهذه الدلالة الثانـــية ناشـــئة عن الأولى ومرتبطة بها ،فنحن حينما نعمد إلى تشبيه شيء بشيء إنما نعقد بينهما نوعا من المقارنة في الظاهر وهي مقارنة لا تهدف إلى تفضيل أحد الشيئين على الآخر وإنما ترمي إلى وصف أحدهما بما اتصف به الآخر».[1]

وليس الهدف من التشبيه في القرآن الكريم التحسين أو التجميل وإنما له هدف سام هو التأثير كمـــا في المثال الذي مر بنا؛ إذ يهدف التشبيه في القرآن إلى التأثير في العاطفة فترغب أو ترهب لذلـــك عده السيوطي في الإتقان من أحسن أنواع البلاغة بقوله: «التشبيه نوع من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها». [2]

وقـــد جـــاءت ألفاظ العبارة "كأنهم إلى نصب يوفضون "سلسة سهلة النطق لتتناسب مع جو الإســـراع والعجلة الذي يدل عليه معناها فلو عوضنا مثلا الأجداث بالقبور أو سراعا بمسرعين فكان" يخرجون من القبور مسرعين" لرأينا ثقلا في اللفظ ولاختل المبنى والمعنى معا ذلك أن اللفظ هو جزء من بناء العبارة فحسنه حسنها و قبحه قبح لها.

إن اللفـــظ المفـــرد هو جزء من التركيب فهو لبنة في بناء النظم ، لا شك أن له حسنا وقبحا ذاتـــيين فقـــد يكون اللفظ أخف من غيره وأرشق ، وقد يكون أجمل إيقاعا، وأحلى جرسا وقد يكـــون أبعـــد عـــن الوحشية والغرابة وأدنى إلى الأنس والسلاسة، وقد يكون أبعد عن الابتذال والسوقية وأقرب إلى الجزالة والرصانة بل الفصاحة والجلالة.[3]

2- الطـــــــــــــــــول:

وإذ تصـــور العبارة القرآنية المعنى بألفاظ قليلة كما رأينا، أحيانا يحتاج المشهد لألفاظ أكثر فتطول العـــبارة. مـــثل قوله تعالى :﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ،مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[إبراهيم :42-43]، فقد شارك في العـــبارة ألفاظ كثيرة لإتمام الصورة وتجليتها:تشخص ، الأبصار ، مهطعين ، مقنعي رؤوسهم، لا يرتد ، طرفهم ، أفئدتهم ،هواء .

---

[1]- التعبير البياني ، شفيع السيد ، ص33.

[2]- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، ص42.

[3]- في الإعجاز البلاغي للقرآن ، وليد قصاب ، ص45.

– **تشـــخص**: شـــخّص كمـــنع شخوصا ارتفع، وبصره أي فتح عينيه وجعله لا يطرف، وبصره رفعــه[1] والمعنى ترتفع أبصار أهل الموقف فيدخل في زمرتهم الكفرة المعهودون دخولا أوليا، أي تبقى مفــتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه واعتبار، عدم قرارها في أماكنها إما باعتبار الارتفاع الحسي في خرم العين وإما بجعل الصيغة من شَخُص من بلد إلى بلد وسار في الارتفاع .[2]

– **مهطعــين**: جاء في اللسان:هَطَعَ يَهْطَعُ هُطُوعاً وأَهْطَعَ:وقيل: المُهْطِعُ الذي يَنْظُرُ في ذُلٍّ وخُشوعٍ، ". وهَطَــعَ وأَهْطَــعَ: أَقبل مُسْرِعاً خائفاً لا يكون إلا مع خوف، وقيل: نظرَ بخُضُوعٍ؛ وقيل: مَدَّ عنقه وصَــوَّبَ رأْســه، وقال بعض المفسرين في قوله مُهْطِعِين: مُحَمِّجين،والتَّحْميجُ إدامةُ النظر مع فتح العيْنَــيْنِ، وإِلى هذا مالَ أَبو العباس: وقال الليث: بعير مُهْطِعٌ في عُنُقه تصويبٌ خِلْقة. يقال للرجل إذا أَقَــرَّ وذَلَّ: أَرْبَخَ وأَهْطَعَ.والإِهْطاعُ: الإِسْراعُ في العَدْوِ. وأَهْطَعَ البعيرُ في سَيْرِه واسْتَهْطَعَ إذا أَسْرَعَ. وناقة هَطْعَى.[3]

والمعـــنى مسرعين إلى الداعي مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع أو مقبلين بأبصاره عليه لا يقلعون عليه ولا يطرفون هيبة وخوفا ويديمون النظر إليه.[4]

مقـــنعي :أَقْـــنَعَ رأْســـه وعنقَه: رفعَه وشَخَصَ ببصره نحوالشيء لا يصْرِفُه عنه. وفي التنزيل: مُقْنِعي رُؤُوسِهم؛ المُقْنِعُ: الذي يَرْفَعُ رأْسه ينظر في ذلٍّ،والإِقْناعُ: رفع الرأْس والنظر في ذُلٍّ وخُشُوعٍ. وأَقْنَعَ فـــلان رأْســـه: وهو أَن يرفع بصره ووجهه إِلى ما حِيالَ رأْسِه من السماء. والمُقْنِعُ: الرافِعُ رأْسَه إِلى السماء؛ وقال رؤْبة يصف ثوروحش:

أَشْرَفَ رَوْقاه صَلِيقاً مُقْنِعا[5]،يعني عُنُقَ الثوْرِ لأن فيه كالانْتِصابِ أَمامَه. والمُقْنِع رأْسَه: الذي قد رَفَعه وأَقْبَلَ بطرْفِه إِلى ما بين يديه.[6]

---

(1)- القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، باب الصاد فصل الشين ،ج2، ص306.

(2)- تفسير أبي السعود ، أبو السعود ، ج5، ص55.

(3)- لسان العرب ،ابن منظور ،مادة (ه ط ع)،م3،ص811.

(4)- تفسير أبي السعود ، أبو السعود،ج5،ص55، وانظر الكشاف ، الزمخشري ، ج2 ، ص306.

(5)- ديوان رؤية بن العجاج ضمن مجموع أشعار العرب،تصحيح وترتيب وليم بن الورد البروسي ،ط2،دار الآفاق الجديدة،بيروت،1400هـ 1980م،ص107.

وتكملة البيت:سودا من الشام وبيضا نُصَّعاً   أشرف روقاه صليقا مُقْنَعاً

(6)- لسان العرب ،ابن منظور ،مادة(ق ن ع)،م3،ص173.

لا يــرتد إلــيهم طرفهم :الارتداد : الرجوع [1].و الطرف: العين و لا يجمع لأنه في الأصل مصدر فــيكون واحــدا أو يكون جماعة [2]. أي لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم أي لا يطرفون و لكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك الأجفان أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم .[3]

ــ وأفئدتهم هواء: أي خاوية جوف لا عقول لها.

فــالموقف الذي ترسمه هذه العبارة،هو موقف الظالمين يوم القيامة عندما يبعثون من قبورهم،ويساقون إلى المحشــر، وقد أسهم كل لفظ في العبارة في رسم صورة مستقلة هي جزء من الصورة الكلية، ففي العــبارة أربع صور متواكبة أو أربعة مشاهد لموقف واحد«يتلوا بعضها بعضا في الاستعراض فتتم بها صورة شاخصة في الخيال ، هي صورة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام ، يجللها ظل كئيب ساهم يكمد الأنفاس» .[4]

فهــا هــي ذي الأبصار شاخصة لا تطرف ولا تتحرك ، وهؤلاء هم مسرعين في مشيتهم رافعين رؤوســهم لا لكــبرياء ولكن لتقيد أجسامهم وتخشّبها،ولا تطرف أبصارهم ولا تنقل إليهم شيئا مما ترى، وقلوبهم فارغة يطير بها الفزع وتستبد بها الحيرة.[5]

والعبارة بما ترسمه تشي بذلك الهول والفزع الذي يكون في ذلك اليوم وهي لم تنقل صورة هؤلاء حسيا وحسب؛ بل صورت كذلك حالتهم النفسية ، أضف إلى ذلك أنها جاءت بعد صيغة فيها من الوعيد ما فيها :﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾[إبراهــيم:42]، كمن يتوعد شخصا بأنه ليس مهملا له ولكن يؤخر له عذابه إلى أجل لا يعرفه إلا هــو ،ثم تأتي هذه الصواعق التي رسمتها العبارة فأي قارئ متدبر لا تأخذههذه العبارة وتغشاه فزعا وهولا،وهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة التي لا إمهال بعدها ولا فكــاك منها ، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مــبهوتة مذهولــة ، مــأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك ثم يرسم مشهدا للقوم في زحمة الهول ، مشــهدهم مســرعين لا يلــوون على شيء ولا يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم،

[1]- القاموس المحيط ،الفيروزآبادي ،ج،باب الدال فصل الباء1، ص291

[2]-بصائر ذوي التمييز ، الفيروزآبادي ، ج4، ص500

[3]- الكشاف ، الزمخشري ، ج2، ص306.

[4]- التصوير الفني في القرآن الكريم ، سيد قطب ، ص53.

[5]- مشاهد القيامة ، سيد قطب ، ص168.

وقلوبهـــم من الفزع خاوية وخالية لا تضم شيئا يعرفونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهي هواء خواء هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، حيث يقفون هذا الموقف ويعانون هذا الرعب الذي يرسم من خلال المقاطع الأربعة مذهلا آخذا بهم كالطائر في مخالب الباشق الرعيب» .[1]

فالســـرعة المهرولة المدفوعة في الهيئة الشاخصة المكرهة المشدودة ،مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي، ومن كل إدراك،كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار.[2]

ومـــن التصـــوير بالعـــبارة القرآنـــية في آيـــات البعث والحشر قوله تعالى :﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ،وأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ،قَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ،يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا،بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾[الزلزلة: 1-5].

حيـــث ترســـم العبارة التي بين أيدينا مشهدا مهولا من مشاهد يوم القيامة « والهول هنا مادي في مشـــاهد الطبيعة ،وحسي في داخل الحس الإنساني؛فالأرض تزلزل زلزالها ،والأرض تخرج أثقالها،من جثـــث مدفونـــة ومعادن مطمورة وكنوز مكنوزة،ويبهت الإنسان لهذا المشهد الذي لم يألفه والذي يفعم حسّه ونفسه ؛فيسأل نفسه :مالها؟ما لها تزلزل وتضطرب وتخرج ما فيها من دفائن وأجساد»[3] ،فأمـــا الجزء الأول "إذا زلزلت الأرض زلزالها "فقد تحدثت عنه أثناء حديثي عن التصوير الحسي لأهـــوال يوم القيامة من هذا الفصل ،وأما قوله تعالى "وأخرجت الأرض أثقالها "فالأثقال :جمع ثقل وهـــو الحمل الشديد ،والثقل نقيض الخفة ،وكما يكون في الأجسام وهو الأصل يمكن أن يكون في المعاني،جـــاء في بصائر ذوي التمييز:« اعلم أنّ الثّقل والخفّة متقابلان،فكل ما يترجح على مايو زن ،أو يقـــدَّر بـــه يقال :هو ثقيل ،وأصله في الأجسام ،ثم يكون في المعاني ؛نحو أَثْقَلَه الغُرْمُ والوزر قال تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور:40]».[4]

وإخراج الأرض أثقالها ناتج عن تشقق سطحها فتلقى ما في داخلها: ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ،وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾[الانشـــقاق:3-4]، وذلـــك من تكرر الانفجارات الناشئة عن اضطراب داخل

---

(1)- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م4، ص2111.

(2)- المرجع نفسه ، م4، ص2112.

(3)- مشاهد القيامة،سيد قطب ،ص209.

(4)-بصائر ذوي التمييز ،الفيروزآبادي،ج2 ،ص334..

طـبقاتها وانقلاب أعاليها أسافل والعكس[1].وقد ذهب الزمخشري في الكشاف إلى أن: الأثقال ما في جوفهـا مـن الدفائن[2]، وذهب أبو السعود إلى أن المقصود بالأثقال الأموات ،والدفائن واختار ابن كـثير: الموتى[3]، وقد أسند فعل الإخراج للأرض وهو أسلوب يعمد إليه القرآن في صرف الحدث عن محدثه ويكثر في آيات اليوم الآخر «فجعل الأرض هنا فاعلة وهي جماد مضيًا في تقرير مطاوعتها وكونهـا مسخرة لمثل هذا ،والسياق ملتئم مع الآية قبلها من حيث تركيز الاهتمام على الحدث دون شغل للسامع بمصدره أو محدثه»[4]

وفي هـذه الاسـتعارة- استعارة فعل الإخراج للأرض- جمال رائع وتصوير مبدع حيث صارت الأرض وكأنهـا كـائن يعي ويحس، فها هي تحمل وتشعر بذلك الثقل ولعلها تتألم من ذلك وتنتظر الموعـد لـتلقى ما في جوفها وتتخلى عنه وتتخلص مما كان يؤذيها ، إنه أمر يلفت القارئ ويثير في نفسـه إيحاءات فإن أول ما ينبه إليه إخراج الأثقال هنا« ما توحي به من الدفاع للتخلص من الثقل الـباهظ فالمـثقل يتلهف على التخفف من حمله ويندفع فيلقيه حتى يتاح له ذلك والأرض إذ تخرج أثقالها تفعل ذلك كالمدفوعة برغبة التخفف من هذا الذي يثقلها عندما حان الأوان»[5].

فهـا هـي الأرضُ ذلك الجماد تخلع عليها صفة الحياة ،وينفخ فيها القرآن من روحه وتتحول إلى كـائن متحرك فتتحول بذلك الصورة نابضة بالحياة متحركة إذ نادرا ما يعرض القرآن صورة صامتة ساكنة إلاّ إذا اقتضى الأمر ذلك، هذا الأسلوب هو الذي يسميه سيد قطب التشخيص وهو لون من ألـوان التخييل وهو عنده« يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانـية هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية وتشمل المواد والظواهر والانفعالات وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية وخلجات إنسانية...»[6].

هـذا اللون الفني يجعل القارئ أكثر انسجاما مع المعنى مما يمده من صور ويجعله أكثر إقبالا وتأثرا وتصـور مظاهر الوجود وظواهر الطبيعية على هذا الشكل الحي وهذه الصفة الإنسانية يثير في نفس

---

[1]- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ، ج30 ، ص491.

[2]- الكشاف ، الزمخشري، ج4، ص227.

[3]- تفسيرأبي السعود ، أبو السعود ، ج9 ، ص188،وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ،م4، ص543.

[4]- التفسير البياني للقرآن الكريم ، عائشة عبد الرحمان ، ج1، ص84.

[5]-المرجع نفسه ، ج1، ص ن.

[6]- التصوير الفني في القرآن الكريم ، سيد قطب ، ص63.

القــارئ أو المســتمع الكثير من معاني الجمال والانشراح ، إذ يأنس بمن حوله ، ويراهم شخوصا تــدب وتــتحرك ،ويتخيلهم أناسا حوله يتنفسون ويسيرون ويريدون ويتكلمون، وهو لا يحس هذا الإحســاس ويتخيل هذا التخييل لولا طريقة القرآن الفريدة في التعبير؛ الطريقة التصويرية التشخيصية التي حولت هذه المواد الظاهرة والظواهر الطبيعية إلى شخوص حية.[1]

وفي إسناد الإخراج إلى الأرض على طريقة المجاز يتناسب مع "زلزلت " المبنية للمجهول ،ويتّسق مــع تقرير تلقائية الحدث فكأن الأمر هنا في غير حاجة إلى محدِّث ،والسامع والقارئ لا يحتملان هذا التفصيل تركيزا للانتباه لما هو أهم.

" وقال الإنسان مالها " وفي التفاته رائعة تركز بقعة ضوء على الإنسان ليكتمل رسم الصورة ،فهو المقصود بهذا التحول العجيب كلّه؛فيظهر في الصورة مندهشا متعجّبا ذاهلا لما دهمه من الطامة التامة وبهــره من الداهية العامة،وقد ذهب بعض المفسرين ومنهم الزمخشري[2] إلى أن المقصود بالإنسان هنا هــو الكافــر لعــدم إيمانه بالبعث ،وليس المؤمن لأن المؤمن يقول:﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يـــــس:52].لكــن لعائشة بنت عبد الرحمان نظرة أخرى إذ تقول: «ولسنا نرى وجهــا لتخصيص الإنسان هنا بالكافر ؛فاللغة لا تعين على هذا التخصيص والاستعمال القرآني للفظ الإنســان لا يؤيّده ،ثمّ هو تخصيص لا يقوى المعنى ؛فلأن تكون رجّة الزلزلة وهول الموقف مما يروع الإنســان على الإطلاق كافرا كان أو مؤمنا أقوى من أن يقتصر الدهش والعجب على الكافر وحده »[3]،وفي مجـــيء "الإنســان " معــرّفا تعريف الجنس المفيد للاستغراق يدل على فزع الناس وقولهم لبعضــهم أو أنّ كــل أحــد يقول ذلك في نفسه حتى يستوي في ذلك الجبان والشجاع والطائش والحكيم .

" مالهــا "استفهام عن الذي حدث للأرض فزلزلها هذا الزلزال"وإنما يقع الاستفهام غالبا مردفا بما يــتعلق بالاستقرار الذي في الخبر مثل أن يقال:ماله يفعل كذا،أو ماله في فعل كذا ،أو ماله وفلانا،أي

---

(1)- نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، ص135.

(2)- الكشاف ،الزمخشري ،ج4،ص228.

(3)-التعبير البياني ،عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطئ)،ج1،ص86.

معـــه؛فلذلك وجب أن يكون هنا مقدّرا أي "مالها زلزلت "أو مالها في هذا الزلزال ،أومالها وإخراج أثقالها».[1]

" يومـــئذ تحـــدّث أخبارها بأنّ ربّك أوحى لها " أي يوم أن يحدث كل ما سبق من زلزلة وإخراج الأثقـــال ودهشـــة الإنســـان "تحدّث الأرض أخبارها " ولعمرك إنّ هذا لأشد مما سبق فإذا كان في الأولى قـــد جعلـــت الأرض حاملا يثقلها ما في بطنها ،وما إن حان الوقت حتى لفظته متخلّصة منه ؛هاهي الآن تشخّص تشخيصا آخر أشد وطئا وأقوم قيلا بأن صار لها لسان تتحدث به وقد اختلف المفســـرون في حقيقة الحديث أهو مجاز أم حقيقة ،قال ابن مسعود:«تحدث الخلق أخبارها،إما بلسان الحـــال حيث تدل دلالة ظاهرة على ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها،وإما بلسان المقال حيث ينطقها الله تعالى فتخبر بما عمل عليها من خير وشر »[2]،وقد نقل ابن كثير في تفسيره عن الإمام أحمد فيما يـــرويه عـــن أبي هريرة رضي الله عنه "قال :قرأ رسول الله ﷺهذه الآية "يومئذ تحدث أخبارها "قال :أتدرون ما أخبارها؟قالوا: الله ورسوله أعلم.قال:فإنّ أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها أن تقول :عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها "[3]،فلاحظ كيف انقلبت هذه الأرض الهامدة الجامدة إلى شخصية حيّة تسأل فتجيب،وتبدي الطاعة للخالق المدبّر« فلا أدري من أي أمـــر يعجب الإنسان أمن الزلزلة العنيفة أم من تشقق الأرض ولفظها لدفائنها، أم تحديث الأرض له ،ولتصير شاهدا فاجأه في محكمة العدل الربانية لم يحسب له حساب».[4]

"أوحـــى لهـــا "في اختيار "أوحى " هنا سر رائع فليس المقصود بها الأمر بل أطلق الوحي على أمر الـــتكوين بأن أوجد فيها أسباب الفعل وهذا كقوله تعالى:﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[النحل:68].ذلك لأن الأمر يقتضي توجيه الحديث ويعوزه مـــا للوحـــي مـــن دلالة السرعة والخفاء،وإنما الوحي يكفي منه إيداع القوة فيها مما هو أنسب لجو التســـخير والمطاوعة المسيطر على الموقف،وقد عدّي الفعل " أوحى "بـــ"اللام" بدلا من "إلى " على غـــير المشـــهور عند اللغويين وفي ذلك لطيفة جميلة "فمع بناء "زلزلت الأرض "للمجهول ومع قوّة

---

[1]-التحرير والتنوير،محمد الطاهر بن عاشور ،ج30،ص492.

[2]- تفسير أبي السعود ،أبو السعود ،ج9،ص188.

[3]-تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير ،م4،ص543.

[4]-التحرير والتنوير ،محمد الطاهر بن عاشور ،ج30،ص493.

الفاعلـــية المستفادة صراحة من إسناد الإخراج والتحدّث والزلزلة إلى الأرض ،لا وجه لتقدير وساطة الملائكة لإيصال الإيحاء إلى الأرض التي زلزلت زلزالها،وأخرجت أثقالها وتحدّث أخبارها فالبيان يقوم عــلى قوّة هذه الفاعلية في تصوير هول الموقف الذي يدهش له الإنسان فيقول في عجب وقلق :مالها ؟فاقتضـــى أن يأتيه الجواب "بأنّ ربك أوحى لها "تحدّث به الأرض نفسها تلقائيا فالإيحاء هنا للأرض مباشرة ليلائم إسناد التحدّث للأرض،وسرّ قوّته على وجه التسخير،ومن هنا كان إيثار التعدية باللام لما في معنى اللام من اختصاص ،وإلصاق وصيرورة وتقوية الإيصال.[1]

إن المشـــهد يحـــتاج إلى ريشة فنان مبدع كي يستطيع إخراجه هذا الإخراج الرائع الذي صوّرته العبارة القرآنية دون أن يهمل جزءا من الأجزاء ،وبهذه الدقة المتناهية.

فهـــذه العـــبارة تضـــع أمام القارئ لوحة فنية مذهلة تقتحمه حسا ووجدانا.إنه يوم القيامة حيث تـــرجف الأرض الثابتة ارتجافا وتزلزل زلزالا وتنفض ما في جوفها نفضا وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعـــادن وغيرها مما حملته طويلا وهو مشهد يهزّ تحت أقدام المستمعين لهذه الصورة كل شيء ثابت ويخيّل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون والأرض من تحتهم تهتز وتمور؛إنه مشهد يخلع القلوب من كل مـــا تتشبث به من هذه الأرض وتحسبه ثابتا باقيا ،وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القـــرآن ويـــودع فـــيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة! ويزيد هذا الأثر وضوحا بتصوير الإنسان حيال المشهد المعروض ورسم انفعالاته وهو يشهده "وقال الإنســـان مالهـــا "وهـــو سؤال المشدوه المبهوت المفجوع الذي يرى ما لم يعهد ويواجه مالا يدرك ،ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت .مالها ؟ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجا؟مالها ؟وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها؟ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته وكل ما حوله يمور مورا شـــديدا!،والإنســـان قد شهد الزلازل والبراكين وكان يصاب منها بالهلع والذعر والهلاك والدمار ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبها بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحـــياة الدنـــيا ،فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به ؛أمر لا يعرف له سرا،ولا يذكر له نظيرا؛أمر هائل يقع للمرة الأولى.[2]

ثالثا: التجســـــــــــيم:

---

[1]-التفسير البياني ،عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطئ) ،ج1 ،ص92.

[2]-في ظلال القرآن ،سيد قطب،م6،ص3954.

ورد في لسـان العـرب حول معنى التجسيم ما يلي :والجسم جماعة البدن أو الأعضاء من الناس والإبـل والـدواب، وغـيره من الأنواع العظيمة الخلق ،وقال ابن السكيت:تجَسَّمْتُ الأمر أجْسَمه وجسـيمه ومعظمـه ومـنه التجسـيم:صيرورته جسيما عظيما ،والتجسيم :ركوب أجْسَم الأمر وأعظمه،والجسم ما ارتفع من الأرض وعلاه الماء ،والأجسم :الأضخم.[1]

وجاء في المعجم الوسيط الجسم:الجسد وكل ما له طول وعرض وعمق.[2]

فـالمعنى اللغوي للتجسيم يدل على ظاهر محسوس ومن هذا المعنى يتبين أن مصطلح التجسيم مشتق مـن جِسْمٍ، وهو يعني "إعطاء الفكرة جسما"[3] والتجسيم قد يقصد به المعنى الحقيقي المأخوذ من الجسـم والذي هو البدن وقد يراد به معنى مجازيا فنيا والتجسيم بمعناه الفني «هو أن يتخيل الأديب الفـنان للأمر المعنوي أو العرض صورة معينة يرسمها في ذهنه، ويصير هذا الأمر في خياله جسما على وجـه التشـبيه والتمثيل والاستعارة ،وهو لن يتخيل هذا التخييل، ويجسم هذا التجسيم إلا إذا كان ذهنه مُجَسِّمًا والتجسيمُ موجود بشكل أساسي في طبيعته».[4]

وجـاء في المعجـم الأدبي أن التجسـيم : هو ميل معاكس للتجريد أي إبراز الماهيات والأفكار العامة والعواطف في رسوم وصور وتشابيه محسوسة وهي في واقعها رموز معبرة عنها.[5]

ويعـود الفضـل في اكتشاف هذا اللون البياني إلى سيد قطب رحمه الله إذ اعتبره السمة الثانية من سمات التصوير الفني في القرآن والخصيصة الثانية من خصائصه بعد التخييل الحسي ويقصد به«تجسيم المعنويات المجردة وإبرازها أجساما أو محسوسات على العموم» .[6]

هـذا مع التنبيه إلى أن سيد قطب يقصد بالتجسيم المعنى الفني لا المعنى الديني، حيث يقول:« ونحن نسـتخدم هنا كلمة التجسيم بمعناها الفني لا بمعناها الديني بطبيعة الحال إذ الإسلام هو دين التجريد والتتريه» .[1]

---

(1)- لسان العرب ،ابن منظور ، مادة (ج س مَ) ،م1، ص418.

(2)- المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر ،عطية الصوالحي ،محمد خلف الله أحمد، ، دط،دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،د ت،مادة(ج س م)،ج1 ،ص123 .

(3)- جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف ، ص101.

(4)- نظرية التصويرالفني عند سيد قطب، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، ص101، وانظر: النقد الأدبي ، سيد قطب ، فصل القيم الشعورية والقيم التعبيرية،ص 19-52.

(5)- المعجم الأدبي ، عبد النور جبور،ط1، دار العلم للملايين ،بيروت،1979 م، ص59.

(6)- التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب ، ص63.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهـــذا الأسلوب الفني الرائع يكثر وجوده في القرآن الكريم وفي آيات البعث والحشر نجده حينما يتطرق القرآن للحديث عن الأعمال والذنوب ويوم القيامة:

1ـــ تجسيــــــــــم الأعـــمــــــــــال:

التجسيم الفني كما اكتشفه سيد قطب في القرآن الكريم نوعان :

الـــنوع الأول: تجســـيم من قبيل تشبيه الأمر المعنوي المجرد بأمر محسوس مجسم على وجه التشبيه والتمثـــيل ،وهـــو كـــثير الوقوع في الآيات التصويرية في القرآن الكريم، ومنه كل التشبيهات الفنية القرآنية التي جيء بها لإحالة المعاني والحالات صورا وهيئات[2]

وقد قسم البلاغيون التشبيه باعتبار طرفيه إلى أربعة أقسام :

1ـــ تشبيه محسوس بمحسوس .

2ـــ تشبيه معقول بمعقول .

3ـــ تشبيه معقول بمحسوس.

4ـــ تشبيه محسوس بمعقول.

والأقسام الثلاثة الأولى موجودة بوفرة في القرآن والقسم الرابع مفقود منه.

ومن هذا النوع ونقصد به التجسيم من قبيل تشبيه الأمر المعنوي المجرد بأمر محسوس مجسم ، يجســـم القرآن الأعمال يوم القيامة،بقوله تعالى:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾[إبراهيم:18]، فالأعمـــال شيء مجرد لا يمكن للحاسة أن تقع عليه لكن تجسيم القرآن لها عن طريق التشبيه بإخراجه مـــا لا تقـــع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه.فأعمال الكفار وهي أمور معنوية صورت في هذه الآية في صـــورة حسية مجسمة حيث تحولت إلى كومة رماد اشتدت بها الرياح فذهبت بددا؛ والذي دل على أنه تجسيم من قبيل التشبيه والتمثيل (مثل) و(الكاف) فقد شبهت أعمال الكفار بالرماد.

والـــرماد دقـــاق الفحم من حراقة النار وما هبا من الجمر فطار دقاقا[3]،والمثل مستعار للصفة التي فـــيها غـــرابة وعجـــبا أي حال الذين كفروا العجيبة أن أعمالهم كرماد؛فالمعنى حال أعمالهم بقرينة

---

(1)- المرجع نفسه، ص186.

(2)- انظر:نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ،صلاح عبد الفتاح الخالدي،ص146.

(3)- لسان العرب ، ابن منظور ، مادة(ر م د) ، م1، ص1222.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجملـــة المخبر عنها لأنه مهما أطلق مثل كذا إلا والمراد حال خاصته من أحواله يفسرها الكلام فهو من الإيجاز الملتزم في الكلام.[1]

أمـــا أعمـــال الكفار التي شبهت بالرماد فهي ما عملوه في وجوه البدار من صلة الأرحام وإعتاق الرقاب وفداء الأسرى وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم.

فأعمالهم العديدة المجتمعة مثلها مثل الرماد المكدس، الذي إذا اشتدت الرياح به انتثر وتفرق بحيث لا يـــرجى اجـــتماعه، أو الانتفاع به ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمعـــه ،والهيئة المشبهة معقولة ،« فكما تجمعت أعماهم وتكدّست ظنوا أنها منجيتهم ،تجمع الرماد كذلـــك وتكـــدّس ولكـــنها كما ضاع الرماد ضاعت واضمحلّت »[2]،وفي اختيار لفظة"الرماد" لطـــيفة رائعة فإن أحسن ما عمله هؤلاء الكفار هو الكرم وقرى الضيف ،وقد جعلت كثرة الرماد دليلا على ذلك فقالوا "فلان كثير الرماد" كناية عن الكرم والعزّ وغير ذلك ،يقول الطاهر بن عاشور في ســـر التعبير بلفظ الرماد :« لأن الرماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعها بينهم وهو قرى الضيف حتى صارت كثرة الرماد كناية في لساهم عن الكرم».[3]

وجملة "اشتد به الريح في يوم عاصف "تكملة للصورة فلم يقف عند تشبيه ضياع الأعمال بالرماد بـــل راح يـــتمم ذلك؛ بأن حتى ذلك الرماد لا يبقى متجمعا على حاله فتأتيه الريح تشتد به فتحمله وتســـرع بـــه ،والريح شديدة قوية فهي في يوم عاصف،« ووصف اليوم بالعاصف مجاز عقلي أي عاصـــف ريحـــه كما يقال يوم ماطر أي سحابه» [4]،فهو لم يدع الصورة جامدة ساكنة بل أضاف إلـــيها مـــا يبعث فيها الحركة والحياة بحركة الريح الشديدة في يوم عاصف وهنا تتجلى صور أخرى جميلة يمكن للخيال أن يرسمها صورة ذلك الذي جاء وهو يظن أنه أحسن عملا فيصدم بما يرى ؛إنها أعمالـــه تذهب سدى لا يرى لها أثرا "لا يقدرون مما كسبوا على شيء" كمن اعتقد أنه قد أجاب إجابة جيّدة في امتحان ولكنه يخبط خبط عشواء بمجانبته الصواب فأي حالة يكون عليها حين يرى النـــتائج الضـــعيفة، وقد كان يأمل غير ذلك، فهاهو فاغرا فاه شاخصا بعينيه لا يصدّق ما يرى وما يســـمع، ومشـــهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود يجسم به السياق معنى ضياع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1)- التحرير والتنوير ، ابن عاشور، ج13، ص216.

(2)- المرجع نفسه،ص ن.

(3)-المرجع نفسه،ص ن..

(4)-المرجع نفسه،ص ن.

الأعمــال ســدى لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها ولا الانتفاع به أصلا ،يجسّمه في هذا المشــهد العاصــف المــتحرّك فيبلغ في تحريك المشاعر له مالا يبلغه التعبير الذهني المجرّد عن ضياع الأعمــال وذهابها بددا؛هذا المشهد ينطوي على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار ؛فالأعمال التي لا تقوم عــلى قــاعدة مــن الإيمان ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث وتصل الباعث بالله مفككــة كالهــباء والــرماد لا قوام لها ولا نظام، فليس المعول عليه هو العمل ،ولكن باعث العمل فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية.

وهكذا يلتقي هذا المشهد المصور مع الحقيقة العميقة « وهو يؤدي المعنى في أسلوب مشوق موح مؤثــر»[1]، وحينما يرتسم أمامنا هذا المشهد على طريقة التجسيم فلأن التجسيم جزء من التصوير ولأن وســائله«مفــردات مستمدة من الطبيعة الجامدة والطبيعة المتحركة »[2]، وحينما يقدم التعبير القــرآني المعــاني المجــردة مجسمة إنما تكون غايته إثارة القارئ والمستمع والتأثير في نفسيهما وتثبيت الفكرة لديهما لأنه « من المَعَارِف المتواضع عليها عند علماء البلاغة والنقد أن المعاني المجردة أضعف وســائل التعبير لأنها تؤدي معاني عابرة لا تعلق في النفس كثيرا ولا تثير في الشخص حركة وانفعالا أمــا الطرق التي تثير الشخص وتثبت المعنى في النفس وتقره في الذهن فهي التي تحدد المعنى في صورة وتقرنه بمثال ».[3]

ومــن الآيــات المجســمة للأعمال يوم القيامة قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النــــور:39].

حيــث شــبه أعمال الكفار يوم القيامة بالسراب ، والسراب كما جاء في لسان العرب هو الذي يكــون نصــف النهار لاطئا بالأرض لاصقا بها كأنه ماء جار ، وقال ابن السكيت: السراب الذي

(1)- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م4، ص2094.

(2)- من جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف، ص102.

(3)- ابن القيّم وحسه البلاغي ، عبد الفتاح لاشين،ط1،دار الرائد العربي،بيروت،لبنان،1406هـ -1982م، ص166

يجـري عـلى وجه الأرض كأنه الماء وهو يكون نصف النهار ، وقال أبو الهيثم: سمي السراب لأنه يسرب سروبا أي يجري جريا ، يقال سرب الماء يسرب سروبا .[1]

وقال الزمخشري السراب ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنـه مـاء يجري [2] ،والقيعة بمعنى القاع أو جمع قاع وهو المنبسط المستوي من الأرض [3]، فشبه سبحانه أعمالهم في فوات نفعها وضياع فائدتها وحصول ضررها بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد فـيطارده أمـلا في الوصول إليه، لكنه لا يجد شيئا مما كان يظن فيخيب رجاه وينقلب ذلك الأمل الـذي لاح له مـن بعـيد حسرة وندما ،ولا يقف التعبير القرآني عند تجسيم الأعمال بالسراب بل يضـيف للمشـهد حـركة وحياة فهو« يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة يلتمع الـتماعا كاذبـا فيتـبعه صاحبه الضامئ وهو يتوقع الري غافلا عما ينتظره هناك ...وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة فهذا السائر وراء السراب، الضامئ الذي يتوقع الشراب الغافل عما ينتظره هناك ...يصـل فـلا يجد ماء يرويه إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطرله ببال المرعبة التي تقطع الأوصال ...وتـورث الخـبال "ووجـد الله عنده " الله الذي كفر به جحده وخاصمه وعاداه وجده هنالك ينـتظره ولو وجد في هذه المفاجأة خصما له من بني البشر لروّعه وهو ذاهل غافل على غير استعداد فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار ؟»[4]،وفي السياق نفسه يجسم القرآن أعمال الكفار تشبيها بالظـلمات بقولـه سـبحانه وتعالى :﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النـــور:40].

حيث شبّه أعمال الكفار في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة بعيدة عن الحق خالية عن نور الإيمان بظـلمات تراكمـت في لجـج البحر المتلاطم الأمواج الذي قد غشيه السحاب وغطاه من فوقه« واللجي العميق الكثير الماء منسوب إلى اللجج وهو معظم ماء البحر »[5]،فإذا كان في المشهد الأول

---

(1)- لسان العرب ، ابن منظور ، م2، مادة(س ر ب)، ص125.

(2)- الكشاف ، الزمخشري ، ج3، ص78.

(3)-المرجع نفسه ، ص ن.

(4)-في ظلال القرآن ،سيد قطب ،م4،ص2521.

(5)- الكشاف ، الزمخشري، ج3، ص78

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قـــد شبَّه أعمال الكفار بالالتماع الكاذب الذي يمثله السرا ب هاهو يشبهها ثانية بشيء أكثر رعبا وهولا فأعمالهم كظلمات البحر اللجي،وقد علاه الموج والسحاب.

وفي تشـــبيه أعمال الكافرين مرة بالسراب ومرة بالظلمات المتراكمة علة كما يقول ابن القيم ذلك أن المعرضين عن الهدف والحق نوعان :

أحدهما:من يظن أنه على شيء فتبين له عند اكتشاف الحقائق خلاف ما كان يظن وهذه حال أهـــل الجهل وأهل البدع الذين يظنون أنهم على هدى وعلم فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونـــوا عـــلى شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يُرَى في عين الـــناظر ماء ولاحقيقة له، وهكذا الأعمال التي لغير الله وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة وليست كذلك.

وآخـــرهما:أصحاب أهل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال، فتراكمت عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم فصـــاروا جاهلين وظلمة اتباع أهل الغي والهوى، فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له، وقـــد غشـــيه موج ومن فوق الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب .[1]

ومن خلال هذين التشبيهين نقف على ظاهرة مهمة في تشبيهات القرآن إذ أنه «لا يستمد تشبيهاته فقـــط مـــن البيئة التي عاش فيها الرسول ﷺ كما هو الشأن عند الشعراء والكتاب الذين يستوحون صـــورهم البيانـــية من بيئتهم بل يستمدها أيضا من بيئات بعيدة لا يمكن أن تخطر بمخيلته ولا بمخيلة مـــن عـــاش معـــه» [2] ،وممن أشار إلى هذه الخاصية في تشبيهات القرآن "مالك بن نبي" في كتابه الظاهـــرة القرآنية حيث قال:« المجاز القرآني ليس دائما ولا غالبا انعكاسا للحياة البدوية في الصحراء فهـــو يســـتمد عـــلى عكس ذلك عناصره وألفاظ تشبيهاته من بيئات وأجواء ومشاهد مختلفة جدا ،فالأفكـــار المتصلة بالنبات كالشجرة وأنواع الحدائق تصوّر لنا طبيعة أرض كثيفة الزرع طيّبة الهواء أكـــثر مـــن أن تصـــور أرض الصحراء القاحلة الرملية والأنهار التي تخترق المروج الخضراء تذكرنا بـــالأرض الخصبة على ضفاف النيل أو الفرات أو نهر الجانج بالهند أكثر مما تذكرنا بمفازات المشاهد اليومـــية في سمـــاء العرب فإن هذه السماء القارية الصافية ملتهبة حتى كأنها موقد نحاس محمّى عارية

---

[1]-التفسير القيم ،ابن القيم ،ص ص404-405.

[2]-المعجزة القرآنية بلقاسم بغدادي،د ط،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر،1992،ص266.

عـــري الصـــحراء نفســـها ،وفضلا عن ذلك فإننا نجد في القرآن صور ذهنية كثيرة لا تتصل بسماء الجزيـــرة ولا بأوضــاعها ».[1]،وكمثال على ما يقول أعطى مثالين هما نفسهما المثالان اللذان نحن بصـــدد دراستهما حيث يقول معلقا على الصورة في قوله تعالى : "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقـيعة.":« ففـــي هـــذه الصـــورة الأخاذة يتجلى سطح السماء العربية المنبسط والخداع الوهمي لســـراب،فنحن هـــنا أمـــام عناصـــر مجـــاز عربي في نوعه،فأرض الصحراء وسماؤها قد طبعا عليه انعكاســـهما"[2] ،ويقول أيضا معلقا على قوله تعالى "أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه مـــوج مـــن فوقه سحاب... «فهذا مجاز يترجم على عكس سابقه عن صورة لا علاقة لها بالوسط الجغرافي للقرآن منتزعة من بعض البلدان الشمالية التي يلفها الضباب في الدنيا الجديدة أو في ايسلندا؛ فلـــو افترضـــنا أن الـــنبيﷺ رأى في شـــبابه مـــنظر البحر فلن يعدو الأمر شواطئ البحر الأحمر أو الأبـــيض،ومع تســـليمنا بهـــذا الفرض ؛فلسنا ندري كيف كان يمكن أن يرى الصورة المظلمة التي صـــوّرتها الآيـــة المذكورة .وفي الآية فضلا عن الوصف الخارجي الذي يعرض المجاز المذكور سطر خـــاص،بل سطران:أوّلهما الإشارة الشفافة إلى تراكب الأمواج،والثاني معرفة علمية بالظواهر الخاصّة بقـــاع الـــبحر ،وهـــي معـــرفة لم تتح للبشرية إلا بعد معرفة جغرافية المحيطات ودراسة البصريات الطبيعـــية..ومـــن الغلـــو حقا أن نقول أن العصر القرآني كان يجهل كلية تراكب الأمواج،وظاهرة امتصاص الضوء واختفائه على عمق معين في الماء ،ولكن ما كان لنا أن ننسب هذا المجاز إلى عبقرية صنعتها الصحراء،ولا إلى ذات إنسانية صاغتها بيئة قارية» .[3]

أما النوع الثاني من أنواع التجسيم فهو تجسيم المعنويات على وجه التصيير والتحويل[4]،ونجد له أمـــثلة في تجسيم الأعمال يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[آل عمران:30].

---

(1)-الظاهرة القرآنية ،مالك بن نبي،ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط1،دار الجهاد،القاهرة،1958،ص294.

(2)-المرجع نفسه ،ص ن.

(3)-المرجع نفسه ،ص ن.

(4)-التصوير الفني في القرآن ،سيد قطب ،ص68.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقوله أيضا :﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:28]. ،وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:49]،وقوله :﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[المزمل:20].

فإذا كان التجسيم كما سبق وأن رأينا يتجلى في التشبيه الحسي، فهاهو في هذه الآيات يتجلى في تجسيد المعنى ؛فالأعمال صارت جسدا ملموسا محسوسا يلقى صاحبه يوم القيامة فالقرآن يجعل «كأن هذا العمل المعنوي مادة محسوسة تُحْضَر<على وجه التجسيم >أو تَحْضُر هي <على وجه التشخيص>أو توجد عند الله كأنها وديعة هنا فتتسلم هناك »[1]،فالعمل صار صورة مجسّمة ومادة محسوسة ،فهو إذا كان خيرا يحضر ويهيأ بانتظار صاحبه ،واستقباله ،وإذا كان سوء يحضر كذلك، ولكن صاحبه يتمنى أن تفصله عنه الفواصل فلا يراه ،قال ابن عاشور:« يحضر لكل نفس في يوم الإحضار ما عملت من خير وما عملت من سوء،فتودّ في ذلك اليوم لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمدا بعيدا أي زمانا متأخرا وأنه لم يحضر ذلك اليوم»».[2]

إن العبد ليشعر وهو يقرأ هذه الآية برهبة تسري في كيانه كله كيف لاوهو يرى عمله قد تحول إلى جسد يجده في انتظاره يوم القيامة ويلتقيه إجبارا لا اختيارا يوم القيامة وجها لوجه ليدخل معه في مواجهة حقيقة على المكشوف «وهي مواجهة تأخذ المسالك على القلب البشري وتحاصره برصيد من الخير والسوء وتصور له نفسه وهو يواجه هذا الرصيد ويود... ولكن لات حين مودة ، لو أن بينه وبين السوء الذي عمله أمدا بعيدا أو أن بينه وبين هذا اليوم كله أمدا بعيدا بينما هو في مواجهة آخذ بخناقه ولات حين خلاص ولات حين قرار».[3]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1)- المرجع نفسه ،ص68.

(2)- التحرير والتنوير ،محمد الطاهر بن عاشور، ج3،ص233.

(3)- في ظلال القرآن ،سيد قطب ،م1 ،ص386.

ومن الآيات أيضا المجسمة للأعمال يوم القيامة على طريقة التصوير والتحويل قوله تعالى:﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾[الإسراء:13]، حيث صارت هذه الأعمال يوم القيامة قلادة ترف في عنق صاحبها رفيف الطائر.

جـــاء في لســـان العرب :قال أبو عبيد الطائر عند العرب الحظ وهو الذي تسميه العرب البخت ،وقـــال الفـــراء: الطائـــر معـــناه العمل وطائر عمله الذي قلّده وقيل رزقه والطائر الحظ من الخير والشر.(1)

وأصـــل إطلاق الطائر على العمل هنا«إما لأنهم كانوا يرمون السهام المرقومة بأسماء المتقاسمين على صُـــبر الشـــيء المقسوم المُعدّة للتوزيع ، فكل من وقع السهم المرقوم باسمه على شيء أخذه ،وكانوا يطلقـــون على رمي السهم فعل الطيران لأنهم يجعلون للسهم ريشا في قُذذه ليخف به اختراقه الهواء عـــند رميه من القوس فالطائر هنا أطلق على العمل مثل ما أطلق اسم السهم على حظ الإنسان من شـــيء ما،وإمـــا مـــن زجر الطير لمعرفة بخت أو شؤم الزاجر من حالة الطير التي تعترضه في طريقة والأكـــثر أن يفعلـــوا ذلك في أسفارهم وشاع ذلك في الكلام فأطلق الطائر على حظ الإنسان من شيء ما».(2)

فهـــا هي الأعمال قد جسمت وصار لها جسدا يعلق في عنق صاحبه، تلازمه لزوم القلادة تدلى في عنقه لا تنفك عنه ولا يستطيع طرحه،فإن كان خيرا فلعله يكون مزهوا به فرحا ،لكنه إذا كان شرا فســـيكون مفجوعا مرعوبا،ولعله يحاول بكل ما أوتي من قوّة أن يتخلص منه لكن هيهات فكما قلت هو لاصق به لا ينفك عنه لا يغادره،بل يطارده ويكشفه.

2- تجسيـــــم الذنـــــــــوب:

مـــن الآيات التي تجسم الذنوب يوم القيامة قوله تعالى:﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[الأنعام: 31]،

---

(1)- لسان العرب ، ابن منظور ، مادة(ط ي ر)، م2، ص635.

(2)- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، ج15، ص47.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وجـاء في لسان العرب :والوزر الحمل الثقيل والوزر الذنب وجمعهما أوزار ، والإثم :يقال وَزَرَ يَـزِرُ إذا حمـل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة ومن الذنوب .والآثام تسمى أوزار لأنها أحمال تثقله واحدها وزر.[1]

فقد جسمت الذنوب وصارت تحمل على الظهور، وهنا يرسم مشهد هؤلاء الموقوفين عند ربهم ،وقـد علاهـم الخزي والذلة وتلك الأوزار على الظهور لا تحط عنهم فيستريحوا منها،وفي حملهم لذنوبهـم إهانة وحقارة بأن شبهوا بالدواب ‹‹بل الدواب أحسن حالا فهي تحمل أوزار من الأثقال، ولكـن هؤلاء يحملون أوزار من الآثام والدواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم مشيعين بالتأثيم››.[2]

وفي تجسـيم الذنـوب عـلى هذا النحو باعتبارها ثقلا يحمل على الظهر تعبير صادق عما تحسه الـنفس الآثمة من ثقل الذنب وألمه،ومن تنغيصه عليها أسباب الراحة والاطمئنان ، فالتصوير الحسي يعتـبر جانبا مهما في التعبير القرآني هدفه رسم الصورة كما تحسها النفس، وهو بذلك أحسن وسيلة لتقريـب المعـنى ‹‹وفي هـذا الجو الحسي المفعم بالتصوير والتخييل وعقد المقارنات تتخذ الكلمات شـكلا دلاليا عضويا متميزا بحيث تصبح الدلالات الحسية والخيالية والمعنوية متعانقة تعانقا ملحا في مجـال الصـورة كدلالـة عامة،ولقد جاءت الصورة في القرآن الكريم لتوضح هذه الدلالات على اختلاف أنواعها ومراميها لتعطي لنا عن طريق التشبيه الحسي الصورة المجسمة المؤثرة في النفس››.[3]

يقـول تعالى:﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[النحل:25]، ففي هذه الآية جسمت الذنوب أحمالا تحمل على الظهور وهي أوزارهم الشخصية وبعض أوزار الذين أضلوهم وهم غافلون.

وهكـذا يؤدي بهم ذلك الإنكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم وشطر من ذنوب الذين يضلونهم بهذا القـول، ويصـدونهم عن القرآن والإيمان، وهم جاهلون به لا يعلمون حقيقته ،ويصور التعبير هذه الذنوب أحمالا ذات ثقل وساءت أحمالا وأثقالا، فهي توقر النفوس كما توقر الأعمال الظهور، وهي

(1)- لسان العرب ، ابن منظور ، مادة(و ز ر) ، م3، ص920.
(2)- في ظلال القرآن ،سيد قطب، م2، ص1072.
(3)- جماليات التصوير في القرآن ،محمد قطب عبد العال ،ص94.

تـــثقل القلوب كما تثقل الأعمال العواتق، وهي تتعب وتشقى كما تتعب الأثقال حامليها، بل هي أوهى وأنكى.[1]

وفي تشـــبيه الذنوب بأثقال تحمل فتتعب كاهل صاحبها تحقيق لغاية مهمة هي التأثير في النفس، وتقريـــب المعـــنى لها، فلو ترك المعنى مجردا ما أدى هذا الأداء لكن عرضه على هذه الصورة أمس بها وأكـــثر تأثيرا فيها «ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع، ثم من جهة الـــنظر والـــرؤية فهو إذن أمس بها رحما، وأقوى لديها ذمما وأقدم لها صحبة وآكد عندها حرمة وإذا نقلـــتها في الشـــيء بمثله عن المدارك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب إلى ما يدرك بالحواس أو يُعلم بالطـــبع، وعلى حدّ الضرورة ، فأنت كمن يتوصل إليها للغريب بالحميم، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر، إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ثم يكشف عنه الحجاب ويقول هاهو ذا، فأبصره تجده على ما وصفت».[2]

ومن تجسيم الذنوب أيضا قوله تعالى :﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[العنكـــبوت:13]، فقد جسمت الذنوب والخطايا وصارت أثقالا تحمل، وقد ازداد المعـــنى قـــربا بأن استعير لفظ"الأثقال" تعبير عن الأوزار فإذا كان في الآية السابقة يقول" ويحملون أوزارهـــم"، فإنه في هذه الآية عبر مباشرة عن الأوزار بأنها أثقال ، وفي ذلك زيادة تأثير على النفس وترهيبا لها بأن حكم على الأوزار بأنها مثقلة متعبة ،وقد جاء في لسان العرب: أن الثقل نقيض الخفة والـــثقل مصـــدر الثقيل ، تقول ثقل الشيء ثقلا وثقالة فهو ثقيل والثقيل الحمل الثقيل والجمع أثقال مثل حمل وأحمال.[3]

وفي اســـتعارة الأثقـــال للذنـــوب والأوزار أداء تعبيري رائع فهو لم يكتف بذكر لفظ "يحملون" لتجســـيم الذنـــوب فقد يظن الظان أن ما يحمل قد يكون فيه نوع من الخفة فاستعار لفظ"الأثقال" ووضـــعه بدلا من الآثام للدلالة على أن حملهم ثقيل مرهق مضني يشقون به، ويضجرون منه، وهي بذلـــك (الاســـتعارة) نراها ترسم معاني كثيرة بهذا اللفظ اليسير فمن أهم خصائص الاستعارة «أنها

---

[1]- في ظلال القرآن ،سيد قطب، م4، ص2167.

[2]- أسرار البلاغة، الجرجاني، ص100

[3]- لسان العرب،ابن منظور،مادة (ث ق ل)،م1،ص365.

تعطـيك الكثير من المعني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدّه من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر».[1]

ومـن الآيـات التي تجسم الذنوب والآثام قوله تعالى:﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[الـبقرة: 81]، والخطيـئة الذنب الذي ارتكبه الإنسان واجـترحه عمـدا فيتحول إلى صور يحيط بصاحبه من كل جانب ويغلق عليه منافذ النجاة والهرب كمـا أغلق عليه منافذ الحق والتوبة من قبل ، وفي هذا التجسيم تصوير رائع للحالة التي يكون عليها العاصـي يـوم القـيامة إذ يجد نفسه حبيس ذنوبه تحيط به من كل جانب تحاصره وتسد عليه سبل الخـلاص وعبـثا يحاول التخلص منها أو التبرأ منها،وعند ذلك يأتي الجزاء المنتظر فيساق إلى جهنّم، وفي تجسيم هذا المعنى بهذا الشكل صار«له وقعا في الحس يختلف عن وقع المعاني الذهنية المجردة»[2]، كمـا صارله وقعا آخر أهم هو ما يخلفه من تأثير في النفس إذ يهزها من كل جانب« فالقرآن يقدم أفكارا محسوسة ويبعدها عن التجريد الذهني لأجل التأثير بأقصى فاعلية».[3]

3- تجسيـــم يـوم القيـامــــة:

مـن الآيـات التي تجسم يوم القيامة قوله تعالى :﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾[النجم:57]، والآزفة هي القـيامة جسـمت في صورة كائن زاحف سريع للدلالة على قرب موعدها و« اللفظ يصورها كأنهـا مقـتربة زاحفة »[4].فإن من معاني أزف الاقتراب و الدنو ، جاء في لسان العرب: أزف يـأزف أزفا و أزوفا ، اقترب و كل شيء اقترب فقد أزف أزفا أي دنا و أفد، و الآزفة القيامة لقربها و إن استبعد الناس مداها.[5]

و أيضـا قوله تعالى:﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾[النازعات:34]، فمن أسماء القيامة الطامة و في تسمية هذا اليوم بالطامة تجسيم أمر معنوي له أثره في النفس

(1)- أسرار البلاغة ، الجرجاني ، ص41.

(2)- في ظلال القرآن ، سيد قطب، م1، ص86

(3)- جمالية المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف، ص114.

(4)- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م5،ص3074.

(5)-لسان العرب ،ابن منظور ، مادة (أ ز ف) ، م1، ص56.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فصـــارت القيامة بهذا التجسيم شيء يطم الكون و يغمر الجميع و هي مأخوذة من طمّ الماء يطم طمـــا و طموما : أي علا و غمر.و كل ما كثر و علا حتى غلب ، فقد طمّ يطمّ و طمّ الشيء يطمّـــه طماً : غمره، و يقال للشيء الذي يكثر حتى يعلو ،قد طم و هو يطم طما و جاء السيل فطم كل شيء أي علاه.[1]

و في هـــذا التجسيم تصوير لهول هذا اليوم إذ تتحول القيامة على طريقة التصيير و التحويل إلى طامـــة تغطي كل شيء، و تطغى عليه؛ السماء المبنية و الأرض المدحورة ، و الجبال المرساة و الليل المغطش و الضحى المخرج ، إنها تطم على كل شيء و تعم و هي تجيء في إبانها لتطم على هذا كله و ليغطي مشهدها على تلك المشاهد جميعا[2]

و أيضـــا تجسيم يوم القيامة في قوله تعالى:﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾[الغاشية:1] ،فقد جسم هـــذا اليوم بأن صار غطاء يغشى كل شيء و يعمه ، و الغشاء : الغطاء غشيت الشيء تغشية إذا غطيته[3] و مه أيضا قوله تعالى :﴿ إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ﴾[الواقعة:1].

فقد صار يوم القيامة على طريقة التجسيم كأنه شيء يقع من علو لثقله « فالواقعة بمعناها و بجـــرس اللفـــظ ذاتـــه بما فيه من مد ثم سكون ، تلقى في الحس كـــأنما يتوقع له الحس أرجحة، ورجرجه يحدثها حين يقع».[4]

ومنه أيضا وصف هذا اليوم بالثقل في قوله تعالى :﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾[الإنســـان:27]، فيوم القيامة وهو يوم مجرد صار جسما محسوسا له ثقل بأن وصف كما قلت بالثقل «فينتقل اليوم من زمن لا يمسك إلى شيء ذي كثافة ووزن ».[5]

إن التجســـيم القـــرآني لا يهتم بالصورة الحسية فقط بل يجمع ما بين الحس والتأثير الوجداني فهـــو إذن «لا يقتصر على الباصرة بل يشمل البصيرة في نهاية الأمر؛ إذا أضفى القرآن عليه دقة

---

(1)– المرجع نفسه،مادة (ط م م)،م2 ،،ص615.

(2)– مشاهد القيامة ،سيد قطب ،ص193

(3)– لسان العرب ، مادة(غ ش ي)،م2، ص991.

(4)– في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م6، ص3462.

(5)– التصوير الفني في القرآن الكريم ، سيد قطب ، ص71.

فنـــية محكمـــة فقد أضاف إلى جمال الاستعارة جمال انتقاء المفردة الحسية من بين ما يشبهها من الدلالة لمراعاة المواقف وخصوصيتها». [1]

والســـر أيضـــا في نجـــاح طريقة التجسيم في القرآن الكريم ونجاحه في الأداء التصويري يعود إلى حسن اختيار الكلمة التي تعتبر« الإكسير الذي يقوم بعملية التحويل». [2]

ودقـــة الانـــتقاء في اللفظ هي أحد مدارج البلاغة القرآنية والسر في مطابقة ألفاظه لمعانيه « فـــبمقدار ما يتم التوافق الدقيق بين المعنى القائم في الذهن واللفظ الدال عليه والمصور له يتسامى الكلام في درجات البلاغة والبيان». [3]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1)- جمالية المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف ، ص119.

(2)-المرجع نفـــســـه، ص118.

(3)- من روائع القرآن ، البوطي ، ص136.

الفصل الثاني :

التناسق الفني
في
آيات البعث والحشر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ورد في لسان العرب تحت مادة(نسق) ما يأتي:

نسّق الشيء نسّقه نسْقًا،نظّمه على السواء،والنسق من الشيء :ما كان على طريقة نظام واحد عام في الأشياء ،وقد نسّقه تنسيقًا،وثغر نسق،إذا كانت الأسنان مستوية،ونسق الأسنان ،انتظامها في النبتة وحسن تركيبها.[1]

والتناســق في التعبير هو: أن يهيئ الأديب لحظة التعبير للألفاظ نظاما ونسقا وجوا يسمح لها بأن تشــع شحنتها من الصور والظلال ،والإيقاع ،وأن تتناسق ظلالها وإيقاعها مع الجو الشعوري الذي تــريد أن تــرسمه ،وألا يقف بعدها عند الدلالة المعنوية الذهنية ،وألا يقيم اختياره للألفاظ على هذا الأساس وحده.[2]

والتناســق في الأســلوب هو: أن يتم تنظيم العبارات فيه على الأساس السابق ذكره،بحيث يكون متلائما على طريقة واحدة ونظام واحد،متناسق النظم،متناسب الفقرات،حسن الإيقاع.[3]

والتناســق في البيان القرآني ،أو التناسب كما هو معروف عند القدماء، موضوع دقيق، وجليل في الوقــت نفســه؛أما أنه دقيق فلأنه يبحث ويتناول وجها لطيفا من أوجه بلاغة القرآن،وأما أنه جليل فلأنــه متشــعب متنوع تستلزم دراسته معرفة واسعة باللغة العربية ،وخصائصها المعجمية والصرفية والصــوتية والتركيبــية، وهــذه معرفة تتطلب إحاطة شاملة بعلوم اللغة، وفقهها،ولقد اهتم دارسوا الإعجاز قديما بهذا اللون البياني والذي كما قلت كان معروفا عندهم بالتناسب ،كأبي الحسن الرماني الــذي عقــد في رســالة(النكت في إعجاز القرآن) ثلاثة أبواب تتصل كلها بهذا الوجه من التناسب وهــي:<باب التلاؤم>و<باب الفواصل>و<باب التجانس>[4] ،ومنهم الباقلاني والجرجاني،ومن المحدثين نجد الرافعي الذي خصّ جزءا من كتابه" تاريخ آداب العرب" لموضوع القرآن وإعجازه، عني فيه بإبراز القيمة الجمالية لتركيب الأصوات وتلاؤمها وتناسب الألفاظ وحسن ائتلافها ،لكن اهتمام الرافعي « انصرف إلى الجانب الصوتي،واللفظي في القرآن الكريم،وإلى النظم الموسيقي في لغته، وكان يؤمــن بأن حروف القرآن مرتبة باعتبار من أصواتها، ومخارجها، وتناسبها في الجهر والهمس،والشدة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1)- لسان العرب،ابن منظور،مادة (ن س ق)،م3،ص715.

(2)- النقد الأدبي ،سيد قطب ،ص36.

(3)- نظرية التصوير الفني عند سيد قطب،صلاح عبد الفتاح الخالدي،ص88.

(4)- انظر:النكت في إعجاز القرآن،ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ،الرماني،ص24 وما بعدها.

والــرخاوة ، والتفخــيم والترقــيق ، والتفشي والتكرير ، ولذلك اجتهد في تحليل التركيب الصوتي مستعينا بذوقه الفني،وشاعريته المرهفة على إبراز موطن الجمال الموسيقي في ذلك التركيب». [1]

ومــن أكــثر الدارسين للتناسق الفني في القرآن الكريم سيد قطب حيث عدّ التناسق الفني السمة الثالــثة من سمات التصوير الفني في القرآن ، وعقد له فصلا مطولا في كتابه "التصوير الفني " وقد بدأ بذكر ألوان التناسق في القرآن الكريم التي توصل إليها الباحثون السابقون له وهي: [2]

1- ذلك التنسيق في تأليف العبارات بتخيّر الألفاظ،ثم نظمها في نسق خاص.

2- الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخيُّر الألفاظ ونظمها في نظام خاص.

3- تلــك النكــت البلاغــية التي تنبّه إليها الكثيرون كالتعقيبات المتفقة مع السياق كأن تجيء الفاصلة:<وهو على كل شيء قدير> بعد كلام يثبت القدرة.

4- ومــنها ذلــك التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات ،والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض.

5- التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص والخطوات النفسية التي تصاحبها.

ثم ارتقى سيد قطب إلى مستويات أخرى ليفتح آفاقا جديدة من التناسق يمكن إجمالها فيما يأتي[3]:

1- هــناك المواضــع التي يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية..

2- قــد يســتقل لفــظ واحد –لا عبارة كاملة– برسم صورة شاخصة لا لمجرد المساعدة على إكمال الصورة.

3- المقابلات الدقيقة بين الصورة التي ترسمها التعبيرات.

4- التناســق الإيقاعي (في القرآن إيقاع موسيقي متعدد الأنواع يتناسق مع الجو ويؤدي وظيفة أساسية في البيان).

5- التناســق في تركيــب الصــورة،فالقرآن يراعي حيث يرسم صورا أو يعرض مشاهد أدق مظاهر التناسق الفني في تركيب الصور وتوزيع أجزائها ،واختيار ألوانها.

(1)- التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي، ، أحمد أبو زيد،د ط ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، الرباط،د ت ، ص43.

(2)- انظر: التصوير الفني في القرآن،سيد قطب، ص84-85.

(3)- المرجع نفسه ،ص77 وما بعدها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

6- التناســـق في عـــرض المشـــاهد والصور،فبعض المشاهد والصور القرآنية يمر سريعا خاطفا ،وبعضـــها يطول وكل ذلك تحقيقا لغرض خاص في الصورة يتسق مع الغرض العام ويتم به التناسق في الإخراج.

7- التناسق بين الصورة وبين إطارها.

ويمكنـــنا بعـــد هذا كله أن نقول أن التناسق الفني في الكلام هو الصيغة التي تتوافر فيها وحدة من الانســـجام،في صورة جميلة أخّاذة،تسترعي الانتباه،وتريح الحواس،وتتماشى والذوق الرفيع،بحيث لا خلل ولا فوضى ، بل تراص والتحام في فن بديع.

والتناســـق الفـــني في القرآن نابع من طبيعة اللغة العربية،وفطرة عقلية العرب البيانية،فإن العربي كان يـــنطق وكأنـــه نبع فيّاض ،لا تكلف ولا إجهاد في الفكر والعقل،بالسلامة في سبك متين،وانسجام وتناسق في الأجزاء،على غاية من الإبداع،وبساطة الفطرة ونقاوتها.[1]

هـــذه الـــروح هـــي التي تسود القرآن لكنها بشكل أرقى وأبدع مما يجعل التناسق في القرآن يبلغ الإعجـــاز في ألوانـــه ودرجاته وآفاقه:« فمن نظم فصيح،إلى سرد عذب ،إلى معنى مترابط ،إلى نسق متسلسل ،إلى لفظ معبر،إلى تعبير مصوّر،إلى تصوير مشخص،إلى تخييل مجسّم،إلى موسيقى منغّمة،إلى اتّساق في الأجزاء ،إلى تناسق في الإطار،إلى توافق في الموسيقى،إلى تفنن في الإخراج ...وبهذا كله يتم الإبداع ويتحقق الإعجاز»[2]

لذلـــك كلـــه خصصـــت هذا الفصل للوقوف على بعض وجوه التناسق الفني في آيات البعث والحشـــر، ونظـــرا لتشعب هذه الوجوه وكثرتها وغنى آيات البعث والحشر برصيد فني هائل في مجال التناســـق ممـــا يحـــتاج لوحده لدراسة مستقلة،وبعد طول نظر،رأيت أن أختصر هذه الوجوه ،وتلك الآفـــاق في ثـــلاث مباحث تكاد تجمعها كلها هي:أولا-جرس الألفاظ،وثانيا- التناسق في جزئيات المشهد،وثالثا- اتساق المشهد مع السياق.

أولا- جـــــــرس الألفـــــــــــاظ:

ورد في لسان العرب[3]عن الجرس ما يأتي :

---

[1]- الإعجاز الفني في القرآن ،عمر السلامي، ص162-163.

[2]- التصوير الفني في القرآن ،سيد قطب،ص118.

[3]- لسان العرب، ابن منظور ،مادة (ج ر س)،م1،ص501.

جرســـت الماشية الشجر والعشب ،تجرِسه وتجرُسه جرسا:لحسته،وكذلك النحل :إذا أكلت الشجر للتعســـيل،وقيل الجـــرس: الصوت الخفي،ابن سيّده:الجرَس والجِرس :الحركة والصوت من كل ذي صوت،ويقال:جرس الطائر وأجرس :صوّت ،ويقال سمعت جرس الطير إذا سمعت مناقيرها على شيء تأكله.

وجرســـت وتجرَّست :أي تكلمت وتنغّمت به،وفلان مُجْرِس لفلان:يأنس لكلامه وينشرح بالكلام عنده.

من خلال هذه الاستعمالات المتعددة لكلمة (جرس) يبدو أن لها مفهوما مفاده الصوت الخفيف أو القوي،وقد تعني مع الصوت الحركة كما ذهب إلى ذلك ابن سيّده.

فجـــرس الحـــروف:صـــوتها المنغّم،وهي تختلف في صفاتها على حسب مخرجها، وجرسها، ونغمة صـــوتها عند ما ينطق بها ولذلك قيل:حروف الهمس،وحروف الاستفال،وحروف الذلاقة،وحروف الصفير...وهكذا

وجرس الكلمات:هو نغمتها وصوتها وإيقاعها ،الذي يحصل نتيجة تلاؤم بين حروفها وائتلاف هذه الحروف ،وتوافق أصواتها ،وحلاوة جرسها.

وجـــرس العـــبارات: هو الإيقاع الصوتي الحاصل من التلاؤم بين كلماتها ،وتوافق أصواتها وحلاوة جرســـها كذلـــك ،فالجرس يكون في الحروف والكلمات والعبارات وهو نوع من أنواع الموسيقي للعبارات.[1]

ولقـــد رأيـــنا أنّ من أوجه التناسق الفني ذلك الإيقاع الموسيقي أو النغم الصوتي الناشئ من تخيّر الألفاظ،ونظمهـــا في نســـق خاص ليتناسق ذلك كله مع الجو الذي تطلق فيه هذه الموسيقى وتعدد الوظائف التي تؤديها في كل سياق،وقد يستقل لفظ واحد ليرسم الصورة بجرسه الذي يلقيه في الآذان الـــناتج عن تخيّر حروفه،وبنائها ليتناسب بصورة بديعة مع المعنى المراد تصويره ليكون هذا قمة جديدة مـــن قمم التناسق الفني في القرآن« وهكذا كان التناسب القرآني في جرسه، وإيقاعه معجزة جرسية، مثلما كان في بيانه وتشريعه وآدابه».[2]

فاللغـــة نوع من الموسيقى وجهازنا الصوتي أشبه بمجموعة من الآلات الموسيقية تصدر عنها الألفاظ بنغمات مختلفة وبدرجات متباينة « وتبعا لمخارج الحروف، وصفاتها يكون اختلاف الكلمات صوتيا

---

[1]- نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ،صلاح عبد الفتاح الخالدي،ص90.

[2]- الظاهرة الجمالية في القرآن ،نذير حمدان،ص194.

في الوضـــوح والشـــدّة والسرعة وفي الرنين والإيقاع ، فبعض الكلمات يبدو خافتا ، وبعضها يظهر مجـلجلا , وبعضـــها خفيف التموجات يجري كالماء , وبعضها تسمع له ما يشبه الحفيف أو الخرير، وبعضها له نقرات كالدفوف ،أو طرقات كمطرقة الحداد، وبعضها تحس فيه صلابة، وبعضها تلمس فــيه الــرخاوة، واللين، وبعضها هواء يسمح بالتموج الصوتي ،والطواعية الموسيقية كحروف المد، وبعضها له غير ذلك من الصفات التي تجعل للكلمة في النفس أثرا موسيقيا خاصا»[1].

ولقـــد وجـــد العرب في لغتهم مرونة وطواعية كبيرة فسخروها لإرضاء ميلهم وولعهم بالإيقاع والنغم الصوتي اللذيذ ، ذلك أن العربي بفطرته ميال إلى الإيقاع فالنفس البشرية طروب بطبيعتها وأن جمـــيع انفعالاتها ومطامحها واندفاعاتها إنما تتجلى في تعبير موقع موزون هو بيت شعر موزون أو فقرة مسجوعة متوازنة .

كمـــا أن العرب كانوا أمة أمية تعتمد على السماع في مختلف أغراضها ، أكثر من اعتمادها على القـــراءة والكتابة، وكان من آثار ذلك أن أصبحت الآذان العربية دقيقة التمييز بين الأصوات المختلفة شديدة الإحساس برنينها وإيقاعها .[2]

ولشدة ولعهم بالإيقاع لم يكتفوا باستعماله في صياغة الشعر بل زينوا به كثير من أصناف كلامهم المنـــثور ، ويظهـــر ولع العرب وشغفهم بجمال الإيقاع في كثرة أسجاعهم، وفي الازدواج، والتوازن ،والترصـــيع في كلامهـــم، فلقـــد « ازدانت العربية بزينة الإيقاع منذ نشأتها نظما ونثرا وما التنوين والإعراب سوى بعض آلات الموسيقى اللفظية، وما التسجيع والتوازن والازدواج، ،والاتباع، وأنواع الـــبديع اللفظي، وقوانين الإعلال والإدغام، سوى مظاهر أخرى لاهتمام العرب المفرط بجمال الرنة وحسن الإيقاع» .[3]

ولقد كان أول ما أحسّه العرب من القرآن جرس ألفاظه وإيقاع عباراته؛ إذ أنه لما قرئ عليهم « رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جمله ألحانا لغوية رائعة كأنها لإتلافها وتناسبها قطعة واحدة قراءتها هـــي توقيعها» [4].وقصص تأثرهم بأصواته كثيرة،فقد روى صاحب السيرة أن أبا سفيان بن حرب وأبـــا جهل ،والأخنس بن شريف خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ،وهو يصلي من الليل في

---

[1]- التناسب البياني ، أحمد أبو زيد ، ص215.

[2]- انظر:المرجع نفسه ، ص218.

[3] - النقد الجمالي وأثره في النقد العربي ، روز غريب ، ط1، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1952، ص132.

[4]- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، ص152.

بيـــته،فأخذ كـــل منهم مجلسا يسمع فيه،وكل لا يعلم بمكان صاحبه،فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا؛فجمعهم الطريق فتلاوموا،وقال بعضهم لبعض:لا تعودوا فلو رآكم سفهاؤكم لأوقعتم في نفوســـهم شـــيئا ،ثم انصـــرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يســـتمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا،فجمعهم الطريق فتلاوموا،وقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مـــرّة ثم انصـــرفوا،وتكرر ذلـــك في اللـــيلة الثالثة،فقال بعضهم لبعض:لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود،فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.[1]

وإنّ أوّل ما شدّني لآيات البعث والحشر -حينما أكببت على تلاوتها- جرس ألفاظها المتميز الذي يتناســـق بشـــكل مذهل بديع مع المعنى المراد تصويره، سواء كان هذا اللفظ مفردا مستقلا أو كان متجاورا مع ألفاظ أخرى، فالملاحظ أن القرآن قد اختار ليوم القيامة أسماء ذات دوي ورنين لتتناسب مـــع جو الهول والرعب الذي يريد أن يرسمه، فسمّاه الواقعة ، الحاقة ، الطامة ، والصاخة ، القارعة ، وهي أوصاف ذات صدى وترويع تحرك النفوس وتهزها من الأعماق .

فالواقعـــة بمعـــناها وبجـــرس اللفظ ذاته ، بما فيه من مد ثم سكون ، تُلْقَى في الحسّ كأنها هي ثقل ضخم ينقض من علٍ، ثم يستقر لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال [2].

هـــذا الجـــرس المـــدوي الذي حملته اللفظة الناتج عن المد قبل القاف ثم السكون في "عه" ليتناسب مناســـبة دقيقة مع الصورة المراد رسمها لهول هذا اليوم، وليتناسب مع مطلع السورة " إذا وقعت " في إبهام وتخويف "،ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه كأنما يتوقع له الحس أرجحة يحدثها حين يقع ، ويلي الســـياق هـــذا التوقع فإذا هي خافضة رافعة.وإذا الأرض ترج رجا والجبال تبس بسا فتصير كالهباء المنبث .

ولفـــظ الحاقـــة أيضا له جرس خاص يشبه الجرس الذي قلت أن لفظة الواقعة تتمتع به ، جرس يوحـــي بهـــول الحدث فكأنما هناك شيء يُرْفع ثم لِيُلقَى من عل، ليستقر في مكانه لا يتزحزح ، هذا الإيحاء التصويري ناتج عن مَدَّة الحاء بالألف، واستقراره في تشديد القاف التي تليها ، وأخيرا الانتهاء عـــند التاء المربوطة التي يُوقَف عليها بالسكون لتنقلب إلى هاء وهو أصلها، « ويشعر النطق بضغط ثقيل على الحنجرة ، بحكم تلاقي حرف الحاء والقاف، والفصل بينهما بالألف الساكن الذي اقتضى

---

[1]- السيرة النبوية ، ابن هشام،تحقيق:مصطفى السقا،وإبراهيم الأبياري،وعبد الحفيظ شلبي ،ط2،مصطفى البابي الحلبي، 1375هـ-1955م، ص315.

[2]- في ظلال القرآن ، سيد قطب، م6 ، ص3462.

تشـــديدا على حرف القاف ، ويوحي وكأن قوة تجتذب شرايين العقل والمخ والدماغ لتنضغط على قـــوة تتصاعد من أسفل بالحاء وكذلك يشعرنا التقاء الحاء والقاف،وتشديد القاف بعد ألف ساكنة بزهق في الحنجرة، وبحركة صوت يتسم بالخنق الشديد هذا التفتت قوته من قوة هول يوم الحاقة»[1] ، وجـــرس هذه اللفظة لم يطلق هكذا منعزلا دون فائدة فإن اللفظة بجرسها تتناسق تناسقا عجيبا مع السياق الكامل الذي قد وردت فيه ، والذي تُنبئنا به الآيات الواردة بعدها في السورة ذلك أن« الجو كلـــه في هـــذه الآيـــات جو تهويل وترويع وتعظيم وتضخيم ، يوقع في الحس شعور بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة وبضآلة الكائن الإنساني بالقياس إلى هذه القدرة من جهة أخرى، والألفاظ بجرسها ومعانـــيها وباجـــتماعها في التركيب وبدلالة التركيب كله تشترك في خلق هذا الجو وتصويره ، فهو يـــبدأ فيلقـــيها كـــلمة مفـــردة لا خبر لها في الظاهر :"الحاقة" ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاســـتعظام لماهـــية هـــذا الحدث العظيم "ما الحاقة" ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل وإخـــراج المسألة عن حدود الإدراك "وما أدراك ما الحاقة " ثم يدعك فلا يجيب هذا السؤال ، يدعك واقفـــا أمـــام الأمر المستعظم المستهول الذي لا تدريه ولا يمكن أن تدريه ، يدعك لحظة مفعم الحس بالاستهوال والاستعظام ، هذا الاستهوال وذلك الاستعظام الذي يلقي في الحس ناتج عن ذلك القرع الموســـيقي المـــتولد عن جرس اللفظة وعن الإيقاع الشديد الناشئ عن تكرارها أيضا« وقد تركبت اللفظـــتان مـــن حـــروف حلقية وهي الحاء والخاء والعين وهي حروف لها أهمية في تركيب السياق وجـــرس القول، كما احتوتا على حرف القاف،وقد اجتمعت القاف والعين في لفظة الواقعة،والعين والقاف حينما يدخلان النسيج التركيبي للأصوات يكونان أكثر الحروف حسنا لأنهما أطلق الحروف وأضخمهما جرسا» [2].

أمـــا الطامة والصاخة فهولهما أشدّ، ووقعهما في النفس أكبر، وعلى الحس أعنف ذلك أن جرسهما متمـــيز بـــالقوة والشدة « فالصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها ، وشقه الهـــواء شقا حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا ، والطامة لفظة ذات دوي وطنين ، تخيل إليك أنها تطم وتعم كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه » [3].

---

[1]- الإعجاز الفني في القرآن ،عمر السلامي، ص250.

[2]- انظر :التنغيم اللغوي في القرآن الكريم ،سمير إبراهيم وحيد العزاوي،ط1،دار الضياء،عمان،الأردن،1421هـ 2000مص93.

[3]-التصوير الفني في القرآن الكريم ، سيد قطب ، ص79.

إذن فالجـــرس المنبعـــث من هذه الألفاظ المدوية "الواقعة ، الحاقة ، الطامة ، الصاخة " منشأه تلك الحـــروف الـــتي انتقت انتقاء خاصا في مناسبة جميلة مع المعنى المراد إلقاءه في الحس والنفس دون أن يتأثر تركيب الكلمة، أو يفسد المعنى بل تناسق الكل، الحرف في الكلمة، والكلمة مع المعنى وأهم من ذلـــك الجـــرس مع المعنى بل ومع السياق نفسه، وهذه سمة قد انفرد بها القرآن الكريم وهي كما رأينا ملحوظة بشكل بيّن في الألفاظ التي ركبت منها آيات البعث والحشر ذلك أن«القرآن يتَخيّر حروف الكلمة وينتقي أصواتها صافية الذوق في مخارجها لذيذة السماع ، طيبة المجرى على اللسان، معتدلة في تألـــيفها ، خفيفة في الفم ، نازلة على أحسن هيئة في الإيقاع ، قوية الإيحاء شديدة البعث لما تتضمنه مـــن المعـــاني المرادة ، والأهداف المقصودة من الآية الكريمة ، لذلك نرى في تركيب حروف القرآن تناســـقا عجيبا بين الرخو منها والشديد والمجهور والمهموس والممدود والمقطوع ، ونجد أن اجتماعها مع بعضها يؤلف نغما مطربا يظهر أثره في صوت القارئ».[1]

فالتنوع الصوتي لحروف اللغة العربية خاصية مهمة من الخصائص الإيقاعية للغة العربية، وقد تميزت بهـــذا التـــنوع لســـعة مدرجهـــا الصوتي، وتوزعها توزيعا عادلا يؤدي إلى التوازن، والانسجام بين الأصوات .

أضـــف إلى ذلك أن العرب يراعون في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها فيها الانســـجام الصـــوتي والتآلف الموسيقي ولذلك تجنبوا اجتماع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال والجيم مع القاف والظاء والطاء والصاد ، وتجنبوا اجتماع حروف الحلق .

فحـــروف اللغـــة العربـــية وأصـــواتها« واسعة الأفق، كاملة في مدرجها الصوتي، حسنة التوزيع لـــلحروف والأصـــوات في هـــذا المدرج ، متميزة المخارج والصفات ثابتة الأصوات عبر القرون ، يـــتوارثها جيل بعد جيل ، متنوعة الوظائف في بنية الكلمة، لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكويـــن المعنى ، وتثبيت أصله وقراره وتنويع شكله وألوانه مع تناسق بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة».[2]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1)- ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن الكريم ، عبد الفتاح لاشين ، ص38.

(2)- خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتركيب ، محمد ، محمد المبارك ، د ط ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1964 ، ص25.

والصـــوت الموسيقي في القرآن هو الصيغة السليمة لدقة التلاؤم في تأليف الحروف وحسن تلاؤمها لمخـــارج نطقهـــا[1]، وقد قسم الرماني تأليف الحروف إلى ثلاثة أوجه : متنافر، ومتلائم في الطبقة الوســـطى، ومتلائم في الطبقة العليا [2].والقرآن الكريم يحتل الوجه الثالث، ويذكر الرماني أن الفائدة في التلاؤم هي«حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يراد عليها من حســـن الصورة وطريقة الدلالة» [3]'ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصـــحيحة ،تشـــعر بتناسق عجيب في رصف حروفها في الكلمات، وفي الكلمات في الآيات،هذا حرف يَنقُر ،وذاك يَصفِر،وهذا يهمس،وهذا يجهر،« ومن هنا تتجلى جمال لغة القرآن،حين خرج إلى الـــناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة،الجامعة بين اللين والشّدّة،والخشونة والرّقة،والجهر والخُفية، عـــلى وجـــه دقـــيق محكم،وضع كلاّ من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان،حتى تألّف من المجموع قالَبٌ مُدْهِشٌ،وقشرة سطحية أخاذة امتزجت فيها البداوة في غير خشونة ،برقّة الحضارة من غير ميوعة،وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يُسر وسهولة»[4]

فالواقعـــة ،والحاقة،والطامة ،والصّاخة،قد تألّفت من حروف متباعدة المخارج، يلمس لها في السمع حســـن وذوق فـــني ، وهي ليست بالمتوعرة ولا الوحشية ولا بالساقطة العامية ، جرت على العرف العـــربي الصـــحيح ، معـــتدلة غير كثيرة الحروف وبالتالي حازت على شروط الفصاحة للفظة كما حددها ابن سنان الخفاجي في كتابه "سر الفصاحة "[5].

وإذ ينشـــأ جرس اللفظة من تناسق حروفها بما فيها من صفات- وهذه سمة إيقاعية كما قلت في اللغـــة العربـــية- فـــإن المقاطع الصوتية أيضا تكون سببا للجرس والإيقاع،والمقاطع الصوتية في اللغة العربـــية مقـــاطع إيقاعية ، ذلك أن اللغة التي تقوم على مبدأ المقاطع الممدودة ،والمقصورة لغة إيقاعية

---

(1)- الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، عمر السلامي ، ص226.

(2)- النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) ، الرماني ، ص87.

(3)- المرجع نفسه ، ص88.

(4)- التعبير الفني في القرآن الكريم ،بكري شيخ أمين،ص191.

(5)- انظر: سر الفصاحة ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ، تصحيح وتعليق عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ،1372هـ ، 1953م ، ص66 وما بعدها .

أكثر من غيرها وذلك كالعربية ، وتخضع المقاطع اللفظية في اللغة العربية إلى مبدأ أساسي يقضي بأن تكون ذات كميات من الوزن والوقت، ومقسمة إلى صنفين ، مقاطع مقصورة ومقاطع ممدودة ، فأما المقطع المقصور فهو الذي يتألف من متحرك لا يليه ساكن وهو خفيف ، وأما المقطع الممدود فهو الذي يتألف من متحرك وساكن وهو ثقيل ، وهذا المبدأ هو الثابت في اللغة العربية سواء أكان في الشعر، أم في النثر ، وكل قراءة للقرآن أو للشعر أو للنثر لا يلتزم فيها به قراءة خاطئة ، والقرآن كتاب ناطق باللسان العربي المبين، وكل مقرئ لا يخضع في قراءته لهذا المبدأ مخطئ متطاول على مبادئ اللغة، ومن هذه الخاصية أتى سحر الكلمة في اللفظة العربية وتأثر العرب بالشعر والخطابة؛ ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزة محمد ﷺهي القرآن وما ذلك إلاّ لأن المقاطع اللفظية ذات وزن من الثقل والخفة، فإذا تناسب الثقل والخفة اندرج فيهما الإيقاع بيسر، لأنه يجد الظروف الملائمة لانبعاثه فيضفي على العبارة مزيدا من الحسن والسحر [1].

والألفاظ التي بين أيدينا يظهر فيها هذا التناسق الجميل في توزيع المقاطع بين الثقل والخفة ، فالواقعة تتركب من مقطع طويل (ثقيل) وثلاثة مقاطع قصيرة (خفيفة) ، أما الحاقة والطامة والصاخة فتتركب من مقطع طويل ومن مقطعين قصيرين .

وبعيدا عن هذه التعقيدات التي لا يفهمها إلا أهل الاختصاص والتي يحتاج لتوضيحها إلى قواعد موسيقية، وإلى اصطلاحات لا يتهيأ العلم بها لكل قارئ ، أظنّ أننا لسنا في حاجة لها لندرك القيمة الفنية لجرس الألفاظ القرآنية، ولندرك الفرق بين الأساليب الإيقاعية ، وأهمية ذلك في رسم الصورة وفي توضيح المعنى وتناسقه مع السياق إذ نحن استعملنا الذوق. فالعرب أحسُّوا جرس الألفاظ وتأثروا بموسيقى القرآن و لم يكونوا على علم بهذه المصطلحات ، ودراستي هذه من بين أهدافها الوقوف على سر تأثر العرب بالقرآن الكريم اعتمادا أولا على الذوق.

فالملاحظ أن ألفاظ آيات البعث والحشر تميزت بجرس يتناسق تناسقا رائعا مع المعنى فيرتفع أحيانا حتى يحس القارئ له دويا مفزعا يقرع الآذان، وينقر نقرا وينخفض أحيانا أخرى فلا يكاد يسمع إلا همسا.

[1]- نظرية إيقاع الشعر العربي ، محمد العياشي ، د ط ، مطبعة المصرية ، تونس ، 1976م ، ص146.

يقـــول تعالى:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ [طـــه:105]، فلفظة"نسفا" توحي بجرسها بعنف الفعل وقوته، فكأنما هي عاصفة هوجاء عاتية قد هبت لتقتلع تلك الجبال الراسيات من جذورهـــا فلا تبقي ولا تذر شيئا منها، ثم يأتي بعدها قوله تعالى :﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾[طـــه: 106].

وتـــأمل أيضـــا لفظة "صفصفا" وجرسها الناشئ من تكرار الحرفين الصاد والفاء بما يوحي بقوة الفعـــل وشدّته ، ثم تأمل قوله تعالى :﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[طـــه:108]، وتأمل لفظة"همسا" وما يوحي به جرسها من خنوع وخشوع وإذعان للخالق .

والألفـــاظ ينبعث منها إيقاع هو صدى لهذه النفوس الذليلة، المتكبرة، الخاضعة، أمام القدرة الجبارة لله ﷻ، والتي تبدّت من خلال جرس الألفاظ التي احتواها الجزء الأول من السياق .

وعلـــيه يمكـــن أن نقول « أن الإيقاع الموسيقي يساير دوما الموضوع لا يسبق المعنى ولكنه يخضع للمحـــتوى ، وصيغة التعبير التي يراعي القرآن فيها استجاباتها من حيث الوقع، ومدى أثرها في النفس وهنا يحتل الإيقاع الموسيقي مكانه ليتعاون مع العبارة في أداء المحتوى والغرض الديني» [1].

قال تعالى :﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾[الفجر:21].

إنّ الـــنفس لتهـــتز وتخرس أمام هذا الجرس المدوي المشبع بروح الهول، والقوة، والذي تنطق به لفظة "دكا" ، وفي تكرار اللفظة مرتين إيقاع جميل حتى أن النفس ترددها تلقائيا دون الشعور بفاصل بيـــنهما،بل إن الإيقاع ليختل إذا ما حذفنا اللفظة المكررة ، هذا الجرس المدوي يتناسق مع المعنى المراد تصويره وهو دك الأرض وتحطيم معالمها وتسويتها فإذا هي غير الأرض التي ألفها الإنسان من قبل .

يقـــول تعالى:﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[الفرقان:27]، فجـــرس اللفظة "يعض" يوحي بشدة الفعل وبقوة المسك كما يوحي بشدة الحسرة والندم التي يكون

[1]- الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، عمر السلامي ، ص252.

عليها الظالم إذ يصرخ في ندم وحسرة :﴿ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾[الفرقان:27-28].

وإذ ينشأ جرسُ اللفظة من اجتماع صفات الحرفين (العين والضاد) فإن لحركات الحروف دور مهم في تكوين جرسها ،فتوالي الضمتين الثقيلتين والتقائها بالشدّة على الضاد أسهم في إعطاء اللفظة ذلك الجرس العنيف القوي ،« ولو تدبرت ألفاظ القرآن الكريم في نظمها ، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيء لبعضها البعض ، ويساند بعضا ، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف ، متساوقة لها في النظم الموسيقي ، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيًّا كان ، فلا تَعْذُبُ ولا تُستساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقا في اللسان، واكتنفها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء، وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة». [1]

وإذا كان توالي الضم يوحي بالشدة والقوة فإن توالي الحركات يوحي بالخفة والسرعة من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾[النمل:7-8]، وقوله :﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[الزمر:68]، فقد توالت الحركات في اللفظتين (فَفَزِعَ ، فَصَعِقَ)، مما أكسبهما جرسا سريعا ليتناسق مع المعنى المراد؛ إذ تُصور اللفظتان سرعة التأثير الناتج عن النفخ ، فالأولى فزع وهول والأخرى صعق وذهول« فالحركات تقوم بعملية مكاتفة للحروف في عملية التجسيد» [2].

[1]- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، ص160.

[2]- جمالية المفردة القرآنية ،أحمد ياسوف، ص225.

وإذ ينشأ الجرس من صوت الألفاظ يمكن أن ينشأ أيضا من الصوت والحركة كما ذهب إلى ذلك ابن سيدة حينما عَرَّفَ الجرس بقوله:« الجرس الصوت والحركة من كل ذي صوت »، وقد سجلت قولـــه هذا في بداية هذا المبحث لما تعرضت للمعنى اللغوي لكلمة جرس ، ويحدث هذا حينما يتعانق الصوت الناشئ من الألفاظ المنتظمة داخل العبارة مع الحركة الحسية التي تسري بداخلها « والجرس ينبع من التقاء الصيغة الفنية بمفرداتها الحية ، مع الوقع النفسي الذي ينعكس فيه صوت الطبيعة بجرسه وحركـــته وإذا كان الجرس والحركة من سمات الطبيعة؛ فلا بد أن يسود داخل الطبيعة إيقاع ينسجم ووحدة الكون ، والكائن الحي هو جزء من هذا الصدى لهذه النفس بانفعالاتها ومشاعرها وحوادثها ، ولا بـــد أن يحمـــل هذا الصدى نغمة الحياة ورنتها وإيقاعها الموسيقي ، وعبارات القرآن تجسم في شـــكلها القـــائم على الحركة والجرس صورة الحياة ، وبهذه الحركة والجرس ينبعث الإيقاع الموسيقي داخل العبارة القرآنية ».[1]

وكمـــثال عـــلى ذلـــك نـــأخذ سورة القارعة،يقول تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ،مَا الْقَارِعَةُ،وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ،يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ،وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ،فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ،فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ،وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ،فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ،وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ،نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[القارعة:1-11].

فقـــد صدرت السورة بلفظة "القارعة" وهي اسم من أسماء يوم القيامة واللفظة تحمل جرسا قويا مدويـــا ذا ضربات حادة تقرع القلوب والآذان« وفي هذه التسمية ما يلقي صورة القرع واللطم على حين غفلة»[2].

جاء في لسان العرب: قرع الشيء يَقْرَعُه قرعاً : ضربه ، والقارعة من شدائد الدهر وهي الداهية ، ومعـــنى القارعـــة في اللغة النازلة الشديدة تنزل عليهم بأمر عظيم ، ولذلك قيل ليوم القيامة القارعة ، ويقال: قرعتهم قوارع الدهر، أي أصابتهم،ونعوذ بالله من قوارع فلان،ولواذعه،و قوارص لسانه.[3]

---

[1]- الإعجاز الفني في القرآن ، عمر السلامي ، ص247.

[2]- مشاهد القيامة ، سيد قطب، ص66.

[3]- لسان العرب ، ابن منظور ، مادة(ق ر ع)، م3 ، ص65.

هــذا المفهـــوم اللغوي للفظة القارعة يزداد هوله وقوته من الصيغة الفنية للتعبير ، فلقد كرر لفظ القارعة ثلاث مرات في صور مختلفة: القارعة ، ما القارعة؟ ، وما أدراك ما القارعة؟

يقـــول سيد قطب معلقا على هذا المطلع : « لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة ، القارعة ، بـــلا خـــبر ولا صفة ، لتلقي بظلها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب ! ثم أعقبها سؤال التهويل ، ما القارعة ؟ فهي الآمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل ، ثم أجاب بسؤال التجهيل : وما أدراك ما القارعة ؟ فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك وأن يلم بها التصور ثم الإجابة بما يكون فيها لا بماهيتها ، فماهيتها فوق الإدراك والتصور».[1]

فاجـــتماع جـــرس اللفظة المدوي مع الصور المتحركة المهولة التي تأتي بعده يحدث إيقاعا يقتحم الـــنفس والحـــس ويربك المخيلة وهي تحاول أن تجد شكلا للصور المتطايرة المتناثرة أمامها ، فالجرس الناشـــئ مـــن لفظة القارعة تعزز بقوة الحركة التي تسود العبارة التالية لها، والتي كانت إجابة لذلك التساؤل الذي بدئت به السورة بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ،وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾[القارعة:4-5]، « هذا هو المشهد الأول للقارعة ، مشهد تطير له ا لقلوب شعاعا ، وترجف منه الأوصال ارتجافا ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباء» .[2]

وقـــد شـــبه حال الناس في هذه الآية بالفراش المبثوث ووجه الشبه الكثرة والانتشار على أرض المحشـــر وهـــو مشهد مألوف معروف ، وشبه الجبال بالعهن " وهو الصوف المصبغ ألوانا لأنها ألوان وبالمـــنفوش مـــنه لتفرق أجزائها "[3]. والتشبيه في الحالتين يتناسق مع جرس اللفظة (القارعة) الذي يوحـــي بـــالقوة والعنف ، فمن هول يوم القارعة أن يخضع الناس، ويحشروا مذعنين وأن تدك الجبال وتصبح رغم ضخامتها، وقوتها كأنها صوف منفوش .

---

(1)- في ظلال القرآن، ، سيد قطب ، م6 ، ص3960.

(2)- المرجع نفسه ، ص3961.

(3)- الكشاف ، الزمخشري ، ج4 ، ص230.

ويستمر الجرس في باقي الصورة ليتناسب مع الجرس الأول المعلن في بدايتها بقوله تعالى:﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ،فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ،وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ،فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ،وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ،نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة:6-11]، فتعرض حال من خفت موازينه بقوله" فأمه هاوية" وما أدراك ما هيه نار حامية" والتعـــبير فيها يتناسق مع جرس اللفظة "القارعة" فقد قال " أمه هاوية" وفي تفسير هذه الآية أورد ابن كـــثير مـــا نصه:« قيل معناه فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم وعبر عنه بأمه يعني دماغه روي هـــذا عـــن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح وقتادة... ، وقيل معناه (فأمه) التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها ».[1]

هذه صورة حال الذي خفت موازينه، فهو هاو برأسه في قعر جهنم، وللفظة جرس مهول وكأننا نســـمع ارتطام رأسه، وقرعه في قعرها ليتناسب كما قلت مع صوت القرع، واللطم والضرب النابع من اللفظة الأولى (القارعة) والفزع المصور بتفتيشه عن مأوى يأويه إذا أخذ المفهوم الثاني يتناسق مع الجـــرس أيضـــا فكأن شدة القرع،والضرب أفزعاه ليختفي من ذلك في أي مأوى ولو كان جهنم ، فالصـــورة مهولة مرعبة« فالنطق بالقارعة يشعر بالضغط على اللسان مرتين في الحنجرة حيث القاف والعـــين ، وتكرار القارعة ثلاث مرات يضاعف الضغط ويصل به إلى ثمان ، ويشير إلى انحباس النفس في هول يوم القارعة وكأن الروح في حال احتضار ، وقد بلغت الحناجر فالقاف ينضغط على اللسان بالحـــنجرة ثم تخفـــف بالراء ، ثم تعاد إلى عمق الحنجرة بالانضغاط، وكذلك شأن الإيقاع في خاتمة الســـورة "فأمه هاوية ، وما أدراك ماهيه نار حامية" فالغنة في "يه" في الكلمات الثلاثة ، والانضغاط على الحنجرة مرتين في."هاوية" بالهاء والتاء المربوطة الموقوف على سكونها، والمسماة عند النحاة بهاء الســـكت ،إذ أصـــل العـــبارة " ما أدراك ما هي" وفي "حامية" بالحاء والتاء المربوطة والموقوف على ســـكونها» [2]، فالجـــرس يتناســـق ابتداء من مطلع السورة وانتهاء بخاتمتها ، وكأن هذا الالتقاء في التناســـق الإيقاعي يوحي بنتيجة الهول الذي بدأت به السورة ، وقد اجتمع صوت الألفاظ وإيقاعها مع الحياة التي تنبض بها عبارات السورة ليشكلا جرسا هو جو الموضوع.

---

(1)- تفسير ابن كثير ، ابن كثير ، م4، ص547.

(2)- الإعجاز الفني في القرآن ، عمر السلامي ، ص249.

كمـــا أن لصـــيغة اللفظة دور في إنشاء جرسها المتناسق مع التركيب من ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يـــس:49]،فقد استعمل في هذه الآية لفظة "يَخَصَّـــمون" بينما نجده قد استعمل اللفظة نفسها بصيغة"يختصمون" في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:44] ، يقول ابن كثير في تفسير "يختصمون" :« أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عنهم معايـــنة عمَّا جرى؛ بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر، وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها » .[1]

ويقـــول أبو السعود في "يَخِصِّمون"« أي يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شيء مـــن مخايلها » [2]، لذلك جاءت "يختصمون" في قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران:44]، للدلالة عـــلى التـــنازع والاخـــتلاف ، وجاءت "يَخِصِّمون" في قوله تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يـــس:49]، للدلالـــة عـــلى مداهمـــة الصيحة لهم وهم في حالة انفعال واضـــطراب شـــديدين ، والجرس الناشئ من كلا الصيغتين يتناسب مع المعنى والسياق فقد فصل في الأولى بـــين الخـــاء والصاد بالتاء أما في الثانية فقد ازداد الجرس عنفا وشدة بترع التاء فاجتمع بذلك الخـــاء وهـــو حـــرف حلقـــي ومن صفاته الاستعلاء بالصاد وهو حرف أسلي ومن صفاته الصفير والاســـتعلاء أيضا ليضاف إليهما الشدة على الصاد، « ولا شك أن الاختلاف الصوتي الإيقاعي بين الصـــيغتين أوجد تفسيرا لغويا نفسيا دقيقا للآيتين الكريمتين ،وفي هذا تأكيد أن« الأصوات بتناغمها تعطي قيما تعبيرية دلالية متنوعة».[3]

وإذ يستقل لفظ واحد بجرسه ،وقوّة تصويره بتشخيص الصورة ،وإظهار جمالية التعبير القرآني ؛فإن روعـــة التعبير قد تظهر أكثر حينما تنتظم الألفاظ في العبارة الواحدة ليتناغم جرسها ويتناسق بشكل

([1])- تفسير ابن كثير ، ابن كثير ، م1، ص356.

([2])- تفسير أبي السعود ، أبي السعود، ج7، ص171.

([3])- التنغيم اللغوي في القرآن الكريم ،سمير العزّاوي، ص105.

عجيـــب حـــتى تبدو وكأنها قطعة موسيقية يمارس فيها القارئ دور العازف؛ إذ تتمثل أمامه حروف الألفاظ كمضارب الآلة الموسيقية فيصدر عنها جرس موسيقي يتناسب والجو المراد تصويره؛هذا الأمر يظهـــر بشكل جلي فيْ آيات البعث والحشر ،من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[لقمان:33].

فلاحـــظ العبارة:< لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده > كيف انتظمت ألفاظها ،وتـــناغم جرس كل لفظة مع اللفظة التي تجاورها ،ليصدر عن العبارة جرس موسيقي رائع ناشئ عن تكرار الألفاظ " يجزي- لا يجزي "و" ولده- مولوده "و "والد- والده " ؟فلو جرّبنا وحذفنا لفظة أو عوّضـــناها بمرادف لها لانهد نظام العبارة، وذهب ماؤها ورونقها، ولثقل جرسها فمجّته الآذان، ولما استساغته الأذواق ،وتكرار الحروف والألفاظ كما نراه طبيعي خال من التكلف، ولو كان غير ذلك لأحسســـنا به ونحن نقرأ العبارة، وهو يساير مقتضيات التعبير الفني الذي يستلزمه الغرض والسياق ، يقـــول الزمخشـــري عن السر في التعبير بـــ (مولود) في هذه العبارة :« والسبب في مجيئه على هذا الســـنن أن الخطـــاب للمؤمنين وغالبيتهم قبض آباءهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي فأريد حسم أطمـــاعهم، وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباؤهم في الآخرة، وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم .من الله شـــيئا لذلك جيء به على الطريق الآكد، ومعنى التوكيد في لفظ المولود أن الواحد منهم لو شفع لـــلأب الأدنى الـــذي ولد منه لم تقبل شفاعته ، فضلا أن يشفع لمن فوقه من أجداده، لأن الولد يقع على الوالد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك» .[1]

هـــذا الاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي يعتبر مظهرا من مظاهر الإعجاز في الجملة القرآنية كما ذهـــب إلى ذلـــك الـــبوطي بقوله« لا بد أن تجد الجملة القرآنية مؤلفة من كلمات وحروف ذات أصـــوات ، يســـتريح.لتآلفها السمع، والصوت، والنطق، ويتكون من اجتماعها الشكل الذي رتبت علـــيه ، نسق جميل ينطوي على إيقاع خفي رائع ، ما كان ليتم لو نقصت الجملة كلمة أو حرفا أو اختلف ترتيبها ما بينها بشكل من الأشكال» .[2]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1)- الكشاف ، الزمخشري ، ج3 ، ص217.

(2)- من روائع القرآن ، البوطي ، ص144.

ثم تـــأمل تناســـق الكـــلمات في كل جملة منها، ثم دقق نظرك وتأمل تآلف الحروف المجهورة مع الـــرخوة ،مع الشديدة،وتأمل المدود واجتماعها مع بعضها؛ فإنك إذا تأملت في ذلك علمت أن هذه الجمـــل القرآنـــية إنما صُبت من الكلمات، والحروف، والحركات في مقدار وأن ذلك إنما قدر تقديرا بعـــلم اللطـــيف العزيز الخبير مما لا تقوى طاقة البشر عليه فلا تناله مقاييسهم ولا تضبطه قوالبه مهما اجتهدوا.

وفي الآيـــتين المواليـــتين تناســـق فني رائع بين جرس الألفاظ في العبارة الواحدة، وبين الجو العام للســـياق وذلـــك عـــندما يصـــور القرآن مشهدا مهما من مشاهد يوم القيامة عند الحشر، وانتشار الصـــحف، فمـــنهم مـــن ينال كتابه بيمينه فيقول: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ،إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ﴾[الحاقة:19-20]، ومنهم من ينال كتابه بشماله فيقـــــول: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ،وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ﴾[الحاقة25-26]، فالآيـــتان تـــنقلان صورتين مختلفتين الأولى تنقل صورة شخص فرح مسرور وتصور ما هو عليه من سعادة ورضى، والأخرى تنقل صورة شخص نادم مكروب، وتصور ما هو عليه من تعاسة وخيبة ، والقـــارئ وهو يقرأ هاتين الآيتين يشعر من خلال جرس ألفاظهما بذلك كله ، بل إنه ليحاول بنفسه أن يرســـم هو بصوته عند قراءته لهما هذا الجو المحيط بهما،« وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعـــال النفســـي،وأن هـــذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت،بما يخرجه فيه مدا أو غنة،أو لينا أو شدّة،وبما يهيء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في الـــنفس من أصولها،ثم هو يحمل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع،والإطناب والبسط،بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز،وبعد المدى ونحوها،مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى» .[1]

وحتى تكون الصورة أوضح يحسن بي أنقل هذا التحليل المخبري لجرس هاتين الآيتين الذي قام به سمـــير العـــزاوي [2]عن طريق جهاز رسم النغمة visi piteh ، وهو جهاز مكون من لوحة أزرار حاســـوبية ، وشاشـــة ، ومكرفون ، وجهاز تسجيل وعند النطق بالجمل نضغط أحد الأزرار فيقوم بتسجيل صورة على الشاشة فيها حزم من النقاط تمثل مواضع ارتكاز النبر ، وتحليل التنغيم (الجرس)

---

(1)- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ،مصطفى صادق الرافعي ،ص163.

(2)- انظر: التنغيم اللغوي في القرآن ، سمير العزاوي، ص172.

، يقوم على الأخذ بالاعتبار النبر الصرفي الذي نجده في أكثر الكلمات ارتفاعا أو انخفاضا ومن ثم يتم تحليل النبر السياقي ليظهر من خلال مسألتين:

1ـ الشدة أو العلو في الصوت 2- التنوع التنغيمي صعودا وهبوطا

انظر الشكلين:

الشكل رقم :1

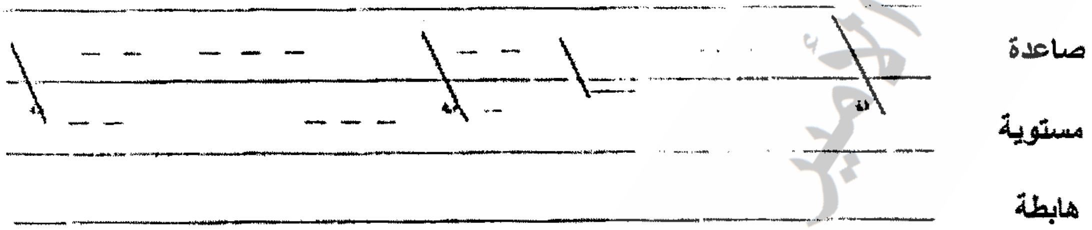

(إظهار الفرح العميق)

تحليل تنغيمي للآية الكريمة:﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَه،إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه﴾

نلاحـــظ مشـــاعر الرجل الذي أوتي كتابه بيمينه تهيج نتيجة لتلك السعادة الغامرة التي عمته، وقد ارتسم ذلك من خلال تلك التموجات الصاعدة بجرس الألفاظ.

الشكل رقم:2

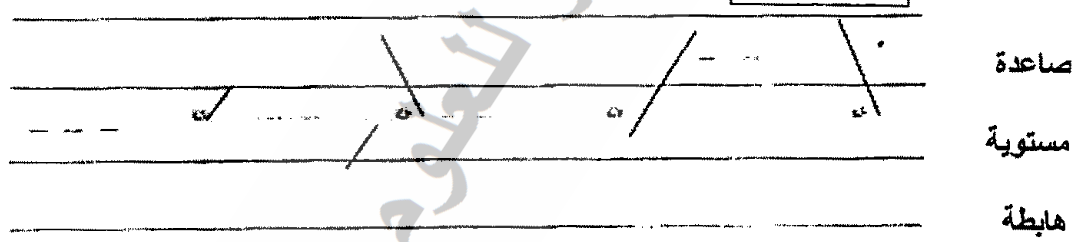

(إظهار الحزن العميق)

تحليل تنغيمي للآية الكريمة:﴿يا ليتني لم أوت كتابيه , ولم أدر ما حسابيه﴾

الـــرجل الذي أوتي كتابه بشماله وهو يشعر بالأسف والحزن العميق تتراءى حاله نادما على ما مضى من حـــياته، وجو الحزن ظاهر من خلال ذلك السكون والهدوء في جرس الألفاظ والقارئ يشعر بذلك التأوه والتوجع النابع من جرس الألفاظ .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعلـــيه يمكـــن لنا أن نقول أن القرآن قد بلغ في تصرّفه الصوتي ،وفي آدائه الموسيقي حد الإعجاز وإنمـــا حـــاز على هذا «من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الإعجاز، من الصوت في الحرف ، إلى الحـــرف في الكلمة ، إلى الكلمة في الجملة ، حتى يكون الأمر مقدرا على تركيب الحواس النفسية في الإنســـان تقديرا يطابق وضعها وقواها وتصرفها ، وذلك إيجاد خلقي لا قِبل للناس به و لم يتهيأ إلا في هـــذه العربـــية عن طريق المعجزة التي لا تكون معجزة حتى تخرق العادة ، وتفوت المألوف ، وتعجز الطـــوق ، وإنمـــا امتنع أن يكون في مقدور الخلق ، لأنه تفصيل الحروف على النحو الذي يأخذه فيه تركيـــب الحياة ، من تناسب الأجزاء في الدقيق والجليل ، وقيام بعضها ببعض لا يغني منها شيء عن شيء ، في أصل التركيب وحكمته ولا يرد غيرها مردها ولا يأتلف ائتلافها ولا يجرى فيها ، إلى نحو ذلـــك مما أجرى الله عليه نشأ الخلق وبعث الحياة ، ثم اشتمالها على سر التركيب المكنون الذي جعل الـــبلغاء مـــنها بمنزلـــة الأطباء في سعة العلم بتركيب الأجسام الحية من الخلية فما فوقها ، دون العلم بالوجه الذي يمكن به التركيب ، على أنهم لا يفوتهم شيء من دقائقه ولا يعزب عنهم مثقال ذرة من مادتـــه ، وهـــي بعد مبذولة لهم يقلبونها ويستوضحونها ويزدادون بها على الدهر خبره ، ثم ينصرفون عنها وهم في العلم غير من كانوا وهي لا تزال عندهم على ما كانت !».[1]

ثانيـــــا : التناســـــق في جزئيـــــات المشهـــــــد:

1-المقابلـــــــــــــة:

لقـــد عـــدّ سيد قطب المقابلة لونا من ألوان التناسق الفني في القرآن الكريم بقوله: « وهناك تلـــك المقابلات الدقيقة بين الصور التي ترسمها التعبيرات -والتقابل طريقة من طرق التصوير وطريقة مـــن طرق التلحين- والتعبير القرآني يكثر من استخدامها في تنسيق صوره التي يرسمها بالألفاظ على نحو دقيق » .[2]

والمقابلة كما يعرفها الزركشي في البرهان هي:« ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضـــها ،وهـــي مـــن باب المفاعلة كالمقابلة والمضاربة،وهي قريبة من الطباق؛والفرق بينهما من وجهتين:

---

[1]- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، ص168.

[2]- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص82.

الأول:أن الطباق لا يكُون إلا بين الضدين غالبا ، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك.

والثاني: لا يكون الطباق إلا بالأضداد ، والمقابلة بالأضداد وغيرها» .[1]

ويعتـــبر« التقابل من أبرز أساليب نظم المعاني وأوضح مظاهر التناسب في القرآن،ومعلوم أن التقابل مـــن طرق البيان التي تجد فيها المعاني معرضا للوضوح،والجمال،والتي تجد فيها النفوس لذة وسرورا»[2]، كمـــا أن المقابلـــة طريقة من طرق التصوير الفني في القرآن الكريم استخدمها لتنسيق صوره التي يـــرسمها بالألفـــاظ، وقـــد أكثر القرآن في نظمه من استخدام هذا المبدأ وجعله أداة فنية للبيان أولا، وللـــتأثير في النفوس ثانيا ، حيث أن للنفوس ولعا شديدا بهذا الأسلوب الذي يراعي فيه التناسب بين الألفاظ المتقابلة ، وما يزال الناس يلتمسونه في مخاطباتهم لما فيه من اللذة والإثارة .

هـــذه المقابلـــة تطّرد بشكل كبير في مشاهد البعث والحشر، حينما ترتسم صورة المتقين وصورة العصـــاة أو صـــورة المؤمنين وصورة الكافرين لحظة بعثهم ولحظة حشرهم وعند الميزان ، ومن تلك المشـــاهد قوـــله تعالى :﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ،وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:106-107].

يـــتألف هذا المشهد من صورتين متقابلتين ، صورة التقاة وصورة العصاة وهو مشهد مهول مرعب ترتسم فيه وجوه مسودة ووجوه مبيضة ، والهول باد من هذه المقدمة السريعة الملقاة في عنف ، فنحن في مشـــهد الهول؛هول لا يتمثل في ألفاظ ولا في أوصاف ، ولكن يتمثل في آدميين أحياء ، في وجوه وسمـــات ، هـــذه وجـــوه قد أشرقت بالنور ، وفاضت بالبشر فابيضَّت من البشر والبشاشة ، وهذه وجـــوه كمدت من الحزن واغبرت من الغم ، واسودت من الكآبة وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه ولكن اللذع والتبكيت والتأنيب "أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.[3]

وقـــد أتى التعبير القرآني في هذه المقابلة بجميع المقابلات ثم بجميع الثواني مرتبة من آخرها ، وهذا أحد الأنماط التي تأتي عليها المقابلة،ويسمى رد العجز على الصدر [4] ، إذ أنه أجمل القول بقوله:"يوم

---

(1)- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي ، م3 ، ص458.

(2)- التناسب البياني في القرآن ، أحمد أبو زيد ، ص129.

(3)- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م1 ، ص445.

(4)- هذه إحدى أقسام المقابلة التي ذكرها الزركشي انظر بقية الأقسام في البرهان، م3 ، ص461.

تبـيض وجوه، وتسود وجوه" ثم فصّل ذلك الإجمال بقوله:﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ،وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾والمقابلة في هذا المشهد، وفي غيره من مشاهد البعث والحشر جاءت بتلقائية وعفوية ؛إذ أن الصورة الأولى مـــنه تمهـــد للصـــورة المقابلة،فالقارئ يكاد يتوقع الصورة المقابلة وإن يكن عالما بها؛ ذلك أنه بمجرد أن « تقرع السمع أو ترتسم في الذهن صورة من تلك الصور القرآنية ؛إلا وتوقعت الآذان أن تسمع ، والأذهان أن تتلقى تلك الصورة المقابلة المتوقعة واتجهت البصائر والأبصار معا إلى الصورتين المتقابلتين تتملاها، و لم يلبث أن يتجلى الفرق واضحا بين الصورتين، وبضدها تتميز الأشياء». [1]

والمقابلة في هذا المشهد ترتسم على الشكل التالي:

يوم تبيض وجوه ــــــــــــــــــ وتسود وجوه

فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم... ــــــــــ وأما الذي ابيضت وجوههم ففي رحمة...

والملاحــظ في هــذه المقابلة أنه « قدّم عند وصف اليوم ذكر البياض، الذي هو شعار أهل النعيم تشـــريفا لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله، ونعمته، ولأن رحمة الله سبقت غضبه ، ولأن في ذكر سمـــة أهل النعيم ، عقب وعيد غيرهم بالعذاب حسرة عليهم إذ يعلم السامع أنّ لهم عذابا عظيما في يوم فيه نعيم عظيم ، ثم قدّم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلا بمساءتهم» . [2]

وقريـــب مـــن هذا قوله تعالى:﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ،وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الزمر:60-61].

ففي هذا المشهد أيضا ترتسم صورتان؛ الأولى صورة العصاة الذين كذبوا على الله، وقد اسودت وجوههـــم، والأخـــرى صورة التقاة، وقد أذهب الله عنهم الحزن وأبدلهم بدل الخوف والفزع راحة وأمـــنا ، والمقابلـــة هنا لم تكن ضدية صريحة كالمقابلة السابقة حينما قال :﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمـــران:106]، بل إنه حينما وصف وجوه العصاة بالسواد ذكر في مقابل ذلك نفي

[1]- النقد الأدبي ، شفيع السيد ، ص66.

[2]- التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، ج4 ، ص44.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحـــزن عـــن التقاة بقوله: "ولا هم يحزنون" وفي نفي الحزن نفي للسواد أيضا فإذا كان سواد الوجه علامة على الهم والغم والحزي والرهق الذي قد ركب العصاة؛ فإن بياض الوجه أكيد سيكون علامة للراحة والطمأنينة المفهومة من قوله"ولا هم يحزنون".

وفي المشـــهد المـــواليْ مقابلة لطيفة في قوله تعالى :﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ،إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ،وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ،تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾[القيامة:22-25]، حيث ترقي المقابلة هنا من مقابلة الصور والمعاني إلى مقابلة الحروف ومقابلة الإيقاع،وتتناسق كلهافي مشهد بديع :

- وجوه يومئذ ناضرة ـــــــــــــــــــــــــ ووجوه يومئذ باسرة
- إلى ربها ناظرة ـــــــــــــــــــــــــ تظن أن يفعل بها فاقرة ،

فالمشـــهد ينقل لنا صورتين متقابلتين.الأولى صورة التقاة أهل السعادة وقد فاض الفرح من قلوبهم وارتســـم على ملامحهم فتبدوا على وجوههم النضارة، والوضاءة كيف لا وهم على موعد مع ربهم للقائـــه والـــنظر إلـــيه؟ ، فسعادتهم لا توصف. « إن روح الإنسان لتستمتع أحيانا بلمحة من جمال الإبـــداع الإلهـــي في الكون أو النفس ، تراها في الليلة القمراء، أو الليل الساجي، أو الفجر الوليد أو الـــبحر العـــباب أو الصحراء المنسابة ... إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود، فتغمرها النشوة ، وتفـــيض بالسعادة، وترف بأجنحة من نور في عوالم بجنحة طليقة ، وتتوارى عنها أشواك الحياة ، وما فيها من ألم وكبح ، وثقلة طين، وعرامة لحم ودم ، وصراع شهوات وأهواء. فكيف؟ كيف بها وهي تنظر ، لا إلى جمال صنع الله ، ولكن إلى جمال ذات الله ؟

ألا أنـــه مقـــام يحتاج أولا إلى مد من الله ، ويحتاج ثانيا إلى تثبيت من الله ليملك الإنسان نفسه ، فيثبت ويستمتع بالسعادة التي لا يحيط بها وصف ولا يتصور حقيقتها الإدراك» .[1]

وقـــد وصـــف التعبير القرآني وجوه هؤلاء بالنضارة بقوله "ناضرة" [2]. ولو بحثنا في معاجم اللغة كـــلها لما وجدنا لفظة يمكنها أن تؤدي وظيفة هذه اللفظة، ويمكنها أن تنقل إلينا تلك الصورة الرائعة الـــتي يكـــون عليها هؤلاء ، أما الصورة الأخرى فهي صورة العصاة «وهي الوجوه الكالحة المنقبضة التعيســـة ، المحجوبة عن النظر والتطلع ، بخطاياها، وارتكاسها وكثافتها وانطماسها وهي التي يشغلها

---

[1]- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م6 ، ص3770.

[2]- انظر للمعنى اللغوي للفظة في الفصل الأول من هذه المذكرة، ص62.

ويخلـــع عليها البسر والكلوحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظهر ، المحطمة للفقار » [1]، وقد وصـــف التعـــبير القرآني وجوه هؤلاء بأنها باسرة والبسر لغة هو العبوس والتقطيب . جاء في لسان العرب حول هذه المادة : "والبسْرُ: القهر ، وبَسَرَ يَبْسُرُ بَسْرًا وبُسُورًا :عَبَسَ ، ووجه بَسْر باسر ، قال أبو إسحاق : بَسَرَ أي نظر بكراهة شديدة ، وبسر الرجل وجهه بُسُورًا أي كلح ".[2]

ومـــن المقـــابلات التي تصور حالة الناس لحظة بعثهم قوله تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ،ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ،وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ،تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ،أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:38-42].

حيـــث يتألف هذا المشهد من صورتين متقابلتين؛ فثمة خلق سعيد قد أشعت السعادة، والنور من وجوههـــم يـــتألقون بالفـــرح والبشر، والقلوب مطمئنة تستشعر الرضى والأمان، وتستبشر المغفرة وحســـن الجـــزاء ، وثمـــة خلق آخر قد رهقه الخوف والرعب من ذلك المآل المؤلم، قد بدت على وجوههـــم التعاسة وعلتها غبرة الحزن والشقاء على ما هم فيه من ندم وحسرة « وانظر إلى الألفاظ الـــتي وشت بظلال المعاني وساهمت في تلوين اللوحة وتشكيلها ، فالوجوه مسفرة :فمفردة مسفرة ، تشـــع بالـــنور والضياء والتلألؤ، وهي صفة تلازم الصبح،وتخيل الوجوه تعكس جمال الصباح الندى بـــنوره الفجري البهيج.وانظر إلى مفردة :غبرة وقترة التي تصف وجوه الكافرين ، :لترى وجه التقابل في اللوحـــة ، فهـــنا ظلال معتمة تطمس الوجوه وتشوقها ، فتبدوا قبيحة قميئة منفردة .ثم للنظر إلى الـــتقابل الجمـــيل الـــذي يوضح الدلالة ويكشف الحالة :فضاحكة مستبشرة" تصف حال المؤمنين المطمئـــنين ، المستبشرين ، فرح وسعادة ، وألق ، وانطلاق وأمل وحياة طيبة ،و"ترهقها قترة" تصف حـــال الكفرة الفجرة ، وتصف قوة الهول النفسي الذي يقبض على النفوس ، وتعكس الوجوه ذلك الهول انقباضا وحزنا وألما شديدا .لقد ارتسمت ملامح وسمات الوجوه بين هؤلاء وهؤلاء من خلال الألفاظ الدالة ، مما تبدى فيه الوجوه في مساحة اللوحة كأنها شاخصة مشخصة». [3]

ومـــن مشاهد الحشر التي تتقابل فيها صور العصاة مع صور المتقين قوله تعالى :﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا،وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[مريم:85-86] ، فبعد أن تتقلب موازين

---

[1]- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م6 ، ص3772.

[2]- لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (ب س ر) ، م1 ، ص211.

[3]- من جماليات التصوير في القرآن ، محمد قطب ، ص141.

الكـــون، وتمر بالناس أهوال عظيمة تدع الحليم حيرانا، وتبدوا الخلائق كالسكارى وماهم بسكارى وتقنع الرؤوس، وتخشع الأبصار، ويستجيبون مذعنين لداعي الرحمان، وتبدوا الأرض قاعا صفصفا لا عـــوج فـــيه ولا أمتا؛ تجمع الخلائق في المحشر حينها ترتسم صورة العصاة وصورة التقاة لتتقابل بهذا الشكل:

ونحشـــــر ــــــــــــــــ ونسوق

المتقيـــــن ــــــــــــــــ المجرمين

إلى الرحمـــان ــــــــــــــــ إلى جهنم

وفــــــدا ــــــــــــــــ وردا

والصور في هذا المشهد تتقابل بشكل دقيق إذ كل لفظة في الصورة الأولى لها ما يطابقها في الصورة الثانـــية؛ فالمؤمنون مجموعون وفدا ووجهتهم الرحمان، وأما المجرمون فيساقون سوق القطيع ووجهتهم جهـــنم وساءت مصيرا، وقد « ذكر المتقون بلفظ التبجيل وهم أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمـــته، وخصـــهم برضوانه وكرامته كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم، وذكر الكافــرون بـــأنهم يســـاقون إلى النار بإهانة، واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء ، والورد العطاش لأن من يريد الماء لا يرده إلا لعطش وحقيقة الورد السير إلى الماء فسمى به الواردون ». [1]

إن المـــتأمل لهـــذا التعبير ليروعه ما يتكشف له من دقة في انتقاء الألفاظ المشكلة للعبارة فتتقابل في المعنى وتتناظر في الحروف ، فإذا كتبنا العبارتين كتابة عروضية وجدناهما متساويتين في عدد الحروف المشـــكلة لألفاظهما؛ إذ كلا العبارتين تتركبان من خمس وعشرين حرفا، وكلاهما يتكون من خمسة ألفاظ كل لفظة تعادل التي تقابلها في عدد حروفها.

هـــذه الدقـــة في اســـتعمال الألفاظ لا يمكن أن تتأتى إلا للقرآن حيث تسموا المعاني وتسموا معها الألفـــاظ أيضـــا، أما عند البشر فربما«عجزت اللغة عن اللحاق بالصورة المحلقة التي يريد المتكلم أو الكاتـــب أن يبـــثها في خيال السامع فاضطر أن يترل عن بساطة خياله المحلق لحاقا بكلمة تقف دون الصـــورة الـــتي يريدها لا يجد في اللغة سواها فيفسد بها الصورة كلها ، غير أن القرآن لا يعجزه أن تكـــون الكلمة دائما في مستوى المعنى المراد على أدق وجه ، فهو يصعد باللغة إلى المعنى أو الصورة المطلوبة ، ولا يترل بالمعنى أو الصورة إليها في حال من الأحوال» .[2]

[1]- الكشاف ، الزمخشري ، ج2 ، ص423.

[2]- من روائع القرآن ، البوطي ، ص142.

وقريـــب من هذا المشهد مشهد آخر ينقل لنا صورة من صور الحشر نجده في سورة الزمر في قوله تعـــالى:﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ،قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ،وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ،وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾[الزمر: 71-74].

فالمشـــهد حـــافل بالصور المتقابلة وهو مشهد بارز وواضح منسق الخطوات ، متقابل الجزئيات ، ترتســـم فـــيه صورة صنفين من الناس ، الصنف الأول هم الكفرة المجرمون الذين يساقون إلى جهنم جماعـــات جماعات، كما يساق القطيع، حيث تفتح أبواب جهنم لتستقبلهم بنارها وآوارها بعد أن حُمِّلـــوا مـــن التبكيت واللوم والخزي الكثير ، أما الصنف الآخر فهم المؤمنون التقاة الذين يأتون إلى ربهم جماعات جماعات والفرح يغمرهم حتى إذا ما وصلوا إلى الجنة استقبلوا بالبشر والترحاب وبكل تـــودد ومحـــبة. وكما قلت تتقابل جزئيات المشهد بشكل دقيق وبتناسق في رائع تتوحد فيها المعاني والألفاظ على الشكل الآتي:

- وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ـــــــــــ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا
- حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ـــــــــــ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها
- وقال لهم خزنتها ألم ياتكم رسل منكم ـــــــ وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم
- ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ـــــــــــ فادخلوها خالدين

فبئس مثوى المتكبرين ـــــــــــ فنعم أجر العاملين .

فالفـــريقان يســـاقان ولكن شتان ما بين سوق الفريق الأول وبين سوق الفريق الثاني ، وإن استعمل اللفـــظ نفسه(سيق)إلا أن وروده جاء مصحوبا بدلالة مغايرة ففي الأول :يعني الطرد والهوان والذلة ، وفي الآخر يعني التكريم والترحيب.

قـــال الزمخشـــري:« المـــراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخـــارجين عـــلى السّـــلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل والمراد بسوق الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهـــب بهم إلا راكبين وحثا إسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بما يشرف ويكرم من الوافدين على بعض والملوك فشتان ما بين السوقين» .[1]

ثم تـــأمل السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة وذكره في آية أهل النار ؟ يقول ابن القيم مبينا ذلك :« هذا أبلغ في الموضعين فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم فيفجؤهم العذاب بغتة، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة ، فإن هذا شأن الجـــزاء المرتب على الشرط أن يكون عقيبه ، والنار دار الإهانة والخزي فلم يستأذن لهم في دخولها، ويطلـــب إلى خزنـــتها أن يمكنوهم من الدخول ، وأما الجنة فإنها دار الله ودار كرامته ومحل خواصه وأولـــيائه فـــإذا انـــتهوا إلـــيها صـــادفوا أبوابها مغلقة ، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتتحها ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضـــلهم ، فـــيقول (أنا لها) فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجدا لربه فيدعه ربه ساجدا ما شاء أن يدعـــه، ثم يـــأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته فيشفع إليه ﷺ، في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظـــيما لخاطره،وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة ، وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك » .[2]

والفريقان يساقان زمرا لكن شتان مابين الصورتين،فالمتقون فرحون باجتماعهم بإخوانهم ،وسيرهم معهـــم كـــل زمرة على حدة،مستبشرون بما سيلقون ،كما كانوا في الدنيا متعاونين على الخير يؤازر بعضـــهم بعضا،ويشد بعضهم بعضا يثبّت الواحد منهم الآخر ويؤنسه،أما المجرمون فاجتماعهم يكون سخطا وغما يتأذى بعضهم من بعض ،وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدا واحدا.

وتـــأمل قول خزنة الجنة لأهلها"ادخلوها" وقول خزنة النار لأهلها "ادخلوا أبواب جهنّم "،تجد تحته ســـرا لطيفا ومعنى بديعا لايخفى على المتأمل وهو أنه لما كانت النار دار العقوبة ،وأبوابها أفظع شيء وأشـــدّ ه حـــرا،وأعظم غما يستقبل الداخل فيها من العذاب ماهو أشد منها ويدنو من الغم والخزي والحـــزن والكرب بدخول الأبواب،فقيل "ادخلوا أبواب جهنّم "صغارا لهم وإذلالا،وخزيا ثم قيل لهم

---

[1]-الكشاف ، الزمخشري ، ج3 ، ص358.

[2]- التفسير القيم ، ابن القيم ، ص460.

:لا يقتصـــر بكم العذاب على مجرّد دخول الأبواب الفظيعة ،ولكن وراءها الخلود في النار،وأما الجنة :فهـــي دار الكـــرامة،والمترل الـــذي أعدّه الله لأوليائه؛ فبشّروا من أول وهلة بالدخول إلى الأرائك والمنازل والخلود فيها.[1]

كما تظهر الصور المتقابلة في المشاهد التي ترتسم فيها حالة الناس حينما تنشر الصحائف ويتلقفونها بأيديهم فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه ومنهم من يؤتيه بشماله أو غير ذلك.

قـــال تعـــالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ،وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: 71-72].

فالمشـــهد يتألف من مقابلتين المقابلة الأولى بين قوله تعالى "فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كـــتابهم" وبين قوله تعالى "ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا" وهي مقابلة لطـــيفة تحـــتاج إلى نظـــر وتبصـــر ، فالمشهد ينقل لنا صورة لتلك الطوائف والأمم حينما تستدعى للحســـاب فينقسمون فريقين « فمن أوتي كتابه بيمينه فسيقرأ هذا الكتاب ، ومن أوتي كتابه بشماله فهـــو أعمـــى كما كان في الدنيا أعمى ، هو ضال في الآخرة ، كما كان ضالا في الدنيا ، والعمي يذكر هنا في مقابل القراءة وهي تستلزم البصر وهي هداية في مقابل الضلال أيضا ».[2]

والإتـــيان باســـم الإشارة بعد فاء جواب (أما) للتنبيه على أنهم دون غيرهم يقرءون كتابهم لأن في اطلاعهـــم على ما فيه من فعل الخير والجزاء عليه مسرة لهم ونعيما يتذكر ومعرفة ثوابه ، وذلك شأن كل صحيفة تشتمل على ما يسر، وعلى تذكر الأعمال الصالحة كما يطالع المرء أخبار سلامة أحبائه وأصـــدقائه ورفاهـــة حالهم ، فتوفر الرغبة في قراءة أمثال الكتب شنشنة معروفة ، وأما الفريق الآخر فسكت عن قراءة كتابهم هنا .[3]

أمـــا المقابلـــة الأخـــرى فهي في قوله تعالى "ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل ســـبيلا" ، فإذا كانت المقابلة الأولى قد تمت بين صورتين حاضرتين ، فإن هذه المقابلة تتم بين صورة حاضـــرة الآن، والأخرى ماضية في الزمان ،الأولى هي صورته في الدنيا وقد عمي عن آيات الله و لم

---

(1)- المرجع نفسه ،ص461.

(2)- مشاهد القيامة ، سيد قطب ، ص123.

(3)- التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، ج15 ، ص170.

يتبعها، والأخرى صورته في الآخرة لحظة الحشر وقد ذهب بصره فصار يتخبط لا يجد من يهديه، ولا من يهتدي به، وهذه المقابلة أحسبها ألطف المقابلات لأنها ستثير الخيال لتشركه في رسم الصورة فيحلق باحثا عن الصورتين ليجمع بينهما ويعيش معهما متأملا متدبرا.

ومن المقابلات في آيات الحشر قوله تعالى :﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ،إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ،فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ،فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ،قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ،كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ،وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ،وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ،يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ،مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ،هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[الحاقة:19-29] ، فالمشهد يتألف من صورتين متقابلتين الصورة الأولى صورة التقي الفائز، وقد تلقى كتابه بيمينه والأخرى صورة العاصي الشقي وقد تلقى كتابه بشماله ، والمقابلة تتشكل على النحو الآتي:

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ـــــــــــــــــ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ

فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ... ـــــــ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ...

فالأول لا تكاد المساحة تسعه من الفرح والسرور والزهو، ويعود مفتخرا مباه بما وجده في كتابه ، أما الآخر فالحسرة قد علته، والندامة غطته؛ فها هو يتخفى من الآخرين لا يدري كيف يتخلص من هذا الكتاب الذي يفضحه، فهو لم يحسب له حساب، وجرس الألفاظ يشير بتوجعه وتأله وندمه.

وإيتاء الكتاب باليمين علامة على أنه إيتاء تكريم وعناية وتشريف فالعرب يذكرون التناول باليمين كناية عن الاهتمام بالمأخوذ والاعتزاز به قال تعالى :﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾[الحاقة:45]، وقال : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ،فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾[الواقعة:27-28]، وأما أهل الشقاوة فيؤتون كتبهم بشمائلهم وتطيُّر العرب بالشمائل معروف أيضا قال تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ،﴾ [الواقعة:41-42].

وقريب من هذه المقابلة قوله تعالى في سورة الانشقاق: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ،فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا،وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا،وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ،فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا،وَيَصْلَى سَعِيرًا،إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا،إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ،بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾[الانشقاق:7-15].

فالصـــورتان الأولـــتان المتقابلتان في هذا المشهد هما صورتا التقي والعاصي حالما يتسلم كل منهما كتابه حينما يرجعان إلى ربهما:

وأما من أوتي كتابه بيمينه ـــــ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره

فسوف يحاسب حسابا يسيرا ـــــ فسوف يدعوا ثبورا

وينقلب إلى أهله مسرورا ـــــ إنه كان في أهله مسرورا

فالتقي السعيد يؤتي كتابه بيمينه وقد جعل إيتاءه كتابه بيمينه كما سبق وأن أشرت شعارا لما هو عليه مـــن السعادة؛ ذلك أنه اشتهر أن اليد اليمنى تناول الأشياء الزكية وهذا نشأ عن كون البشر يعتبرون أن الجانـــب الأيمن من الجسد أقدر وأبدر للفعل حتى صاروا يعتقدون أن البركة منوطة بالجانب الأيمن فسموا السعادة والبركة يمنا ووسموا ضدها بالشؤم.

وأما العاصي الشقي فإنه سيؤتى كتابه من وراء ظهره وهي صورة كما نرى جديدة صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر،فالمألوف في تعبيرات القرآن هو مقابلة اليمين بالشمال«وليس يمتنع أن يكون الذي يعطى كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره، فهي هيئة الكاره الخزيان من المواجهة». [1]

وقد قيل:«تغل يمناه إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره وقيل تخلع يده اليسرى من وراء ظهره ».[2]

وبعـــيدا عـــن حقـــيقة إعطاء الكتاب باليمين، وشكل ذلك ،وحقيقة إعطاء الكتاب وراء الظهر، وكيفـــية ذلـــك؛ نحن نخلص إلى حقيقة هي المرادة من هذين التعبير هي حقيقة النجاة والسعادة من الصورة الأولى،وحقيقة الهلاك والخزي من الصورة الثانية .

والتقي سوف يحاسب حسابا يسيرا ثو لا يلبث أن ينقلب إلى أهله فرحا مسرورا لأنه لا يناقش ولا يجـــد ما يكره أو يسوءه أو يشق عليه كما يناقش أصحاب الشمال ، فقد روى البخاري عن عائشة

(1)- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م6 ، ص3867.

(2)ـــ الكشاف ، الزمخشري ، ج4 ، ص198.

ﷺ أن الـــنبي ﷺ قال : « من حوسب عُذّبَ » قالت عائشة :فقلت : أو ليس يقول الله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشـــقاق:8]،قالت : فقال :«إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحســـاب يهلك » [1]، وأما العاصي الشقي فإنه حينما يواجه بالحقيقة التي كان غافلا عنها في الدنيا يعـــش لحظـــات من التعاسة التي ما بعدها تعاسة فيتوجع ويتألم وينادي الهلاك والويل ويزداد شقاؤه شـــقاءا حينما يترك في ساحة العرض وحيدا ليواجهه هذا المصير المؤلم منفردا فلا أهل له ثمة يخففون عنه ، بينما يعيش التقي كما سبق لحظات من السعادة مع أهله وأحبائه فرحا بما لاقى.

أما المقابلة الثانية في هذا المشهد فهي في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا،وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشـــقاق:11-13]، وهي مقابلة بين صورتين الأولى حاضرة والأخرى ماضية ، الصورة الأولى صورته وهو لحظة الحساب متألما متوجعا مولولا،وصورته الأخرى وهو في الدنيا غافلا عن الآخرة بين أهله مسرورا مترفا بطرا لاهيا عما ينتظره .

كما تكثر المقابلة في المشاهد التي تصور لحظة وزن الأعمال حيث ينقسم الناس إلى فريقين ، فريق قد ثقلت موازينه فنجا، وفريق آخر خفت موازينه فهلك.

يقول تعالى:﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ﴾[الأعراف:8-9].

ففـــي هذا المشهد صورتان متقابلتان الأولى صورة ذلك الذي قد ثقلت أعماله في ميزان الله، الذي يؤمـــن بالله وجزاؤه الفلاح، وأي فلاح أعظم من أن يكون في منجى من النار؟ ، بل وأكثر من ذلك ســـينال الجنة ، وأما الأخرى فصورة ذلك الذي جاء بأعمال زهيدة فخفت في ميزانه، وقصرت دون تبلـــيغه مرضاة الله فخسر، وأي خسارة أعظم من أن يخسر نفسه فيرمى بها في جهنم وأن يحرمها نعيم الجنة؟.

يقـــول تعالى أيضا:﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ،وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ

[1]- صحيح البخاري ، البخاري ، كتاب العلم، حديث رقم103 ، ص23.

كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:26-27].

يتألف هذا المشهد كذلك من صورتين متقابلتين، صورة التقاة الذين أحسنوا العمل في الدنيا فكان الجـــزاء من جنس العمل بأن نالوا الجزاء الحسن في الآخرة على ما قدموا بل وزيادة عليه فضل من الله ومنة وهم مع كل ذلك ناجون من الكرب العظيم الذي يلقاه غيرهم يوم القيامة فلا يرهقهم قتر ولا ذلـــة ، وصـــورة العصاة الذين أساءوا العمل في الدنيا فكانت الإساءة مصيرهم في الآخرة ومعها ذلة وهـــو أن يغشـــاهم ويعمهم وهم عرضة لكل الأهوال التي تكون في ذلك اليوم فلا عاصم ليحميهم ويمـــنعهم مـــنها، ويمضي السياق في رسم كآبتهم وحسرتهم بتصوير حالتهم بقوله " كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا".

وفي المشـــهد المـــوالي مقابلة لطيفة وذلك في قوله تعالى:﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ،لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ،وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النـــــور:37-40].

ففي المشهد صورتان متقابلتان سرعان ما يدركها الخيال فيستمتع برسمهما ، إنهما صورتا الأتقياء والعصـــاة ، فالأتقياء الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وخافوا من ذلك اليوم الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب وأملوا في الجزاء الأوفى فلن يخيب لهم رجاء إذ يلقاهم الله برحمته ويزيدهم من فضله الذي لا تحده حدود والسياق يصورهم وهم مطمئنون مـــرتاحون وقـــد علاهم النور والبشر، وقد وجدوا جزاء أعمالهم بلا عناء ودون مهل ، أما العصاة الذين كفروا بأنعم الله ، فالسياق يرسمهم وهم لاهثون وراء أعمالهم التي تتراءى لهم كالسراب، وعبثا يحـــاولون الظفـــر على شيء منها ينفعهم، فتضيق عليهم ساحة العرض ويتخبطون في ظلمة حالكة

وتظـــلم نفوســـهم وتســـود وجوههم، وبعد كل تلك المعاناة ينكشف لهم هول اللقاء إذ تحين لحظة الانتقام والحساب .

وأخيرا ينقل لنا المشهد الموالي صورتين متقابلتين هما لحظة وزن الأعمال حينما تعرض على الرحمان وتوزن بميزان الحق، والعدالة فما من صغيرة أو كبيرة فعلها الإنسان إلا وكانت له أو عليه فمنهم من يـــرى خـــيرا، ومـــنهم من يرى شرا، وقد تقابلت التعبيرات بشكل دقيق معنى ولفظا وحتى في عدد الحروف،يقول تعالى:﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه،وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة:7-8].

فكـــل واحـــد يوم القيامة واجد عمله بانتظاره ورائيه بعينيه،فمنهم من يرى خيرا،ومنهم من يرى شرا،والجزاء من جنس العمل.

2- الفـــــــــــــــواصل :

مـــن بـــين أوجه التناسق الفني في القرآن الكريم تلك الفواصل البديعة بإيقاعها وبانسجامها معنى ولفظـــا مـــع جو المشهد ، وإن كان الجرس أو الإيقاع الموسيقي ينشأ من انسجام الحروف التي تبني الكـــلمة المفردة أو انسجام الألفاظ في العبارة الواحدة، فإن الإيقاع الموسيقي الناشئ عن الفواصل له شـــأن آخر خاصة في آيات البعث والحشر، وذلك عندما تتناسق تلك الفواصل في المشهد الواحد، فيروعـــك إيقاعها ،واختيار ألفاظها، واتساق معانيها، وتناغم حروفها، وحركاتها، ومدَّاتها، وتوازنها العجيب ،ولا يصح أن ننظر إلى الفاصلة على أنها مناسبة لفظية مرغوبة ومطلوبة هدفها إراحة القارئ ،وإرشـــاده إلى تكويـــن الصـــورة، وإجادة الوقف، وتحسين روعة التلاوة بما تضفي عليها من إيقاع جمـــيل، وتمد القارئ بألوان من التنغيم المؤثر والجذاب ، إذن علينا « أن لا ننظر إلى بلاغة الفاصلة في القرآن هذه النظرة المحدودة التي لا تكاد تتجاوز الألفاظ والصيغ، فإن هذه الصورة اللفظية الحسية مع جمالهـــا ـــ لا يصح أن تصرفنا ولا تحجب عن ذهننا ما استتر فيها من بدائع الأسرار ودقائق الأغراض ، فالفاصـــلة في القـــرآن الكـــريم لها مزية هامة ترتبط بما قبلها من الكلام بحيث تنحدر على الأسماع انحـــدارا وكـــأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيدا لها بحيث إذا حذفت لاختل المعنى في الآية ، ولو سكت عنها القارئ لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقا مع الطبع والذوق السليم ». [1]

لقد كان أول ما أحسه العرب حينما تلي عليهم القرآن ذلك الإيقاع العجيب وذلك النظم الغريب ، فلقـــد كانوا يعرفون من ضروب الكلام في أيامهم الشعر والنثر و لم يكن القرآن في تركيبه ولا في

---

(1)- الفاصلة القرآنية ، عبد الفتاح لاشين ،د ط ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، 1402هـ ـــ 1982م ، ص01.

أسلوبه يشبه واحدا من هذين الضربين ولكنهم لم يؤمنوا بأن هذا الطراز الفرد من النظم من وحي السماء فأخذتهم العزة بالإثم فقالوا إنه السحر وقالوا إنه الشعر وقالوا إنه سجع وغير ذلك مما أرادوه أن يرضي كبرياءهم ويبرر تعنتهم ، وهم في الحقيقة كانوا به مبهورين، وأمامه متحيرين ،منهزمين « لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع ، وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر ، وأخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل ».[1]

هذا الأفق الخاص من آفاق التناسق الفني يظهر جليا كما قلت في مشاهد البعث والحشر، من ذلك مثلا قوله تعالى:﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ،وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ،وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ،وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ،وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ،وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ،وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ،وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ،بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ،وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ،وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ،وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ،وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ،عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[التكوير:1-14].

يرسم هذا المشهد يوم القيامة وما يحدث إيذانا به ، من ستة أحداث خطيرة ، هي تكوير الشمس وانكدار النجوم، وتسيير الجبال، وتعطل النوق الحوامل، أو تعطل السحب، وحشر الوحوش وفيضان البحار واتصال مياههما وإضرامها بالنار ، ثم ما يحدث في هذا اليوم من ستة أحداث أخرى لا تقل عن سابقتها خطورة، هي تزويج النفوس بأبدانها أو بأقرانها، وعرض الموؤودة وقضيتها بين يدي الرحمان، ونشر صحف الأعمال أمام العباد، وانكشاف غطاء السماء وحجابها ،واضطرام الجحيم واشتعالها، واقتراب الجنةودنوها .

والإيقاع العام للمشهد أشبه بحركة جائحة تنطلق من عقالها فتقلب كل شيء وتنثر كل شيء ، وتهيِّج الساكن، وتروع الآمن وتذهب بكل مألوف، وتبدل كل معهود، وتهز النفس البشرية هزا عنيفا، طويلا، يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه، وتتشبث به، فإذا هي في عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها، ولا قرار، ولا ملاذ لها، ولا ملجأ إلا في حمى الواحد القهار الذي له وحده البقاء والدوام .[2]

---

[1]- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص87.

[2]- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م6، ص3836.

هذا المشهد مكون من أربعة عشر آية اتحدت فيها الفواصل جميعا بشكل رائع "كورت ، انكدرت ، سيرت ، عطلت ، حشرت ، سجرت ، زوجت ، سئلت ، قتلت ، نشرت ، كشطت ، سعرت ، أزلفـــت ، أحضرت" ، فكل هذه الألفاظ منتهية بالتاء الساكنة وهي بذلك تشكل إيقاعا جميلا يخلع النفس ويهزها من الأعماق وهو لوحده يصل إلى أوتار القلب فيشي له بالمعنى وحقيقته.

هــذا الــنغم الموسيقي في القرآن يعتبر من أقوى المظاهر المميزة له، ذلك أنه يستحيل أن يوجد كــلام غـــيره يمكن أن يحتوي على لحن كلحنه، فلو أخذنا أي كلام غير القرآن مهما علت بلاغته وسمـــت فصاحته، وحاولنا تلاوته كما يتلى القرآن لملته الأسماع وكرهته ، أما القرآن فإن الأسماع لا تزداد فيه إلا رغبة وميولا ، وقد كان لهذا النغم الموسيقي تأثير عجيب على العرب الذين نزل القرآن عليهم لأول مرة وعلى من جاءوا بعدهم، بل إن سحره الموسيقي أثَّر حتى في غير العرب، وكان سببا في غيرما مرة في اعتناقهم الإسلام، من مثل الكاتبة الأمريكية (مريم جميلة) التي قالت :«كنت أتمتع في طفولــتي بــأذن موسيقية مرهفة ، وكان لي شغف خاص بالأوبرات والسمفونيات الكلاسيكية التي تعتبر من مظاهر الثقافة العالية في الغرب وكانت الموسيقى هي الموضوع المفضل بالنسبة لي في المدرسة ، فأبدعــت فـــيها أيما إبداع ، وحدث من قبيل الصدفة المحضة أن استمعت إلى الموسيقى العربية من جهـــاز الـــراديو فأعجبني سماعها لدرجة أنني قررت الاستماع إلى المزيد ، وبمجرد سماعي للموسيقى الغربـــية ، أخذت ألح على والدي حتى أخذني في النهاية إلى الجناح السوري من مدينة نيويورك حيث اشتريت مجموعة من اسْطوانات ترتيل سورة مريم من القرآن الكريم بصوت أم كلثوم ، كان ذلك في عام 1947 ، وكنت في ذلك الحين معجبة بصوتها في تلاوة فقرات من القرآن الكريم شعور فياض، وهكـــذا كان إصغائي لهذه التسجيلات سببا في حبي لسماع الصوت العربي، رغم أنني لم أكن أفهمه ، فلـــولا هذا التذوق للموسيقى العربية التي تبدو نشازا بالنسبة للرجل الغربي؛ لما كان من الممكن أن أحـــب الـــتلاوة، وأصبحت بعد أن اعتنقت الإسلام أجلس مأسورة في مسجد نيويورك أستمع إلى تلاوة القارئ المصري عبد الباسط عبد الصمد الساعة تلو الأخرى ».[1]

ومـــن مثل ذلك ما رواه سيد قطب عن الفتاة اليوغسلافية حينما كان متوجها إلى نيويورك على ظهر سفينة مصرية، فأقام صلاة الجمعة رفقة بعض المسلمين كانوا على متنها وقد كان هو خطيبهم ، وعـــند انتهائهم من الصلاة اقتربت هذه الفتاة من المصلين وكانت متأثرة، وعيناها تفيضان دمعا وهي

[1]- رجال ونساء أسلموا ،عرفات كامل العيشي ،د ط، دار القلم ، الكويت ، د ت ،الحلقة الأولى، ص44.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقول : « إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام روح » ، ثم أضـــافت قائلة: « إن اللغة التي يتحدث بها قسيسكم (تقصد الإمام) ذات إيقاع موسيقي عجيب وإن كنـــت لم أفهم منها حرفا » ، ثم أضافت : « إن الموضوع الذي لفت حسي هو أن "الإمام " كانـــت تـــرد في أثناء كلامه ـــ بهذه اللغة الموسيقية ـــ فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه ، نوع أكـــثر موسيقية وأعمق إيقاع، هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فيٌ رعشة وقشعريرة إنها شيء آخر ! كمـــا لـــو كان ـــ الإمام ـــ مملوء من روح القدس! ـــ حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها ـــ ففكـــرنا قليلا ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة ، وكانت مع ذلك مفاجأة لنا تدعوا إلى الدهشة من سيدة لا تفهم مما تقول شيئا». [1]

وقد انتهت فواصل هذه الآيات بالتاء الساكنة ، وهي من الحروف المهموسة، وتساوت الوحدات الصـــوتية فصـــارت كالأنغام الموسيقية ، سريعة الحركة، لاهثة الإيقاع تشرك بتصويرها الصوتي في تجســـيم المشهد وتمثيله للخيال « ولعل السر في ختم هذه الفواصل بالتاء الساكنة الهامسة الإشارة إلى انقضـــاء حـــركة الحياة الأولى في الكون، والإيذان بسيطرة الخوف والدهشة على النفوس والوجوم الـــذي يغشى الناس» [2] ، وقد انتهت الفواصل بأفعال ماضية ومجيء الفعل ماضيا تقرير لأنه حادث فعلا وقد صدر ب"إذا"فصرفه إلى المستقبل دون أن يفقد التعبير أثره الذي يوحي به استعمال الماضي بـــدلا من المستقبل الصريح على أن المباغتة في (إذا) لها أثرها البياني في هذا الموقف، وهذه كما سبق وأن أشـــرت في الفصـــل الأول ظاهرة أسلوبية تطرد عند الحديث عن اليوم الآخر، وقد جاء الشرط فاتحـــة لســـبع ســـور هي " المنافقون ، الواقعة ، التكوير ، الانفطار ، الانشقاق ، الزلزلة ، النصر " والملاحظ على هذه السور أنها تشترك في عدة خصائص :

1- أن في معظمهـــا حديثا عن القيامة ومقدماتها مع ما اقترن به الحديث عنها من أغراض أخرى لها بالمقام نسب ورحم.

2- أن الشرط قد تردد كثيرا في السورة الواحدة ولم يقتصر وروده على مطلع السورة فحسب .

3- أن موضـــوعاتها أمـــور مستقبلية في الغالب استقبالا حقيقيا كما سيحدث من مقدمات القيامة وأهوال الحشر، أو استقبالا باعتبار الحكاية كمجيء نصر الله في مطلع سورة "النصر".

---

(1)- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م3، ج11 ، ص1786.

(2)- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، ط1 ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1413هـ ، 1992م ، ص211.

4- أن الحديـــث فـــيها إذا كان عن مشهد من مشاهد القيامة أو عن أمر يتكرر من مظاهر الطبيعة وســـنة الله في الكـــون أو عن مصير عام محتوم أو ما قارب هذه الأمور فالأداة المفضلة هي "إذا" المؤذنـــة بتحقيق شرطها وجوابها ، وإن لم يكن الحديث عن هذه الأمور بل غيرها فالأداة غيرها "إن" أو"لو" وما شابه ذلك .

والقـــيمة البيانـــية لهذا المطلع الشرطي التي من أجلها آثر القرآن افتتاح هذه السور بها هي أن الأســـلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطا ملاحظا فيه ترتيب المسبب على السبب فإذا ذكـــرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون ، فإذا ذكر الجواب بعـــد هذه الإثارة وهذا التشويق تمكن أيما تمكن، والذي يزيد من هذه القيمة البيانية لأسلوب الشرط في القرآن الكريم أمران:

الأول: أن القـــرآن في غالب الفواتح من هذا النوع لا يكتفي بفعل شرط واحد كما هو الحال في غـــيره ، بـــل يقترن به أشباها ونظائر بطول تأمل السامع فيها وتضاعف من تشوقه إلى الجواب كلما انتقل من جزء إلى جزء فيأتيه الجواب بعد تلهف وطول ترقب .

الآخـــر: أن أجزاء الأسلوب الشرطي في القرآن ليست من جنس ما يستعمله الناس من أمور عادية ، ولا يهـــتم بهـــا إنســـان، أو ليس للوقوف عنده على مدلولاتها كبير معنى أو بما تنبأ ـــ سلفا ـــ بما ســـيكون علـــيه الحال فلا يفيد منها فائدة جديدة ، وليس الحال كذلك في القرآن بل فيه فوق دقة النظم وجمال التركيب غرابة وجزالة .[1]

وهـــذا ما نلاحظه في هذا المشهد فقد بدئ بشرط عطفت عليه أشباه ونظائر وإن الذهن ليستحضر معـــاني هذه الصور التي ترمز إليها كل وحدة من وحدات الشرط وأشباهه ونظائره ، ولنحاول تأملها كأنهـــا واقعة الآن ـــ بالفعل ـــ ولندرك كم من المراحل سبحنا فيها وكم من المشاهد تجددت أمامنا كـــل مشـــهد غريـــب في هيئته وصورته رهيب في حدوثه وظهوره ، يعلوا ويسفل مرة في السماء وأخـــرى عـــلى الأرض إنها رحلة شاقة تقطعها النفس حتى تقف على حقيقة الرحلة والغاية التي من أجلها شدت الرحال :"علمت نفس ما أحضرت".

كما أن هذه الأفعال وردت مبنية للمجهول ما عدا الفعل "انكدرت" وهي ظاهرة بيانية مطردة في أحداث اليوم الآخر حيث يعمد القرآن إلى صرف الحدث عمدا عن محدثه فلا يسنده إليه وإنما يأتي به

---

[1]- المرجع نفسه ، ص207.

مبنـــيا لـــلمجهول« وقـــد هدى تدبر هذه الظاهرة الأسلوبية إلى أن البناء للمجهول تركيز للاهتمام بـــالحدث ، يصـــرف الـــنظر عن محدثه، وفي الإسناد المجازي أو المطاوعة تقرير لوقوع الأحداث في طواعية تلقائية إذا الكون كله مهيأ للقيامة على وجه التسخير والأحداث تقع تلقائيا لا تحتاج إلى أمر أو فاعل» .[1]

ولـــيس في نسق هذه الفواصل مراعاة للإيقاع فحسب بل إن أمورا كثيرة تجتمع فتستدعي مجيء الفاصـــلة على ذلك الشكل فلماذا مثلا استخدم الله ﷻ " ما أحضرت " و لم يستخدم " ما أحضر لها " وهـــل النفس هي التي قامت بإحضار هذه الأشياء إلى الآخرة أم أن قدرة الله ﷻ هي التي أحضرتها لهـــا؟ يجيب الشعراوي على هذا بقوله:« لأن الله خلق الإنسان في هذه الحياة ويبين له طريق الحق ثم بعـــد ذلك ترك حرية الاختيار فيما يفعل ولا يفعل ، والذي آمن بالله ﷻ وصدق الرسالات دخل في تعـــاقد إيماني مع الله فقال: يا ربي لقد آمنت بمحض اختياري ، وبهدايتك إلي ، ومن هنا فإنني التزمت بمـــا تقول في أفعل ولا تفعل ، فكأن الإنسان المؤمن ألزم نفسه بالإيمان بالله ، ولذلك تجد أن الله ﷻ حـــين يذكـــر الأوامـــر التكليفية في القرآن الكريم يقول :" يا أيها الذين آمنوا " أي " يا أيها الذين ارتضـــيتم الإيمان طريقا باختياركم الحر وصدقتم فهذا هو المطلوب منكم ، إذن فالإنسان شريك هنا في كـــل ما يتم من أفعال يحاسب عليها الله ﷻ بالثواب أو العقاب ومن هذا يقول الله:﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾، لأنه لم يحضر لها شيئا لا علاقة لها به وإنما أحضر لها كل شيء لها به علاقة ، والنفس هي التي آمنت وارتضت وصدقت ودخلت في عقد إيماني مع الله ولذلك هي التي أحضرت أي فعلت أعمالهـــا وأولـــئك الذين لم يؤمنوا، هم رفضوا الدخول في الإيمان بالله وبرفضهم هذا اختاروا طريقا آخر وفعلوا ما فعلوه باختيارهم هذا الطريق، ولذلك أحضر لهم ما فعلوه لأنهم شركاء في الفعل أيضا ليس بالإيمان، ولكن بالعمل بإنكار رسالة الله، وبالعمل على عكس ما رسمه الله ».[2]

فهـــذه الآيات انتهت بفواصل منسجمة موسيقيا بعضها مع بعض ، والقرآن يعنى بهذا الانسجام عـــناية واضحة لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس ، فقد تراه مرة يقدم كلمة ومرة يؤخرها انسجاما مع فواصل الآيات ، وقد تراه أنه يضع كلمة في مكان ويضع غيرها في مكان آخر يبدوا شبيها بالموضع الأول تجنبا للتكرار « غير أن الذي نريد أن نؤكده هنا أن القرآن راعى في

---

(1)- التفسير البياني ، عائشة عبد الرحمان ، ج1 ، ص81.

(2)- معجزة القرآن ، محمد متولي الشعراوي ، ، د ط ، شركة الشهاب ، الجزائر ، 1990 ، ص91.

كـــل ذلك أيضا ما يقتضيه التعبير والمعنى و لم يفعل ذلك للانسجام الموسيقي وحده «فإنه لو لم يكن الجانب الموسيقي مراعى في ذلك لاقتضاه الكلام من جهة أخرى».[1]

فعن عمر بن الخطاب ﷺ،أنه قرأ أول هذه السورة (سورة التكوير)لما بلغ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ **قال:** لهذا أجريت القصة" أي هو جواب القسم .[2]

والمشـــهد مـــن بدايته مشهد انقلاب لكل مألوف ومعهود ، وثورة شاملة لكل موجود ، فالآيات الاثـــنتي عشـــر الأولى تصـــور انقلابا هائلا في الوجود ، انقلابا لم تعد تعتده النفس البشرية فالنفس اعـــتادت أن ترى الشمس تؤدي مهمتها دورها كل يوم باستكانة، واعتادت على النجوم في نظامها الرتيـــب، واعتادت على الجبال الراسية في مكانها فإذا تغير كل هذا وهو من نظام الكون ، و لم تعد الشـــمس تؤدي مهمتها ولا النجوم تؤدي مهمتها، فكأننا خرجنا تماما عن صورة الكون المألوف إلى صـــورة أخـــرى مغايـــرة تماما، والإنسان لا يتنبه للخطر ولا يحس بالنعمة إلا ساعة تخرج حياته عن المـــألوف فيه [3]، فتكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتعطيل العشار، وتسيير الجبال، وتسجير البحار ،وتكشيط السماء ،تمثل فاصلا بين عالمين ، العالم الأول هو الحياة الدنيا التي كان الإنسان يعيش فيها محـــتاجا لهـــذه الأســـباب، للشمس، والنجوم، والسماء، والبحار، وللعشار ، والعالم الآخر هو عالم جديـــد تتعطل فيه مهام هذه الأسباب لأن الحياة ستكون بطريقة ثانية مخالفة لما كانت عليه في الحياة الدنـــيا:﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[إبراهيم:48] ، وإذا ما نشـــرت الصـــحف وزوجت النفوس وأحضرت الموؤودة لتسأل ساعتها تستفيق النفس من غفلتها وتعلم أنها أمام حقيقة هي اليوم الآخر فتعلم حينها ما قدمت وما أخرت .

وبهـــذا الإيقاع ينتهي المقطع الأول (من سورة التكوير) وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذي يتم فيه هذا الانقلاب.[4]

ومن مشاهـــد البعـــث والحشـــر والتي يتناســـق فيها التعبير مـــع الفواصل وتتناسق فواصل الآي مع بعضها البعض قوله تعالى :﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ،تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ،قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا

---

(1)- التعبير القرآني ، فاضل صالح السامرائي ، ص218.

(2)- التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، ج30 ، ص150.

(3)- معجزة القرآن ، محمد متولي الشعراوي ، ص06.

(4)- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م6 ، ص3841.

خَاشِعَةٌ،يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ،أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً،قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ، فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ،فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ. ﴾[النازعات:6-14].

فالمشـــهد يصور لنا حالة من حالات الانقلاب الحاصل يوم القيامة الذي يبدأ بصيحة أولى ترجف لهـــا الأرض والجـــبال ويصعق بها الأحياء جميعا ، ثم تردفها صيحة ثانية تفيقهم وتحشرهم ، فتوجل القلـــوب وتخشـــع الأبصار ، ويقف الناس مذهولين مما يرون فهاهم يبعثون بعد أن نخرت عظامهم وبليـــت ، والقرآن يجبهم بأن ذلك الذي يستبعدونه سريع كلمح البصر فالأمر لا يستغرق أكثر من زجـــرة واحـــدة فـــإذا هم بالساهرة،و الإيقاع في المشهد سريع يتناسق مع لفظة زجرة«التي توحي بالســـرعة»[1] ، وقـــد انتهت فواصل المشهد كله بالتاء الساكنة التي تنقلب إلى هاء وهو أصلها عند نطقها ساكنة، مما يحدث وقعا يهز النفوس ويرعبها.

فلاحـــظ التناسق في هذه الجزئية من هذا المشهد الكلي في قوله:﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[النازعات:13-14] ، فالآية في إيجاز، وروعة متناهية في قوة التصوير والتخييل ، بحيث تصـــور تلك النقلة السريعة المرعبة التي سيعيشها الخلق فتلك المسافة الزمنية التي يتصورونها بين الحياة الدنـــيا والأخـــرى اختزلـــت اختزالا فصارت لا تساوي إلا تلك المسافة الزمنية المستغرقة بين نطق اللفظـــتين "زجرة ، ساهرة" ، وقد جاء التعبير موجزا في اللفظ تناسقا مع الإيقاع السريع ومع المعنى المراد تصويره ولهذا «وصفت الزجرة بواحدة تأكيدا لما في صيغة المرة من معنى الوحدة لئلا يتوهم أن إفـــراده للنوعـــية»[2] ، ثم إن لفظـــة "زجرة" بما تحدثه من إيقاع مدوي تتناغم تموجاته على سكون حـــرف الـــتاء في كل من "واحدة " و" ساهرة " ذلك « أن الإيقاع في " زجرة " يحصر اللسان في الزاي المفتوحة والجيم الساكنة ، وهي تحمل نغمة تمس عمق النفس ، فتوحي بسرعة الزج على جرس " زجرة " وإذا هم بالساهرة ، على حين فجأة ».[3]

(1)- المرجع نفسه، ص3813.

(2)- الإعجاز الفني ، عمر السلامي ، ص234.

(3)- التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، ج30 ، ص72.

ثالثا: اتَّســـاق المشهـــد مع السيـــاق:

لا تكاد تخلوا سورة من سور القرآن من احتوائها مشهدا من مشاهد البعث والحشر إلا في القليل الـــنادر ، وهـــذه المشاهد لا تعرض داخل السورة مبتورة مفصولة ، فحينما ينتهي التعبير القرآني من إتمـــام عملية التناسق في جزئيات المشهد،في الإيقاع الموسيقي للصورة، وفي رسم الصورة ، وتوزيع جزئياتها وبناء ألفاظها وهناك خطوة مهمة من خطوات التناسق وهي اتساق ذلك المشهد مع السياق الـــذي ورد فـــيه أو ما يسمى بتناسق الصورة مع إطارها ، من ذلك مثلا أن يستعمل التعبير القرآني لفظا في موضع ويستعمل غيره في موضع آخر مع أن الصورة المراد رسمها واحدة ، أو يقدم أو يؤخر أو يضيف أو يحذف أو يغير في نظام الفاصلة كل ذلك تمشيا مع النطاق الذي ورد فيه ذلك المشهد ، مـــن ذلـــك قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعـــام:94] ، وقوله في سورة الكهف :﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف:48] .

فاســـتعمل في الأولى لفظة "فرادى" ولم يستعملها في الأخرى ،يعلق الغرناطي في ملاك التأويل على هـــذا فيقول: « أن ذلك مراعى فيه في آية الأنعام ما أعقبت به من قوله "وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركـــم" أي ما أعطيناكم في الدنيا مما شغلكم عن آخرتكم ، ثم قال :"وما نرى معكم شفعاءكم الذيـــن زعمتم أنهم فيكم شركاء" أي منفردين عما كنتم تؤملون من أنداد كم ومعبوداتكم من دونه ﷻ،هـــذا المعقـــب به في آية الأنعام ما قيل فيها "ولقد جئتمونا فرادى" ، أما آية الكهف فقبلها قوله تعـــالى:﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف:47]،ثم قال:﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾

[الكهـــف:48]. مجردين عن كل متعلق و لم يقع هنا ذكر ولا إشارة إلى ما عبد من دون الله فلهذا لم يقع هنا "فرادى" وذلك بيّن التناسب وعكس الوارد لم يناسب ».[1]

قـــد تكون للسياق الذي ترد فيه الآية سمة تعبيرية خاصة فترد فيه ألفاظ معينة بحسب تلك السمة ، وقـــد يكون للسورة كلها جو خاص وسمة خاصة فتطبع ألفاظها بتلك السمة وهذا واضح وكثير في القـــرآن الكـــريم ، إذ كثيرا ما نرى تعبيرين يتشابهان إلا في لفظ واحد وإذا ما دققنا النظر وجدنا أن كل لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو ذاك.[2]

مـــن ذلـــك قولـــه تعالى:﴿ فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾[النازعات:34] ، وقوله:﴿ فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ﴾[عبس:33] ، فالطامة والصاخة وإن أريد بهما في السورتين شيء واحد فإن اسم الطامة أرهـــب وأنبأ بأهوال القيامة لأنها من قولهم طم السيل إذا علا وغلب وأما الصاخة فالصيحة الشديدة من قولهم صخ بأذنيه مثل أصاخ،فاستعيرت من أسماء القيامة مجازا لأن الناس يصخون لها ، فلما كانت الطامـــة أبلغ في الإشارة إلى أهوالها خص بها أبلغ الصورتين في التخويف والإنذار ، وعلى ذلك بنيت ســـورة النازعات ، ألا ترى قوله:﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ،تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:6-7] ، ووصف الطامـــة بالكـــبرى وما أتبع به بعد وابتداء السورة وختامها ، فكلها تخويف وترهيب ، فناسب أشد العبارتين موقعا وأرهبها ، وأما سورة "عبس" فلم تبن على ذلك الغرض وإنما بنيت على قصة عبد الله بـــن أم مكـــتوم الأعمى وذلك مشهور، ثم ورد قوله :﴿ فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس:33] عقب التذكير بقوله " إنها تذكرة" والتحريك للاعتبار بقوله :﴿ فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس:24] ، ثم أتبع بعد ذكر الصاخة بقوله:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ،ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾[عبس:38-39]، فسورة الـــنازعات عـــلى الجملـــة أشـــد في التخويف والترهيب فناسبها أبلغ العبارتين من أسماء القيامة في التخويف والترهيب .[3]

---

(1)- ملاك التأويل ، القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي ، تحقيق سعيد الفلاح ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان 1463هـ ، 1983م ،ج1، ص461.

(2)- التعبير القرآني ، فاضل صالح السامرائي ، ص218.

(3)- ملاك التأويل ، الغرناطي ، ج2 ، ص1135.

ومـــن ذلـــك قوله تعالى :﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَت ﴾[التكوير:6]،وقوله :﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطـــار:3]، فوجهُ التناسب في اختيار لفظ التسجير في سورة التكوير يظهر بالنظر إلى ما تقدمها من الأفعال التي جاءت بعد "إذ" ومن بينها﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَت،وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَت﴾[التكوير1-2] ، قـــيل معنى "سجرت" ملئت نارا من سَجَرَ التنور إذ ملأه بالحطب ليوقده نارا، أو بعبارة أخرى إذا أحماه بالوقود ، وكأن معنى (سجرت) أوقدت .[1]

وأمـــا قوله (فجرت) فمعناه فتح بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالمالح وزال البرزخ الذي بينهما وصارت البحار بحرا واحدا .[2]

وإنما خصت سورة الانفطار بلفظ الانفجار ليناسب مطلع السورة وافتتاحها ، ألا ترى في انفجار العـــذب إلى المالح ، والمالح إلى العذب ، وبعضها إلى بعض انفطار ناسب انشقاق السماء وانفطارها ، فانفطـــار الســـماء وانفجار البحار وبعثرة القبور وانتشار النجوم كل ذلك متناسب أوضح تناسب وأبيـــنه وحشـــر الوحوش وتزويج النفوس وتسجير البحار هذا كله اجتماع وائتلاف يتناسب بعضه بعضا .[3]

وفي الســـياق نفســـه نجد قوله في سورة التكوير:﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[التكوير:14]، وفي الانفطار :﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[الانفطار:5].

يقـــول الفيروز بادي معللا سر الاختلاف «لأن ما في هذه السورة "التكوير " متّصل بقوله: "وإذا الصـــحف نشـــرت "فقـــرأها أربابهـــا فعلمت ما أحضرت،وفي الانفطار متّصل بقوله :"وإذا القبور بعـــثرت"والقـــبور كانت في الدنيا فتتذكر ما قدمت في الدنيا،وما أخّرت في العقبى،وكل خاتمة لائقة بمكانها».[4]

قال تعالى:﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:95].

فهـــذا المشـــهد يصوّر لنا العبد يوم القيامة وهو محشور وحيدا ،وقد انقطع عن خلاّنه،وأحبّائه ليلقى ربـــه فيحاســـبه على ما فعل،ولكنّ الآيات التي سبقت هذه الآية ترسم مشهد الناس مجموعتين وقد

---

(1)- سورة الرحمان وسور قصار ، شوقي ضيف ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ،1980 ، ص251.

(2)- الكشاف ،، الزمخشري ، ج4 ، ص192.

(3)- ملاك التأويل ، الغرناطي ، ج2 ، ص1137.

(4)- بصائرذوي التمييز، الفيروزأبادي،ج1،ص504.

قســـموا إلى فئـــتين ، الأولى فـــئة المتقين والأخرى فئة المجرمين ، قال تعالى:﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا،وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[مريم:85-86] ، ففي استعمال لفظة "فردا" نكتة لطـــيفة تتناســـب مـــع وحدة السياق ووحدة الغرض من إثبات وحدانية الله تعالى ونفي الشرك في عـــبادته، وتقريـــر مســـؤولية الفرد الحاصلة عن أعماله حيث يقف بين يدي الله ﷻ، مشغولا عمن سواه، ولو كانوا من أقرب الناس إليه ، فلنتأمل الآية (المشهد) في سياقها لنرى روح الوحدة والتفرد آخـــذة بمجـــامع الـــنظم في الـــنص الكريم ، قال تعالى:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا،لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا،تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا،أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا،وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا،إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا،لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا،وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مـــريم:88-95] ، فوحـــد الولد ، ومن المجرمين من ادعى أن الملائكـــة بنات الله كما نطق به القرآن:﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل:57]، لكـــنه وحـــد الولد ليكون النكير على المفترين أشد حين يقع المفرد منفيا في الرد عليهم :﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم:92] ، إذ من المسلم به أنّ نفي الواحد باستغراقه آحاد الإفراد أشمل من نفي الجمع لوقوع الاستغراق على آحاد الجمع .

ثم جاء توحيد "العبد" في مقام الجمع وفاء بحق المناسبة في يوم تنقطع فيه العلائق والأنساب وينشغل فـــيه الفـــرد بنفسه عن سواه ويحشر بنفسه ويحشر الناس إلى ربهم فرادى ويمثلون أمامه وحدانا وهو نفس الغرض من توحيد (الفرد) في قوله "وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا" .[1]

وجـــرس الألفاظ وإيقاع العبارات يشاركان ظلال المشهد في رسم جو الغضب والانتقاص ، ففي وســـط هـــذه الرهبة والوحشة يأتي العبد وحيدا ليحاسب على ما فعل فليس أنسب للسياق من لفظ الإفراد .

يعلـــق الأستاذ على النجدي ناصف على سبب إفراد العبد في هذه الآيات « ويومئ لفظ العبد في الآيـــات إيماء خفيا إلى مشهد مهيب من مشاهد الآخرة ، مشهد لا كالمشاهد ولا الناس فيه كالناس

[1]- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ، الخضري ، ص52،51.

متســـاوون ، كـــأنهم فرد واحد ، تتكرر ذاته ، وتتوحد صفاته ، ذهبت بينهم الفوارق فلا علية ولا ســوقة ، ورفعت من دونهم الحجب فالتقى الأحمر والأسود ومحيت الحقب فالتقى الماضي والحاضر ، وتقطعـــت الأسباب فانفض الأنصار ، وما كان لذلك كله أو لشيء منه أن يكون لولا وضع "العبد" هنا بلفظة المفرد مكان العبد أو العبيد لكي يؤدي المعنى الذي ذكرناه أداء إشارة وتلميح» .[1]

هـــذا مـــن حيث اختيار ألفاظ المشهد وتناسقها مع السياق الذي وردت فيه ، لكن التناسق بين المشـــهد والســـياق ما يعرف بالصورة والإطار كما سبق وأن قلت يرقى إلى أبعد من ذلك فيتناسق المشهد مع السياق في كل جوانبه إيقاعا ولفظا وصورة ومعنى إلى غير ذلك .

ولنأخذ من مشاهد البعث والحشر مثالا على هذا، قوله تعالى:﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيد ،لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ،وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيد ،أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيد ،مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ،الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ،قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيد ،قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد ،يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيد ،وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيد ،هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظ،مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ،ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُود ،لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق:19-35]، يبدأ هذا المشـــهد في الدنـــيا وينـــتهي في الآخرة ، فالمسافة الزمنية بين العالم الدنيوي والعالم الأخروي ضئيلة ،فمشـــهد البعـــث والحشر تال مباشر لسورة الاحتضار والنهاية لذلك قيل " من مات فقد قامت قيامته" فعلى عجل ينقلنا المشهد من لحظة وداع الدنيا إلى لحظة الوقوف في الآخرة؛ فنفخ في الصور، فَسَوْق إلى المحشر ، وفجأة يكشف الستار عن كل نفس يلازمها اثنان سائق وشهيد يقودانها ويرقبانها ،وفي ظـــل هـــذا الموقف العصيب يبدأ التأنيب والتبكيت، ويسدل الصمت على المشهد ظلاله لتبدأ رحلـــة الـــنفس مع العذاب الناتج عن الندم والحسرة، ويكشف عن البصر فيصير نافذا يرى ما كان

[1]- مجلة مجمع اللغة العربية ،علي النجدي ناصف، ج32 ، ذو القعدة 1936 ، ص12.

محتجـــبا من قبل ،ودون إمهال يتقدم القرين ليقدّم ما عنده من أخبار هذه النفس وأعمالها،وهنا ينقطع هـــذا الصـــمت ليعلو في المشهد صوت الخصام بين النفس، وبين قرينها الذي يتبرأ من أفعالها ،لكن ســـرعان مـــا يتوقف الصّراخ والجدال بتدخل الجبّار سبحانه وتعالى فيعود الصمت من جديد مخيّما بحـــزنه على المشهد،ومن دون تأجيل يعلن الحكم العادل ،وقد تناسق هذا المشهد مع السياق مع جو الســـورة لـــذي أطلق فيه فقد ورد في سورة "ق "« وسورة قاف كلها تستعرض قضية البعث التي يكـــذب بهـــا الكافـــرون تكذيبا شديدا﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيـــب،أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:5-6]، وفي صدد الرد على هذا التكذيب أخذ يســـتعرض أمامهم الصور المشهودة في هذه الحياة الدنيا:﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ،وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ،تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ،وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ،وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ،رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[ق:6-11].وهكذا حين انتهى من ذلك الاستعراض للخلق والإنبات في الأرض وإحياء البلد الميّت بالماء النازل من السّماء وكلها صور مشـــهودة يمـــر بها الناس غافلين عن دلالتها العميقة الناطقة بالقدرة على الإحياء والإخراج" كذلك الخـــروج "،ثم أخذ يستعرض بعد هذا تاريخ المكذّبين قبلهم " عاد وفرعون ،وإخوان لوط،وأصحاب الأيكـــة،وقوم تـــبّع"ويذكر في اختصار مصارعهم،وهي شواهد القدرة على الإماتة والإهلاك بعدما تقدمـــت شـــواهد القـــدرة عـــلى الإحياء والإخراج، حتى انتهى من استعراض الموت والحياة،جعل يستعرض مراقبة الخالق لمن خلق وهم أحياء تمهيدا لحسابهم بعد الممات:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:16-18]

فـــلم يـــترك الإنسان سدى ، وهذه أعماله كلها تحصى ، يحصيها عليه رقيبان يتلقيان عنه كل ما يصدر منه"[1].

---

[1]- مشاهد القيامة ، سيد قطب ، ص75-77.

بعـــد أن يعـــرض لكل هذا يعرض هذا المشهد الأخروي ليتناسق في مضمونه مع ما سبق ، وإذ يتناســـق المشهد مع السياق مضمونا؛ فإن التناسق الأروع يكمن في الإيقاع فالإيقاع الرهيب الشديد في المشهد الذي يحاصر النفس يعم السورة كلها ببنائه التعبيري وبجرس فواصلها ، فالسورة مبنية على حرف القاف الذي سميت باسمه وهو من الحروف الشديدة الجهر فناسب ذلك الغرض منها حيث أنها جـــاءت لتهاجم المنكرين للموت والبعث والحساب وقد تكرر ذكر هذه الحرف اثنين وخمسين مرة مـــنها سبعة عشر مرة في المشهد الذي نحن بصدد دراسته، وانتهاء أغلب فواصل السورة بحرف الدال الساكنة إذ أن للسورة خمس وأربعين فاصلة ، منها سبع وعشرون انتهت بحرف الدال أكسبها إيقاعا موسيقيا يتناسب مع الجو الذي أطلق فيه المشهد.

ومـــن المشـــاهد المثيرة للبعث والحشر ماجاء في سورة الحاقة قال تعالى:﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ،وَحُمِلَتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً،فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ،وَانْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ،وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ،يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ،فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ،إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ،فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ،فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ،قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ،كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ،وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ،وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ، يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ،مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ،هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[الحاقة:13-29]

هـــذا المشهد الحافل يصوّر لنا عدّة مشاهد ابتداء من النفخ في الصور وما يعقبه من تحوّل رهيب لنوامـــيس الكـــون فـــتدّك الأرض والجبال ،وتنشق السّماء ويسود الموقف ظل جليل فيه من العظمة والرهبة الكثير،يعرض الناس على ربهم ﷻ فمنهم شقي ومنهم سعيد، لتختلط في المشهد صور الفرح والسرور بصوّر الحزن والكآبة. قلت ،هذا المشهد يتسق اتساقا مذهلا مع الإطار الذي ورد فيه،فاسم الســـورة الحاقـــة وهو لفظ بجرسه ومعناه يلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار ،هذا المعـــنى الذي تريد السورة أن تلقيه في الحس يتكفل به أسلوبها وإيقاعها ومشاهدها وصورها وظلالها بإلقائـــه وتقريـــره بشكل مؤثر عجيب،وإذا نظرنا إلى أبعد من ذلك في السياق بأكمله لرأينا أن الجو كلـــه في هذه الآيات جو تهويل وترويع،وتخويف ،وتعظيم وتضخيم، يوقع في الحس الشعور بالقدرة

الإلهية الكبرى من جهة ،وبضآلة الكائن الإنساني بالقياس إلى هذه القدرة من جهة أخرىفما إن يبدأ المرء في القراءة حتى تتملكه الرهبة ،ويسيطر عليه الخوف، .والألفاظ بجرسها ومعانيها وباجتماعها مع بعضـــها في التركيب ،وبدلالة التركيب كله،تشترك في خلق هذا الجو وتصويره ؛فالتعبير القرآني يبدأ هـــنا بـــإطلاق هذه اللفظة المدوية المرعبة الغامضة "الحاقة "ثم يتبعها باستفهام يزيد من غرابة الموقف ،ومـــن هـــوله، "ماالحاقة؟"ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل وإخراج المسألة عن حدود الإدراك"ومـــاأدراك ماالحاقـــة؟" وفي الوقـــت الـــذي ينتظر فيه الإجابة،يتركه متحيّرا في هذا الأمر مســـتعظما مستهولا فلا يرضي همه،ولايشبع رغبته بأن يكشف له عن هذا الأمر الذي لا يدريه ولا يمكـــن أن يدريه،يدعـــه لحظـــة مفعم الحس بالاستهوال والاستعظام ليدور به هنيهة حول الموضوع مادامـــت مواجهته غير مستطاعة!ليصور له صورة قريبة من هذا الحدث الذي يجهله؛إنها القارعة،:إن عـــادا وثمـــود كذبوا بهذه القارعة! فماذا كان ؟﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ،وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[الحاقـــة5-6]،والطاغـــية- على ما في اسمها من صورة الطغيان والغمر والتغطية – وكذلك الريح الصرصر العاتية كلتاهما أخف من القارعة،ولكن لعلهما تقربان إلى حسه هذه القارعة فهمـــا مـــن جنسها ونوعها.وهكذا قضى على عاد وثمود ،قضى عليهما بطرف من تلك الحاقة ومن هـــذه القارعـــة،فإذا عجز إدراكه –وهو عاجز-عن تصوير الحاقة،ينقل إليه نموذجا آخر ،هو نموذج مصـــغر مـــنها في الصيحة الطاغية وفي الريح العاتية فهما من مشاهدات هذه الحياة الدنيا ،وإنْ نضح اسمهمـــا ووصفهما هولا!هولا تنقله إلى حسه هذه الصورة المروعة:صورة العاصفة مزمجرة مدوية سبع ليال وثمانية أيام،وصورة القوم فيها﴿ صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾وإنك لتراهم الآن، فالصورة حاضرة:﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:7]،فلا أثر لهم،﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[الحاقة:8]،وكأن كل ذلك يدعوه لأن يخشع،ويعدّه ليسمع ماهو أهول وأعظم ،فلا يكون به مصدقا ،مذعنا، ثم يقدم إليه مشهدا آخر لعله يقرب إلى حسه روعة الحاقة وهول القارعة.

إن فـــرعون ومن قبله، وقرى قوم لوط المعروفة، قد جاءوا بالفعلة الخاطئة ،جاءوا بها فكأنما هي شيء محسوس أو كائن يجاء به :﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة:10]،وهم رسل مـــتعددون ولكنهم بمثابة الرسول الواحد فجميعهم يحمل رسالة واحدة من عند إله واحد "فأخذهم

أخـــذة رابـــية" والأخذة هنا "رابية"ليتم التناسق بينها وبين "الطاغية" فكلتاهما تربى، وتغطي، وتطغى ،وتغمر. والتناسق في المناظر يبدو ملحوظا في اللوحة الكبرى المعروضة أمامنا.

ثم إنـــه لايتوقف عند هذه المشاهد؛ بل يستمر في استعراض المشاهد الهائلة والروائع الغامرة فمشهد الطوفان يتسق مع هذا الاستعراض كل الاتساق:﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11]، لتكون هذه الحادثة عبرة تذكروها فتعيها الآذان الواعية.

وبعـــد أن اســتعد الحـــس البشري المحدود لتصور هول الحاقة غير المحدود .الآن وقد تهيأ الحس باستعراض هذه الصور المروعة،الطاغية،الرابية،الغامرة.فقد آن الأوان لاستكمال العرض وتهيأ الموقف للوثـــبة الكـــبرى:﴿إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ،وَحُمِلَتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً،فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ،وَانشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[الحاقة:13-16]، وننظر في اللوحة الكبرى التي تجمـــع هـــذه المشـــاهد جميعا فماذا نرى؟ نرى نوعا من التناسق الفني العجيب بين الحاقة والقارعة والطاغـــية والعاتية والرابية والدكة الواحدة والواقعة ، تناسق اللفظ والجرس ، وتناسق المناظر لتي تخيل للحس أنها جميعا فائرة طاغية غامرة ، تذرع الحس طولا وعرضا وتملأه هولا وروعا وتهزه من أعماقه هزا .

ولـــن يجـــد مصور بارع اتساقا أعظم من اتساق الصيحة العالية الطاغية والريح الصرصر العاتية ، والأخذة القوية الرابية والطوفان الطاغي تخوض غماره الجارية والنفخة الهائلة الواحدة والدكة المحطمة المفـــردة وبـــين وقعة الواقعة والسماء المنشقة الواهية إنها كلها من لون واحد ، وحجم واحد ونغمة واحدة وكلها تألف اللوحة الطبرى وترسم الجو العام الذي أراده القرآن.[1]

ثم تهـــدأ كـــل حركة، فلا وقع،ولارج، ولاخفض ،ولارفع، والسكون يخيم لحظة ليبدأ استعراض جديـــد فيه هول ولكنه هول ساكن رابض ، بعدما سكن الهول الهائج المائج :﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:17] ، ها نحن أولاء نشهد العرض المثير،فالسماء قد انشـــقت فهـــي واهنة واهية ، والملائكة موزعون على أرجائها في هذا الاستعراض الإلهي العظيم . ليكشـــف الســـتارعن العـــرش، يظلـــل الجمـــيع في وقـــار رهيـــب ، والخلائـــق تحته شاخصين

---

[1]- المرجع نفسه ،ص184.

بأبصارهم،مشرئبين بأعناقهم ،ينتظرون انعقاد مجلس القضاء،ودون مهل يبدأ العرض الأكبرفلا تخفى خافية في الحس أو الضمير ، في هذا الحشد الجم الغفير .

وفي هـــذا المشـــهد ينقسم المعروضون إلى قسمين في مقابلة رائعة كما سبق وأن بيّنته في المبحث السابق ، فهناك من أوتي كتابه بيمينه فما تسعه الساحة من الاطمئنان والمباهاة ،بعد أن مرّت عليه لحظات عصيبة من القرع والرج والغمر إلى غير ذلك من الأهوال التي ظنّ معها أن هالك"فيقول هـــاؤم اقـــرأا كتابـــيه"،ولا يقف السياق عند ذكر نجاته،بل يزيده سعادة بأن يعدد له شيئا من طيب ماســـيلقاه ،:﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ،فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ،قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[الحاقة:21-22]﴾،وننظر في الجانب الآخر من الساحة لنرى ذلك الذي أوتي كتابه بشماله : لقد أدركته الحسرة ، وركبته الندامة ، وجـــرس الألفاظ يدل على توجعه وتأله، وقد ثبت المشهد كأنه لا يتحرك : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه،وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه،يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه،هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي،خُذُوهُ فَغُلُّوهُ،ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ،ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾[الحاقة: 25-32]، ثم لايقـــف الأمـــر عند التعذيب النفسي والحسي بل يستمرالندم،والتوجع،إنما يلقى من التقريع والتشنيع،فيكشف جرمه على أعين النظارة جميعا:﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ،وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾[الحاقة:33-34]،فماذا يكون الجزاء المرتقب بعد السحب والغل، وبعد التأنيب والتبكيت؟إنه ولا شك أمر فظيع :﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ،وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ،لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة:35-37].

وإذ يـــبلغ التأثر الوجداني هنا ذروته بعد هذا الاستعراض الحي للبشرية في يوم الهول العظيم ،يوم الحاقة ،القارعة .في هذا الأوان الذي تتفتح فيه منافذ النفس جميعا للإيمان،فهي مذعنة خاشعة،ليس لها قـــدرة عـــلى الـــرفض؛ لا تكـــون حاجة للتوكيد والقسم والإيمان،:﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ،وَمَا لَا تُبْصِرُونَ،إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ،وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ،وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:38-42].

ويشـــارك إيقـــاع الفاصلة في السورة ،برنته الخاصة ،وتنوع هذه الرّنة ،وفق المشاهد والمواقف في تحقيق ذلك التأثير الحي العميق ،فمن المد والتشديد ،والسكت في مطلع السورة "الحاقة ما الحاقة ؟وما

أدراك ما الحاقة "،إلى الرنة المدوية في الياء الساكنة بعدها ،سواء تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون،أو هــاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع طوال مشاهد التدمير في الدنيا والآخرة،ومشاهد الفرحة والحسرة في موقــف الجزاء ،ثم يتغيّر الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنة رهيبة جليلة مديدة:﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ،ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوه﴾[الحاقة:30-31]، ثم يتغير مرة أخرى تقرير أسباب الحكم ،وتقرير جدة الأمر إلى رنــة رزيــنة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم أو النون :" إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض عــلى طعــام المسكين فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين "،" وإنه لحق اليقين فسبّح باسم ربك العظيم "

وهــذا التغــيّر في حروف الفاصلة ،وفي نوع المد قبلها وفي الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغيّر السياق ،والمشاهد والجو،وتتناسق مع الموضوع.[1]

فأســلوب القرآن سيد الأساليب ،وإيقاعه أجمل الإيقاعات وأغناها،وأكرمها وأسماها،ولقد ابتنى القــرآن في كل سورة بنية إيقاعية تطبع تلك السور بطابع التّفرد من وجهة ،وطابع البنية العامة التي تصــادفنا في النص القرآني عبر كل السّور من وجهة أخرى،فالتفرد في أي سورة لا يعني الشذوذ أو النشاز،بل إنّ هناك بنية نظمية عامة،في مجال إيقاع الآيات ،لا يلفى إلا في هذا القرآن، الذي يتّخذ له إيقاعــا لا تصادفه في نثر الناثرين من المبدعين ولا في أشعار الشّعراء المفلقين الذين لا يجاوز عدد أطر إيقاعــاتهم الســتة عشر بحرا على حين أنّ القرآن يتشكل تحت أشكال إيقاعية متنوّعة غنية متجدّدة متفاوتة النفس متمايزة النغم.[2]

---

[1]- في ظلال القرآن ،سيد قطب، م6،ص3676.

[2]- نظام الخطاب القرآني "تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمان " عبد الملك مرتاض،د ط،دار هومة للطباعة والنشر،الجزائر،2001،ص267.

الفصل الثالث :

القـــوالـــــب الفنيـــــة

في

آيات البعث والحشر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا- القصـــــــــــــــــــة:

إن مـــنهج القرآن في الدعوة والتربية، والترغيب والترهيب أن يدخل على الإنسان من أبواب متفرّقة لا باب واحد ؛فيخاطب عقله وضميره ،ووجدانه،ويستثير خياله،وينفذ إلى أعماقه فيثير انفعاله وشـــعوره؛فلم يقتصر على خطاب العقل وحده ،ولم يسلك سبيل الإقناع الذهني المجرد حتى في أعقد المســائل،و « إنمـــا ارتقى بأسلوبه إلى مجال الفطرة الشاملة ، وقصد به إلى منطقة الوجدان الحارة ، موطـــن التحويل والإيمان »[1] ،وقضية الإيمان بالبعث والحشر عنصر من عناصر العقيدة -بما فيها من قدرة الله ﷻ على إحياء الموتى،والجزاء- عالجها القرآن الكريم بوسائل شتى ، تعتبر القصة إحداها.

وحـــظ القصة في القرآن الكريم حظ وفير ، ومتعدد المجالات ، فالقرآن الكريم نزل باللغة العربية وســيلة القـــوم إلى التواصل والفهم وأداقم البليغة في التعبير وصولا إلى فن راق ، وكما أن القرآن تحـــدى العـــرب في القول وهم فرسان الشعر وأربابه ، فقد تحداهم أيضا في القصة؛ ذلك أن تراثهم النـــثري قبل الإسلام يمتلئ بالقصص والحكايات والأساطير والأخبار والأيام ، ومن ثَّم لم يكن عجيبا أن يحفل القرآن الكريم بألوان متعددة من القصة كنموذج صادق لما يجب أن تكون عليه القصة [2].

وإن كانـــت مسألة معرفة العرب للقصة قد أسالت حبر كثير من الدارسين والباحثين، وأثير حولها جـــدال واســـع بين من يثبت ذلك، ومن ينفيه ، ودون أن أتطرق إلى من أثبت ومن نفى نأيا بنفسي عـــن هـــذه المعارك التي أعتقد أنها قد أخذت حظا كبيرا من النقاش، وحتى لا يأخذني هذا بعيدا عن صـــلب دراســـتي؛ يمكنني أن أقول أن العرب قد عرفوا هذا اللون النثري. والمسألة في رأيي محسومة بأمرين:

أما الأمر الأول فباعتبار أن القرآن الكريم قد نزل وفق طرائق العرب في التعبير ، وليس بالمعقول أن يـــزدحم القرآن بهذا الكم الكبير من القصص ،وأن يعتمد على القصص في تثبيت أمور هامة من أمور الدين دون أن يكون للعرب رصيد من القصص الذي نسجته من قبل أن يأتيها القرآن .

وأمـــا الأمـــر الآخر فإن العرب كما يقول زكي مبارك أمة « كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث ،وأسمـــاء، وخـــرافات ،وأســـاطير، يقضـــون بها أوقات الفراغ، ويصورون بها عاداتهم من حيث لا

[1]- منهج القصة في القرآن ، محمد شديد ، ط1 ، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، 1404هـــ ، 1984م ، ص13.

[2]- القصة في القرآن ، مقاصد الدين وقيم الفن ، محمد قطب ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، 2002م ، ص13.

يقصـــدون ».[1]، فالإنســـان العربي كغيره من البشر عاش الصراع وخاض غمار الحياة ومع دوامة الحـــياة ،وصراعها تحدث القصص، وتحل المآسي وتقع النكبات ، وأيام العرب حافلة بالصراع المهول فحروب القبائل العربية فيما بينها مشهورة معروفة منها ما استمر أكثر من أربعين سنة ، ولا شك أن هذا التناحر يكون مدعاة لحكايات، وقصص تروى وتحكى .

وعلى ضوء هذا يقول فاروق خورشيد أن « العلماء مجمعون على أن العرب في الجاهلية كانت لهم قصـــص كـــثيرة، ومـــتعددة ، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ، والحكايات التي تدور حول أجدادهم وملوكهم،وفرســـانهم، وشعرائهم ، وكتاب "الأغاني " لأبي فرج الأصفهاني يكاد يكون ذخيرة كاملة من القصص الذي تناقله الناس عن شعرائهم، ومجالسهم ،وملوكهم ، وليس كتاب الأغاني هو المرجع الوحـــيد في هذا؛ بل إن المكتبة العربية غنية بأمثال "الأغاني" و" الشعر والشعراء" وكتب الطبقات بما لا يدع مجالا للشك في أن الفن القصصي، قد تناول الحياة الجاهلية في كل مظاهرها». [2]

والقصة كما يعرفها أحد الدارسين هي :« عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب، أو تسجيل لصورة تأثـــرت بهـــا مخيلـــته، أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره، فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهـــان القراء محاولا أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه»[3] ، ولكننا حينما نستعرض ما ورد في القـــرآن مـــن قصص نجد أن هذا التعريف بعيد كل البعد عن مفهوم القصة القرآنية ذلك أنها ليســـت خاطرة في ذهن الله ، ولا تسجيلا لصور تأثرت بها مخيلته، ولا تسجيلا لعواطف اختلجت في صـــدره أراد أن ينقلها إلى الآخرين . بل إن القصة القرآنية نمط إلهي فريد يسموا عمّا هو مطروح من أنمـــاط بشرية مختلفة؛ ذلك أن القرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، وكل ما تضمنه جاء لتحقيق هدف ديني وإن اتخذ الفن مطية لذلك.

إن القصـــة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وسير حوادثه كما هي الحال في القصص الفني،إنما القصة فيه وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها لغرضه الأصيل وهو التشـــريع، وبـــناء الفرد والمجتمع،وأن القصة التي ترد فيه لا يختلف في غايتها عن المثل الذي يضربه الناس.[4]

---

[1]-النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، زكي مبارك،د ط، منشورات المكتبة العصرية،صيدا ، بيروت،دت،ج1، ص241

[2]- في الرواية العربية ، عصر التجميع ، فاروق خورشيد ، ط3 ، دار العودة ، بيروت ، 1997 ، ص27، 28.

[3]- التعبير الفني في القرآن الكريم ، بكري الشيخ أمين ، ص223.

[4]- المرجع نفسه ، ص225.

والقصة القرآنية وهي تساق لإبراز هدف ديني وتحقيق غرض من أغراض العقيدة تفي بمتطلبات الفـــن القصصـــي، وتتضـــمن خصائصه،و عناصره ولكن على طريقتها الخاصة . فكيف استطاعت القصـــة القرآنية أن تجمع بين تحقيق الغرض الديني وبين الرقي الفني ؟ وما هي جماليات القصص التي جاءت لتثبت حقيقة اليوم الآخر ؟

للوقوف على هذا الأمر سأتناول قصتين اثنتين الأولى قصة أصحاب الكهف، والأخرى قصة الذي مر على قرية .

1-قصة أصحاب الكهف:

ورد في ســـبب نـــزولها أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعـــندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ،ووصفوا لهم أمْره وبعض قوله ، فقالوا لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نـــبي مرســـل ، وإلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم :سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمـــرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ؟ وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كـــان نـــبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتَّبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل مُتَقَوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم ، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما قريش فقالا: يا معشر قريش قـــد جئـــناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها فجـــاءوا رســـول الله ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا. فسألوه عمَّا أَمَرُوهم به فقال لهم رسول الله ﷺ :(أخـــبركم غدا عما سألتم عنه ، و لم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خَمْسَ عشرةَ ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام ،حتى أرجف أهل مكة، وقالوا وعدنا محمد غـــدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألنا عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جـــــاءه

جـــبرائيل عليه السلام مـــن الله عز وجل بســـورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إيَّاه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطوَّاف والروح. [1]

---

[1] -تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، م3 ، ص76.

قــال تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ،إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ،فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ،ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ،نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى،وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ،هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ،وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ،وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِوَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ،وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ،إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ،وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ،سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْقُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ،وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ،إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ،وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ،قُلِ

اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:9-26].

فهـــذه قصـــة أصحاب الكهف التي ذكرها القرآن ، وقد أطالت كتب التفسير في ذكر قصتهم على اخـــتلاف الأقـــوال والروايات فيهم ، لكن الذي يعنيني في هذه القصة وهو سبب إيرادي لها في هذا الموضـــع أن هـــؤلاء الفتية أوقظُوا من نومهم الطويل ليكونوا آية للناس، ودليلا شاهدا على قدرة الله عـــلى البعث، وليعلم كل شاك في أمر الساعة أنها آتية لا ريب فيها،واسم القصة " أصحاب الكهف" واســـم الســـورة"الكهف"،والكهف يشي بمعنى الغيب، والاستتار، واليوم الآخر من الحقائق المستترة الغيبـــية عـــن الإنســـان،والتي جاءت قصة أصحاب الكهف، بل والقصص الأخرى الواردة معها في السورة نفسها لتثبته وتقرُّه « ومن هنا فإن اسم السورة لا يجب أن يمر علينا دون أن نفكر فيه ونعلم أن الله ﷻ قد جاء فيها بكهوف معنوية ، يعني أشياء تنبئنا بما يستتر عنا من حقائق في الكون » .[1]

وقصـــة أصـــحاب الكهف كما رأينا من خلال سبب النزول أنها قصة معروفة تاريخيا قبل عصر القـــرآن، لكـــن القرآن حينما يعرضها فإن عرضه لها يكون عرضا جديدا متميزا فهو: « يأخذ مواد قصصـــه من أحداث التاريخ، ووقائعه، ولكنه يعرضها عرضا أدبيا، ويسوقها سوقا عاطفيا يبين المعاني ،ويؤيد الأغراض، ويؤثر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعا استهوائيا يستلهم منها العاطفة والوجدان ».[2]

فالتاريخ في قصص القرآن ليس غاية لذاته ، فالقصة القرآنية ليس مدونة تاريخية لأحداث مضت ،إنمـــا التاريخ هو مصدر للوقائع والأحداث والأشخاص والعبر، يؤخذ منه بالقدر الذي يفي بتحقيق هدف القصة ، ومن الجانب الذي يساير مبتغاها.

وقـــد خضعت هذه القصة في موضوعها وطريقة عرضها ، وإدارة حوادثها لمقتضى الغرض الديني الـــذي ســـيقت مـــن أجله، وهو إثبات قدرة الله على البعث، وتقرير هذه الحقيقة في أذهان الناس وترســـيخ الإيمـــان باليوم الآخر لكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني لم يمنع من بروز الخصائص الفنـــية التي عرف بها القصص القرآني، والتي سأعرض لها أثناء تحليلي لهذه القصة فقد لاحظنا من قبل

---

[1]- معجزة القرآن ، الشعراوي ، ص190.

[2]- الفن القصصي في القرآن،محمد أحمد خلف الله،ط3 ، المطبعة الفتية الحديثة، القاهرة ، 1965 ، ص232ـــ233.

أن التعـــبير القـــرآني يجمع بين الغرض الديني والغرض الفني، بل إنه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني.

أولى هذه الخصائص هي تنوع طريقة العرض،فلقد بدأ القرآن في هذه القصة بتقديم ملخص مجمل لهـــا ثم أعقبه بالتفصيلات بعد ذلك، وهذه إحدى طرق العرض القصصي في القرآن فنجده يورد هذا المـــلخص الشامل للقصة فيقول:﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ،إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ،فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ،ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف:9-12].

هـــذا الملخص يرسم الخطوط الرئيسية العريضة لهذه القصة، فنعلم من خلاله أن أصحاب الكهف فتـــية لا يُعـــلم عددهم آووا إلى الكهف وهم مؤمنون، وأنه قد ضرب على آذانهم فناموا في الكهف سنين معدودة ،ثم بعثوا من تلك الرقدة الطويلة وأن الناس قد اختلفوا في شأن هؤلاء.

هذا التلخيص الموجز الذي بدأت به القصة إنما جاء لضرورة فنية ذلك أن التلخيص ما هو إلا مقدمة شيقة تثير الذهن وتجذب الألباب، وتثير الانتباه، والمسامع إلى التفصيلات المتتابعة بعد هذا الإيجاز.

ثم تتوالى التفصيلات فيحدثنا عن تشاورهم قبل دخولهم الكهف، والهيئة التي كانوا عليها لما دخلوا ،ويخـــبرنا عـــن نومهم، ويقظتهم ،وعن صورتهم بعد استيقاظهم،وإرسالهم واحدا منهم ليشتري لهم طعاما، وَكَشْفِ أمرهم، وموتهم،و بناء المسجد عليهم، واختلاق الناس في أمرهم.

والخصيصة الثانية في القصص القرآني هي انتخابه أجزاء من القصة بأن تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء الغـــرض الديـــني الذي وردت لأجله، ومن الحلقة التي تتفق معه فمرة تعرض القصة من أولها، ومـــرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة تعرض كاملة، وتارة يكتفي ببعض حلقاتها وتارة تتوسط بين هذا وذاك حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك .

فـــنجد قصصا تعرض منذ الحلقة الأول حلقة الميلاد كقصة آدم وعيسى ، ونجد قصصا تعرض من حلقـــة مـــتأخرة نســـبيا كقصة يوسف عليه السلام حيث تبدأ وهو صبي، ونجد قصصا تعرض منها حلقة مـــتأخرة جـــدا كقصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، إذ تعرض قصصهم عند حلقة الرسالة ،وكل ذلك كما قلت حسب الغرض الديني، وقصة أصحاب الكهف تعرض من حلقة متأخرة نسبيا حلقة الأبطال وهم فتية ،وقد ضربت صفحا عن الحلقات الماضية لهذه الفترة لأنها لا تخدم الغرض ولا تناســـب الســـياق ، ومـــن أجل ذلك فإننا قلما نجد القرآن يسرد حوادث القصة سردا تاريخيا تبعا

لسلســلة الوقــائع والأحــداث، لأن ذلك يبعد القصة عن مقصدها الذي أوضحتُه ، فقد بدأ قصة أصـحاب الكهــف بهــذه الآيــات:﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى،وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا،هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف:13-15].

حيــث بــدأ فوصف أصحاب الكهف بأنهم فتية انفردوا عن أقوامهم بالإيمان بالله ﷻ ووحدانيته ،مخالفين ما عليه سائرهم من الشرك والكفر ، ثم تمضي القصة على هذا المنوال تاركة أسئلة كثيرة:

فمن هم هؤلاء الفتية ؟ وفي أي بلدة كانوا يسكنون ؟ وكم كان عددهم ؟ وما هي أسماؤهم ؟.

ومــن المنهج الفني للقصة القرآنية ترك الفجوات بين مشهد ومشهد آخر بحيث يمنح الخيال فرصة للمشــاركة بملئها وإتمام ما نقص من حلقات ليجتاز من مشهد إلى آخر ، وهذا ما نجده في قصة أصحاب الكهف إذ نقف على فجوات كثيرة بداخلها يستمتع الخيال وهو يشارك بإكمالها.

فالقــرآن كمــا سبق وأن قُلت يقدم لنا هؤلاء وهم فتية مؤمنون قرروا هجران قومهم، والفرار بإيمــانهم دون أن ينقل لنا شيئا عن كيفية إيمانهم وتوحيدهم لله ، ودون أن يخبرنا عن طريقة التقائهم واتفاقهم.

ثم ينقلنا مباشرة إلى الكهف حين آوى الفتية فيقول: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف:16]

فتفقد بذلك حلقة من حلقات القصة وهي كيفية وصولهم للكهف واختفائهم، ومكان ذلك وزمانه.

فجــوة أخــرى يــتركها التعبير القرآني في هذه القصة هي بعد أن بُعث هؤلاء الفتية من مرقدهم، وتجادلهم في مدة لبثهم في الكهف؛ قرروا إرسال أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم طعاما، ونظرا لخوفهم أوصــوه أن يتلطف مخافة أن يشعر بهم الناس، لكن ما كانوا يخشونه وقع فعلا يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا . . .﴾[الكهف: 21]

فقـــد قَصَّ من القصة مشهدا بأكمله،إنه مشهد الرسول وهو في المدينة،فنحن لا نجد إلا أنَّ أمرهم قد فضح،لكن كيف تَّم ذلك؟ أكان شكله المخيف؟ أم طريقة تعامله؟ أم كلامه؟ أم الورقة التي بيده؟ كل هذا متروك للخيال بأن يتصور ماذا حدث عندما ذهب رسولهم، وعندما كشف أمره أيضا.

ثم يمضـــي السياق بترك فجوة أخرى بقوله:﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا . . .﴾ [الكهف:21].

فالظاهـــر أنهـــم قد ماتوا مرة ثانية ، والقوم خارج الكهف مختلفون في أمرهم لكن السياق قد تخطى هذا الأمر و لم يأت على ذكره.

ومـــن الخصـــائص الفنـــية للقصة القرآنية وهي خصيصة ظاهرة في هذه القصة التي بين أيدينا،هي المفاجـــأة؛ إذ يجد القارئ للقصة القرآنية نفسَه أمام مفاجآت كثيرة لا يعلم بها، و لم يحسب لها حسابا بل ويفاجأ بعكس ما كان يتوقع.

فـــبعد أن دخل هؤلاء الفتية إلى فجوة الكهف ليسدل عليهم ستار من النوم العميق ، فجأة ينقلب كـــل شـــيء فـــتدب فيهم الحياة من جديد، وإذا هم أحياء يتجادلون بعد تلك السكتة الطويلة :﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ،إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:19-20].

أمـــا المفاجأة الأكبر التي تهز القارئ؛ فهي أمر كشف هؤلاء الفتية بعد أن أرسلوا أحدهم ليحضر لهم طعاما، وهم في أشد الخوف من هذه الخطوة، حيث يتوقع القارئ أن الله ﷻ سيُعْشِي أعينَ الناس عـــنهم، وســـيجعل من بينهم سدا، ومن خلفهم سدا ليحفظ فتية آمنوا به والتجأوا إليه فرارا بدينهم لكن الأحداث تجري بما لا يتوقع فيُكتَشف أمر هؤلاء، ويتعرف الناسُ عليهم :﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف:21].

ويزداد وقع المفاجأة حينما يسدل الستار عن الأبطال بسرعة فائقة؛ فالقارئ يتوقع أن يدخل الناس في جدال مع هؤلاء الفتية لمعرفة سرّهم وإذ بالفتية يعودون إلى الكهف ليموتوا بداخله لأن الهدف من بعثهم قد تحقق وهو إثبات قدرة الله على البعث .

وكنتيجة لخضوع القصة القرآنية للغرض الديني فإن أهم خصيصة من خصائصها هي امتزاج التوجيهات الدينية بسياق القصة قبلها وبعدها وفي ثناياها.

فالقرآن لا يدع القارئ يندمج مع موضوع من مواضيعه وينصرف إليه بكل تفكيره دون أن يفصل بين أجزائه بفواصل من العظات تنبهه إلى المقصود من كل هذه المباحث، وتربط على قلبه برباط من الخشية والمراقبة الإلهية عند قراءتها والتأمل فيها.[1]

وفي قصة أصحاب الكهف تتابع الآيات عرض الأحداث وفي أثناء ذلك ينقطع السرد لتقديم أحد التعليقات القرآنية لتوجيه القلوب في اللحظة المناسبة :﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف:17].

ثم يمضي السياق في إكمال مشاهد القصة لتوقف في اللحظة المناسبة ويلتفت عن القصة ليخاطب الرسول ﷺ والمسلمين ببعض الأوامر والعظات يقول تعالى :﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾[الكهف:22-24].

ثم ما يلبث أن يعود السياق من جديد لتتميم القصة، ولتختتم بعظات أخرى بقوله تعالى :﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا، وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا، وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ

---

[1]- من روائع القرآن ، البوطي ، ص198.

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:26-28].

وقد دلت التجربة التربوية على أن أشد المواعظ الدينية نفاذا إلى القلوب ما عُرض في أسلوب قصصي يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص، والتأثر بالأحداث، والانفعال بالمواقف، ومن هنا كانت الوسائل، والأهداف ترتبط في منهاج التربية ارتباطا متينا ، فبحيوية العرض في القصة الموجَّهة ،وقوة التخييل والتصوير فيها، وتهيئة اللحظة الحاسمة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال النفسي درجة الانصهار مثلما يلاحظ ذلك في القصة القرآنية يحصل من التأثر بالتوجيه التربوي ما لا يحصل عند إقحام ذلك التوجيه على النفس وهي في راحتها واسترخائها أو في انطلاقها وتحرُّرِها.[1]

ثم إن أحداث القصة عرضت بطريقة تصويرية رائعة ،ذلك أن أسلوب القرآن عند ذكر قصة من القصص لا يخبرك عنها إخبارا بل إنه يمر بشريط حي لها على مخيلتك وإحساسك.

إن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها ولا تمثيلا لشخوصها ومشاهدها، وإنما هو بعث لها ،وإعادة لوجودها في النظم المعجز الذي ينقل إلينا الماضي، أو ينقلنا إليه فنطالع هناك الحياة في زمانها ومكانها حتى لكأننا أبناء هذه القصة أو القطعة من الزمن وأهله.[2]

فظاهرة التصوير التي سبق وأن رأينا أنها السمة الغالبة على التعبير القرآني تمتد لتشمل القصة؛بل وتظهر فيها بشكل رائع مبدع ذلك أنه« يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها،فتستحيل القصة حادثا يقع، ومشهد يجري لا قصة تروى، ولا حادثا قد مضى».[3]

والتصوير في مشاهد القصة ألوان : لون يبدوا في قوة العرض والإيحاء، ولون يبدوا في رسم الشخصيات، وليست هذه الألوان منفصلة ، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين فيسمى باسمه؛ أما الحق فإن هذه اللمسات الفنية كلها تبدوا في مشاهد القصص جميعا .[4]

---

(1)- سيكولوجية القصة في القرآن ، التهامي نقرة ، د ط ، الشركة التونسية للتوزيع ، د ت ، ص544.

(2)- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د ت ، ص49.

(3)- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص156.

(4)- المرجع نفسه ، ص156.

وقصـــة أصـــحاب الكهـــف من أروع القصص القرآني في صدقه وسرد حقائقه ، بل هي آية في التصـــوير الفـــني الصادق ، ففي كل مشهد من مشاهدها تصور الأمر كأنه مشاهد للحس ، وكأن الإنسان يعاين الوقائع.

ففـــي المشـــهد الأول يرتسم منظر الفتية وقد غمر الإيمان قلوبهم حتى غدت ثابتة راسخة يوحي بهـــذا الاستعارة الجميلة في قوله تعالى:﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾[الكهف:14]، لأن الربط هو الشد بالحبل ، ولما كان الفـــزع وخـــوف الـــنفس يشبه بالتناسب الانحلال ، حَسُن في شدة النفس وقوة التصميم أن تشبه الـــربط[1]، والمعنى : ربطنا على قلوبهم ، أي ثبتناها وقويناها على الصبر على هجرة الوطن، والنعيم ،والفـــرار بـــالدين إلى غـــار في مكان قفر لا أنيس به، ولا ماء ولا طعام. فقرروا الوقوف في وجه الطغـــيان بـــأن يدعوا إله واحدا ، يقول تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى،وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ،هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ،وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾ [الكهف:13-16].

فها هم يتشاورون في أمرهم يبحثون عن مخرج لهم من هذا العالم الضيق الذي يلفه الشرك والكفر ،فما يكاد القارئ يتلوا هذا الجزء حتى يذهب بخياله مستمعا متأملا ، فأبطال القصة تدب فيهم الحياة ويظهرون أمام القارئ يتحركون ويتجادلون .

وهـــنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة ، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم ويفارقون أهلهم ، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة ، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضـــيق الخشن المظلم هؤلاء يستروحون رحمة الله، ويحسُّون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة :﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾ [الكهف:16]، ولفظة ينشر تلقي ظلال السعة

[1]- من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث ، بدرية بنت محمد ، ص448.

والبحبوحة، والانفساح ، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة، وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء ، إن الحدود الضيقة لتتراح ، وإن الجدران الصلدة لترق ، وإن الوحشة الموغلة لتشف ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق.[1]

إن تلك اللفظة الواحدة في هذا السياق التصويري الرائع وهو يقوم بنقل حركة القلب واطمئنانه، لتدل على أن هناك عالما آخر في جنبات القلب مغمور بالإيمان مأنوسا بالرحمان ، تظلله الرحمة والرضوان.[2]

وفي المشهد الثاني تصوير رائع لنومهم ، فهاهم في فجوة الكهف مستغرقون في نومهم ، قد انقطعوا عن العالم الخارجي فآذانهم صماء عن سماع ضجيجه،وصخبه، ومن روعة التعبير القرآني أن عبر عن ذلك بقوله:﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[الكهف: 11]،و لم يقل على سمعهم حيث كان الغرض منع الأصوات من الوصول إلى الآذان مع سلامتها،وصحة إدراكها فأحاطها الله بمانع لا تنفذ الأصوات منه،فمفعول(ضربنا)محذوف تقديره ضربنا عليهم غشاوة أو حجابا وفي التعبير بـ (ضربنا)استعارة من ضرب الخباء على ساكنه وفيه أيضا كناية عن النوم الثقيل.

ومن المعروف أن الشيء الذي لا ينام في الحواس هو الأذن ، فالإنسان حينما يغمض عينيه لا يرى أبدا، ولكنه يبقى عاجزا أن يغمض أذنيه ، فالأذن تظل تؤدي وظيفتها سواء أراد الإنسان ذلك أم لا ، وإذا كان الإنسان نائما فإنه قد يمر بين يديه شيء فلا يستيقظ ولكن متى حدث ضجيج بجانبه استيقظ فورا؛ ومن هنا فإن الله ﷻ حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون سنين طويلة دون أن يحسوا بما حولهم فإنه لم يأخذ أبصارهم، و لم يجعل حركة قلوبهم تهبط قليلا كحركة قلب النائم ،ولكن ضرب على آذانهم، وكان هذا كافيا جدا ليفصل بينهم وبين الدنيا تماما طوال فترة نومهم، والأذن هي أداة الاستدعاء في الآخرة .[3]

وهاهي الشمس تميل عن الكهف عند طلوعها وغروبها حتى لا تؤذيهم ،وهو وضع عجيب يسّره الله لهم بحكمته،﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ

---

[1]- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م4 ، ج15 ، ص2262.

[2]- القصة في القرآن ، محمد قطب ، ص201.

[3]- معجزة القرآن ، الشعراوي ، الكتاب الأول ، ص 257.

الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾[الكهف:17].

إن المســرح الحديــث بكــل مــا فــيه من طرق الإضاءة ليكاد يعجز عن تصوير هذه الحركة المــتماوجة؛حركة الشــمس وهــي تزّاور عن الكهف عند مطلعها فلا تضيئه (واللفظة ذاتها تصور مدلولها) ، وتجاوزهم عند مغيبها فلا تقع عليهم. [1]

ثم لنــتأمل هيئتهم وهم نائمون:﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[الكهف:18]، فهم يــتراءون أيقاظا وهم في الحقيقة رقود ينقلبون من جنب إلى جنب لتحصل لهم بذلك قواعد الصحة، ،ولا ينســى السياق أن يضيف إلى المشهد صورة رائعة تدلل على تلك اليقظة التي تظهر للرائي ، إنها صورة الكلب وهو باسط ذراعيه قريبا من فرجة الكهف كأنه يحرسهم.

وبعــد هذيــن المشهدين تزداد الأحداث أكثر غرابة وأكثر تشويقا؛ فهاهم في المشهد الموالي تدب فــيهم الحياة من جديد لتأخذ القصة منحى جديدا لم يكن القارئ يتوقعه:﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[الكهف: 19].

لقــد اســتيقظوا بعد ذلك الرقاد الطويل ليتساءلوا فيما بينهم عن مدة لبثهم ونومهم فهم جاهلون بالأمر ، ومع تلك المدة التي ناموها يعتقدون أنهم لم يلبثوا إلا يوما أو بعض يوم ، وهذه إجابة طبيعية لأنهم كانوا نوّما وحينما ينتفي الحدث ينتفي الشعور بالزمن، وشعورهم ذلك هو الشعور نفسه الذي يكــون علــيه النــاس يــوم القيامة حينما يبعثون: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ

[1]- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص157.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [يونـــس:45]، وهم يشعرون بالجوع، والخوف ما زال مسيطرا عليهم مخافة أن يردهم القوم عن دينهم إن ظفروا بهم.

وفي المشهد الرابع تحدث المفاجأة الكبرى بأن يعثر الناس على هؤلاء الفتية ويتعرفوا على حقيقتهم ،﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف:21]، وفي المشـــهد فجوة لم يكن التعبير يحسن إلا بها لأنه أغفل ذكر ما حدث للرسول حينما ذهب إلى المدينة، وكيف عثر الناس عليه ، ليمنح الخيال فرصة لملأ هذا الفراغ وأن يحلق بحثا عن مناظر قد وقعت أثناء كشف الرسول وانفضاح أمر هؤلاء.

وفي المشهد الخامس يظهر من السياق أن الله قد قبض الفتية مرة ثانية بعد أن تحقق الهدف من إعادة إحـــيائهم ،وهـــو إثبات حقيقة البعث،وقدرة الله على ذلك، ثم يصور لنا ذلك الجدال الكبير حول هـــؤلاء الفتية وانقسام الناس في أمرهم إلى فريقين فريق رأى أن يبني عليهم بنيانا، وفريق آخر رأى أن يـــتخذ علـــيهم مسجدا ، والقصة لم تنته عند هذا الحد بل إنها ستظل موضوعا للحديث عبر الزمن تلوكها الألسن،فيختلف الناس في عددهم وما حدث لهم:﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:21].

والحـــوار الدائر بين الناس يرسم أمام القارئ شخوصا تتحرك ، وتتجادل فينجذب إلى جو القصة حتى لكأنه واحد من هؤلاء؛ إذ أن من مميزات الحوار القصصي أنه « يجسد المواقف أمامك ، فتشعر فيه بالحياة المتحركة التي تنتقل من موقف إلى موقف ومن جو إلى جو، وتعيش فيها الأحداث الماضية من خلال أبطالها الذين تشعر بهم ، وأنت مندمج في القصة يتحركون أمامك في أدوارهم وأوضاعهم كمـــا لو كنت حاضرا معهم... ولن يقتصر الموقف على الكلمات التي تنطلق منهم ، بل يمتد الشعور معك إلى إحساسك بالجو الذي يخيم على الموقف، وبالمعاني الخفية التي تختفي وراء الكلمات كما لو كان البطل يتحدث إليك حيث تندمج معه بالإيحاء مع الكلمة،وبالإحساس الخفي مع الحركة ».[1]

[1]- الحوار في القرآن ، قواعده أساليبه معطياته ، محمد حسين فضل الله ، ط3 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت 1405هـــ ـــ 1985م ، ص216.

وفي المشـــهد الأخير الذي يأتي تعقيبا على قصة أصحاب الكهف يكشف النقاب عن المدة الزمنية الـــتي مكثوها في الكهف:﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف:25]،ويذكر الرقم(309) بتلك الصيغة في اتساق جميل بهي مع الفاصلة السابقة واللاحقة .

إذن الإبـــداع في القصص القرآني لم يكن حاصلا من ناحية اللفظ والمعنى فقط وقد رأينا بعضا من ذلـــك الإبداع في اختيار اللفظ المناسب للمعنى في قصة أصحاب الكهف ، بل هو حاصل من منهجه الفريد ونظمه الوحيد، الذي لو حاول أحد تقليده لبدا كلامه مقتضيا مضطربا لا يستقيم مع أسلوب الكـــتابة ، فكـــيف يمكـــن للأداء البشري أن يعبّر على طريقة الأداء القرآني في استحضار المشاهد ، والتعبير الموّجه وكأن المشهد حاضر حي .

وعلـــيه يمكن أن نقول مع سيد قطب رحمه الله :« إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المـــبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها فتستحيل القصة حادثا يقع ومشهدا يجري لا قصة تروى ولا حادثا قد مضى».[1]

2- قصة الذي مر على قرية:

تعـــد قصة الرجل الذي مر على القرية الخاوية من القصص القرآني الرائع الذي جاء ليثبت حقيقة البعـــث، وقـــدرة الله على إحياء الموتى ، وقد وردت القصة في سورة البقرة وهي سورة مدنية قال تعـــالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:259].

وهـــذه القصة قصيرة مقارنة مع قصة أصحاب الكهف ، وهي مأخوذة من الواقع التاريخي لكنها بالصـــيغة التي وردت عليها قد أغفلت تماما كل مقومات التاريخ من زمان ومكان وشخوص ، ولو أنهـــا جـــاءت بهـــا لما زادها ذلك شيئا من الناحية الفنية ولا من ناحية تحقيقها لهدفها« بل إن ذكر

[1]- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص156.

المقومـــات التاريخـــية يقلل من قوة تأثيرها فيشتت الذهن ويربط الفكر بالحدث التاريخي فيضعف من التركيز في العبرة المبتغاة منها». [1]

ذلـــك أنهـــا لم تذكر لنا من هوهذا الرجل؟ و لم تنقل لنا بعضا من صفاته كما هي عادة القصص البشـــري ولا زمـــان حدوث الوقائع ولا مكانها، فحينما يغفل القرآن في القصة ذكر الأسماء كما في قصة الذي مر على قرية أو قصة أصحاب الكهف لأن الهدف ليس الشخص ولكن العبرة والعظة التي قد تتكرر في كل عصر« ولأن التشخيص قد يفسد القضية ، فإذا أردنا أن نحدد من هم أهل الكهف مـــثلا ، ومـــن هو فرعون موسى ، ومن هو قارون إلى آخر الشخصيات التي ذكرت في القرآن فإننا نـــتوه عن الحقيقة التي أراد الله ﷻ أن نعرفها ، ذلك أن هذه الشخصيات تتكرر في كل زمان ومكان وهي قصص مضروبة لكل عصر ، والعبرة هنا تأتي بالشيوع أي تأتي على من تنطبق عليهم القصة في أي زمان كانوا وفي أي مكان وجدوا ». [2]

لكـــن ريشـــة التصـــوير تمـــتد لترسم أمام القارئ الشخصية أو الشخصيات في القصة، وقد ترد الشخصـــية في القصـــص القرآني بصورة إنسانية عادية، وقد تكون شخصية مثالية، وقد تحمل الوجهين الإنســـاني العادي والمثالي في آن واحد « ومهما تكن صورة هذه الشخصية فإنها بطبيعة الحال هي التي تحـــرك الأحداث ، وتضطرب بها أو تقوم الأحداث نفسها بتحريك الشخصيات، أو تتساوق وتتوازن فلا تطغى الشخصية على الحدث ولا يطغى الحدث على الشخصية». [3]

فالتصوير الفني يتناول الشخصية في النسيج الفني كله بأبعادها المراد التعبير عنها حيث تتضح معالمها من خلال حركيتها أثناء القصة.

فإذا كان الفتية في قصة أصحاب الكهف نموذج للشباب الصالح التقي الذي يضحى من أجل عقيدته ؛فإن الرجل الذي مرّ على قرية نموذج للباحث عن الحقيقة .

والقـــرآن لم يبرز هذا العنصر لذاته ولكن للتأسي والاقتداء . لذلك لم يعن برسم الخطوط الشكلية للشخصـــية وإبـــراز ملامحها الخارجية ، كما يفعل بعض المولعين بالقصّ ، فيذكرون مثلا لون الشعر والعيـــنين ، ووصف الفم والأنف والجبين وتشبيه نبرات الصوت والمشية ، وتفسير نظرات الفرح ، والحزن، والغضب، وابتسامات البراءة، والمكر والسخرية، ونحو ذلك من الأوصاف الفيزيولوجية التي

---

(1)- منهج القصة في القرآن ، محمد شديد ، ص36.

(2)- معجزة القرآن ، الشعراوي ، الكتاب الأول ، ص192.

(3)- التعبير الفني في القرآن الكريم ، بكري الشيخ أمين ، ص230.

تجعل الشخصية كأنها ماثلة للعيان ، لأن ذلك كله لا يخدم أي غرض ديني من أغراض القصة القرآنية ، وإنما يكشف القرآن عن مزاج الشخصية ، وعن دوافعها وانفعالاتها وسلوكها من خلال الوصف ،وحكاية الأقوال، والأحداث بصورة عرضية لم تقصد لذاتها بالأصالة.[1]

والقصة القرآنية وهي تعرض شخصياتها في موقف ما ، تهتم بالجانب التربوي الذي تهدف إليه؛ لذلك تأتي شخصياتها طبيعية تدل أفعالها وأقوالها على حقيقتها بلا اختلاف أو تغيير ، فهذا الرجل المار على قرية الذي ضرب مثلا يتساءل بكل صدق عن قدرة الله على إحياء الأموات فيقول:﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ ﴾[البقرة:259]، وتنقل لنا القصة ذلك الشعور الذي يرسم هواجس هذه الشخصية ودوافعها.

وقد عملت ريشة التصوير عملها في هذه القصة فجاءت أحداثها ووقائعها نابضة بالحياة، فتمر القصة بمشاهد متتالية يأخذ بعضها برقاب بعض.

ففي المشهد الأول يرتسم مشهد البلى والخواء والموت ، فلقد ركب الرجل حماره، وحمل معه زاده حتى وصل إلى خرب يمرح فيه الفناء في كل مكان ، فإذا البيوت أطلال قد هدمت قواعدها وخلت من ساكنيها هذا المشهد يرتسم بهذا الوصف الموجز:﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾، ويمعن الرجل النظر في هذا الخواء ، فالمشهد أمامه مرسوم ومجسم، وحواسه كلها تستقبل هذا المشهد وتندهش له ، وتضطرب مشاعر الرجل ، فما أعظم البلى وما أعنف تأثيره عليه،ودار عقله بعيدا ، وقلبه ينبض بمشاعر متسائلة ، وكأنما يعيش لحظة حاسمة في حياته ، حواسه كلها مستفزّة ، وبصره مشدوه....ولا يملك الرجل في هذا الجو المرعب المخيف إلا أن يتساءل في تعجب ودهشة كيف تدب الحياة في هذا الموت من جديد! .[2]

وفي اللحظة التي يتوقع فيها القارئ إجابة عن هذا السؤال الذي عاش حيرته مع بطل القصة ، فجأة يتلاشى كل شيء ويضيع المشهد كله ، وتضيع تفاصيله أمام المشهد الجديد ، فلقد مات الرجل وسكن كل شيء من حوله و لم يقل له كيف « إنما أراه في عالم الواقع كيف ! فالمشاعر والتأثرات تكون أحيانا من العنف والعمق بحيث لا تعالج إلا بالبرهان الفعلي ، ولا حتى بالمنطق الوجداني ، ولا

---

[1]- سيكولوجية القصة في القرآن ، التهامي نقرة ، ص360.

[2]- القصة في القرآن، محمد قطب ، ص399.

تعـــالج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان...إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة ، التي يمتلئ بها الحس ، ويطمئن بها القلب دون كلام».[1]

وتســـحب ألفـــاظ القرآن شريط الحياة مقدار مائة عام ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ ، إذ تدب الحـــياة في أوصـــال ذلك الميت ، انظر إليه وهو يحرك رأسه يمينا وشمالا كأنما نشط من عقال ليفسح المجال لحوار شيّق يثري المواقف، ويحي المشاهد المرسومة، ويصور الانفعالات تصويرا دقيقا كما يحمل الإقـــناع والتأثير﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:259].

حيـــث يقع الرجل في حيرة كبيرة ، فها هو يسأل عن مدة لبثه فيجيب "لبثت يوما أو بعض يوم"، حيـــنها يواجـــه بمـــا يصدمه بإعطائه الحقيقة ،" بل لبثت مائة عام "، ثم يوجّه لينظر ما حوله ، فهذا طعامـــه وشرابه لم يصبهما التغيير ، ومع ذلك تبقى الحيرة سادلة ردائها عليه فيحتاج الأمر إلى دليل حســـي أعظـــم للإقناع، وهو الدليل الذي من أجله قد أميت ثم بعث، انظر إلى حمارك الذي تعرت عظامـــه فـــإذا هي بالية كالرميم ، كيف تتراكب من جديد واستمع إلى قعقعتها كيف ينقلها لك الأســـلوب القـــرآني وانظر إليها وهي تكتسى باللحم ، وكأنما هو ثوب ينشر ليشملها ثم تسري فيه الحـــياة ، فإذا الحياة تدب من جديد فها هو يحرك رأسه وأذنيه ويرفع صوته بالنهيق ليكون دليلا حيا لمن يتساءل عن البعث.

وهـــنا ننبه إلى أمر آخر مهم في القصة القرآنية هو استخدامها المتميز للحيوان والطير حيث أن صـــورة الحـــيوان والطير فيها« تمثل الإعجاز القصصي والبياني إذ تستخدم القصة القرآنية الحيوان لا على سبيل الخيال أو الرمز ، بل تستخدمه استخداما واقعيا لا يكون إلا في واقع القصة القرآنية حيث المعجزة والقدرة الإلهية».[2]

---

[1]- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م1 ، ج3 ، ص300.

[2]- جماليات القصة القرآنية ، يوسف حسن نوفل ، ط1 ، دار الشروق ، 1424هـ ، 2003 م ، ص113.

وهكــذا تتمثل لنا المشاهد والأحداث المحكية ، أمام ناظرنا ، نقف نرقب تفاصيلها بكل إعجاب ودهشــة؛ ذلك لأنها رسمت أمامنا بريشة سحرية أسهمت الألفاظ فيها بشكل رائع ينقل تلك الصور الموحية المؤثرة .

وكعــادة القصص القرآني لم تهمل هذه القصة جانب الموعظة فجاءت العظة الدينية في ثناياها بقوله تعالى:﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ ،وجاءت عقبها بقوله:﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثانيا- الأمثــــــــــال:

المــثل في الأصل بمعنى النظير والشبيه، وهو أحد أقسام علم البيان الهادف إلى تأدية المعنى بصورة أوضــح وأتم ، وقد عرف العرب منذ القديم أسلوب التمثيل في غضون كلامهم ، وقد كثر استعماله في القرآن الكريم أيضا.

قــال الأصــبهاني : لضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء النظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خفــيات الدقــائق، ورفــع الأستار عن الحقائق تريك المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتــيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة، وقمع لضراوة الجــامح الأبي ، فإنــه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه، ولذلك أكثر الله تعالى في كــتابه وفي ســائر كتبه الأمثال، ومن سور الإنجيل سورة تسمى الأمثال وفشت في كلام النبي ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء.[1]

وجاءت الأمثال في الأسلوب القرآني لتكون إحدى الوسائل التي تأخذ طريقها إلى النفس الإنسانية لتثبيت دعائم الإيمان فيها ، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر:27]، وقال أيضا:﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت:43].

وأخــرج البــيهقي عن أبي هريرة قال :قال رسول اللهﷺ :(إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال ،وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه ،واعتبروا بالأمثال).[2]

---

(1)- الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ج2 ، ص132.

(2)- المرجع نفسه ، ص131.

إذ لا يكفـــي أن يساق المعنى الكلي المجرد ليظل جامدا أمام التصور البشري ، بل كان لا بد له أن يتمـــثل في صورة ملموسة محسة ، لأنه مهما أوتي العقل البشري من القدرة على التجريد فإنه يظل في حاجـــة إلى تمثل هذا المعنى المجرد في صور، وأشكال، وخصائص ،ونماذج وإذا كان ذلك شأن العقل البشري مع المعاني المجردة التي تمثل المحدود، فكيف يتمثل غير المحدود وتصور المغيب عن الإدراك؟

ومـــن أجل هذا ضرب الله الأمثال للناس، وقرب إلى نفوسهم، وأحاسيسهم معاني القرآن الكبرى فوضـــعها في الصـــور، والمشاهد والمحسوسات الملائمة لهم ، وخاطب الفطرة الإنسانية بمنطقها الذي تعـــرفه وتدركها ، وعرض عليها الحقيقة التي أغفلت عنها بالأسلوب الذي تألفه، وتتقبله لتقيم على أســـاس هذه الحقيقة منهاج الحياة كلها ، مستقيما مع العقيدة ، مستقيما مع الفطرة ، مستقيما على الطريق إلى هذا الخالق الواحد المدبر الخبير.[1]

وحقـــيقة البعث والحشر من الحقائق التي اهتم بها القرآن الكريم لتقريرها في النفوس لذلك جاءت الآيـــات المخصصـــة لها عامرة بالإقناع فياضة بالأدلة ، و لم يكن ذلك لغموض أو تعقيد القضية بل لمعالجـــة الطبيعة الإنسانية الجاحدة المعاندة ، وإغلاقا لكل منفذ يمكن أن تهرب منه النفس، وتمشيا مع هـــذا الأسلوب الاجتماعي التأثيري أكثر القرآن من ضرب الأمثال في صور أدبية رائعة بلغت الذروة في الجمال والجلال،وصدق الله العظيم إذ يقول :﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف:54].

والأمـــثال في القـــرآن لون من ألوان الهداية الإلهية تغري النفوس على خير أو تحضها على البر ،أو تمـــنعها من الإثم ، أو تدفعها إلى الفضيلة ... وتناولت الإيمان والكفر وفضحت النفاق وحضت على الإنفـــاق، ونادت بالخير ونددت بالشر، وصورت الطيب والخبيث، والصالح، والطالح، ومثلت للحق والـــباطل ، واشـــتملت على بيان بتفاوت الأجر، وعلى تحقيق أمر، أو إبطاله ، وأبرزت المعقول في صـــورة مجسمة، وألبست المعنوي ثوب المحسوس، وفصلت المجمل، وأوضحت المبهم لتهذب الطبائع ،وتقـــلم الغرائـــز الشـــريرة، وتخفـــف من غلواء النفوس، وتحد من ضراوتها، وتطامن من كبريائها وغررها.[2]

---

[1]- النقد الأدبي ، صلاح الدين محمد عبد التواب ، ص28.

[2]- الظاهرة الجمالية في القرآن ، نذير حمدان ، ص92.

وللمـــثل في الكلام مكانة هامة نظرا لماله من وقع لطيف على الآذان وتأثير عجيب في النفوس ،والقلـــوب كما سبق وأن بيّنت ، إذ أنه يقرب المعاني إلى الذهن ، فيفهم الجاهل الغبي ويقمع الجامح الأبيّ، ويزيح اللثام عن المعقول الخفي ، ويعطي السامع الصورة المعبرة بأقصر اللفظة وأبدعه وفي هذا يقول إبراهيم النظام :« يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام :إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكفاية ... فهو نهاية البلاغة ».[1]

وقضـــية البعـــث مـــن أهم القضايا التي واجهها الإنسان منذ فجر وجوده ، فقد حيرت عقله ، وشـــغلت فكـــره ، وما زال دائما وأبدا يتساءل متعجبا عن حقيقة بعثه من جديد بعد موته ، وهل سيعود كما كان بعد الموت، وقد فني جسمه وصارت عظامه رميما ؟

فهذا أبي بن خلف يأتي رسول الله ﷺ وهو بمكة المكرمة وفي يده عظم رميم وهو يفتته ويذروه في الهـــواء وهـــو يقول يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : " نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشـــرك في الـــنار " ونزلت هذه الآيات من آخر يس:﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ،وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ،قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ،الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ،أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ،إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ،فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس:77-83].[2]

فـــأبي بـــن خلف يجادل ويعاند في إنكار البعث، ويضرب لذلك مثالا بسيطا بالعظام التي فتتها ، فـــيرد علـــيه القرآن مستهزئا بحجته الواهية بأن ضرب له مثلا من نفسه، وقد غدت قصته هذه مثلا يورد لإثبات البعث، وقدرة الله على الإحياء بعد الإماتة.

وبين المثل الذي يضرب والقصة التي تورد فارق كبير ، وإن كان هناك جامع مشترك بينهما هو تنبـــيه الذهـــن إلى أخذ العبرة، وقياس الحال على الحال إلا أن الأمثال لا يشترط في صحتها على أنها واقعة تاريخية ثابتة،وإنّما يشترط فقط إمكان صحتها أي وقوعها حتى يتسنى للذهن تصورها كما لو

---

[1]- الأمثال والمثل والتمثُل والمثلات في القرآن الكريم ، سميح عاطف الزين ، ط1 ، دار الكتاب ، بيروت، لبنان ، 1407هـ ، 1987م ، ص21.

[2]- تفسير القرآن العظيم ،ابن كثير ،م3،ص586.

أنهـــا وقعت فعلا ، هذا مع أنه لا يشترط أيضا عدم صحتها في نطاق الواقع التاريخي :« فربما ضرب المـــثل بقصـــته واقعة، وفي القرآن من ذلك كثير، وإنما تسمى القصة عندئذ تمثيلا لأنها سيقت مساق التمثيل بها و لم تورد على أساس الإخبار عنها». [1]

فالآيـــات تبدأ بمواجهة هذا المنكر لإعادة الحياة بأن تدعوه إلى أن يرى خلقه، ويتأمل فيه لأن هذا الخلـــق هـــو خـــير تعبير عن واقعه الذي يعيشه ، والذي تتمثل فيه نشأته وصيرورته كما يراه واقعا ملموسا في حياته يقول له :﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

إنهـــا الفكرة الواضحة وضوح الحياة فإذا كان التفكير بالاستحالة نابعا من التصور الساذج الذي يعجـــب للحـــياة كـــيف تنطلق من التراب الذي لا يملك أي مظهر للحياة فإن بإمكاننا أن نثبت له إمكـــان ذلـــك من ظاهرة بداية الحياة لنتساءل كيف أمكن للنطفة التي ترجع في بدايتها إلى الرب في عمليـــة التحول أن تتحول إلى وجود إنساني كامل ؟، ولنا أن نقول في الجواب إن القدرة التي ولدت الـــنطفة من التراب ثم ولدت الإنسان من النطفة هي التي تعطي التراب سر الحياة لتتحول إلى إنسان كـــامل من جديد، فإن القدرة على الانتقال من العدم إلى الوجود في البداية تستلزم القدرة على ذلك في النهاية لأن أساس الإمكان والاستحالة فيهما واحد لا يختلف ولا يتعدد .[2]

ثم يـــندرج ليسلكَ معه طريقا حسيا بعد أن أتاه في البداية من الطريق العقلي وليزاوج بين دلائل الأنفس، ودلائل الآفاق لإثبات البعث كما جرت على هذا النهج معظم الآيات فيوجهه إلى النظر في كتاب الله المنشور ويأمره بأن يتأمل في الشجر الأخضر الندي المليء بالماء الذي يخرج منه النار.

والمشـــاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجيبة! العجيبة التي يمرون عليها غافلين ، عجيبة أن هـــذا الشـــجر الأخضـــر الريان بالماء يحتك بعضه ببعض فيولد نارا ، ثم يصير هو وقود النار بعد اللدونـــة والاخضـــرار ،والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها ويحتفظ بها ،وهو ريّان بالماء ناضر بالخضرة ،والتي تولد النار عند الاحتكاك كما تولد النار عند الاحتراق .هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزا في الحس ووضوحا،والخالق هو الذي أودع الشجر خصائصه هذه،والذي أعطى كل شيء خلقه ثمّ هدى ،غير أننا لا نـــرى الأشياء بهذه

---

[1]) من روائع القرآن ، البوطي ، ص181.

[2]- الحوار في القرآن ، حسين فضل الله ، ص90.

العـــين المفتوحة، ولا نتدبرها بذلك الحس الواعي فلا تكشف لنا عن أسرارها المعجبة ،ولا تدلنا على مبدع الوجود، ولو فتحنا لها قلوبنا لاحت لنا بأسرارها ،ولعشنا معها في عبادة دائمة وتسبيح.[1]

ووجّهته لينظر في خلق السماوات والأرض،وأن يتأمل خلقهما الأكبر،والأعظم من خلق الإنسان.

إنهـــا لتخشـــع القلوب ، وتذعن النفوس لعظمة هذه الآيات التي تشع بالحقائق كاللآلئ المنيرة حيـــث يـــنطلق منها الإعجاز القرآني على هذا النحو من اليسر في التعبير الذي لا يقدر عليه غيره .. فهـــي آيات لمن تذوق طعم حلاوتها وذابت نفسه إيمانا في ثناياها فانبرى يُسبِّح خالقه الذي يستحق الثـــناء،والحمد، والتســـبيح على ما أودع في نفوسنا من أحاسيس رهيفة ، وما أغدق علينا من نعم جزيلة.[2]

ومـــن الآيات التي ضربت أمثلة للتدليل على البعث قوله تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ،ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[الحج:5-7].

في هـــذه الآيـــات يرد الله ﷻ على الذين شككوا في أمر البعث، وحسبوه مخالفا للسنن المألوفة لأنهـــم رأوا أجساد الأموات تتفرق ، وتتحلل، وتفسد، وتفنى في الأرض، وتختلط بالتراب ، فلا تكاد عقولهـــم تسلم في سهولة ويسر أمر عودتها وتركيبها وصيرورتها جسما حيا يسعى ويدرك ، فقدم لهم مـــثالين حسيين في محاولة واقعية التي تريد أن تجعل من قصة المعاد نظاما للحياة يتمثل في المراحل التي يقطعهـــا وجود الإنسان في بداية وجوده؛حيث ينتقل في كل مرحلة من العدم إلى الوجود، ويتجسَّد في خلق النبات الذي لا يموت إلا ليعود من جديد في عملية بعث الحياة في البذور المتناثرة في الأرض كمـــثل التراب،فساق الدليل الأول على صحة البعث ، باستدلاله بخلق هذا المجادل أولا حيث خلق

---

[1]- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، م5 ، ج23 ، ص2977.

[2]- الأمثال والمثل والتَّمثُّل والمثلات، سميح عاطف الزين،ص159.

أبوه آدم من تراب ، ثم جعل سلالته من بعده من ماء مهين ، من صلب الرجل وترائب المرأة ثم جعل النطفة علقة وهي قطعة الدم المتجمدة ، ثم جعل العلقة مضغة وهي قطعة اللحم وقد تكون هذه المضغة مخلقة ، أو تسقطها المرأة قبل أن تخلق ثم يقرها – ﷻ – في الأرحام إلى ما يشاء ، ثم يخرجهم طفلا ضعيفا في قوته ، وسمعه وبصره وعقله ، ثم يتكامل في قوته وعقله إلى أن يصير في عنفوان شبابه ومنهم من يتوفاه الله ومنهم من يمد الله في أجله حتى يبلغ الشيخوخة والهرم فتضعف قوته ، ويعود كما كان في سالف طفولته لا يعلم من بعد علم كان يعلمه شيئا.

وهذه حكمة الله وقدرته العظيمة تستمر وتتجلى في هذا الدليل الثاني الذي ساقه ـــ عزَّ ذكره ـــ للاستدلال على صحة البعث، وهو الاستدلال بخلقه النبات، فهذه أرض ميتة مقفرة ، ليس للحياة فيها من سبيل فيتزل المولى –ﷻ ـــ بقدرته عليها الماء ، فتتحرك وتهتز وتخرج النبات المختلف ألوانه بقدرة الله الجليلة .[1] .

فلا شك إذن أن الذي أخرج هذا الخلق العجيب من قبل أن لم يكن شيئا وبعث فيه الحياة من حيث لا حياة قادر على البعث بعد الموت، وما وعد به من أمر الساعة حق لاشك في وقوعه.

ولكن التعبير القرآني لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني وحده، وإنما يرمي أيضا إلى رسم صورة حية للمعاني ، فأمثلة القرآن على اختلافها تعتبر لوحات فنية رائعة، ولو تأملنا الآيات السابقة لوجدنا « أن هذه الريشة السحرية من الألفاظ والكلمات والتراكيب التي تخلع على المشاهد فتبعث فيها الحياة متمثلة في صورة الأرض الهامدة الخاشعة التي ترى على قسماتها خشوع الهيبة والجلال لخالقها ، ثم فجأة تهتز وتتحرك وتنفتح وتخرج ألوان النبات من جوفها ، فانظر إلى صورة السكون والخمود تعقبه الحركة والحياة ، فلو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني لما كانت ضرورة لهذا التنويع» [2]

كما يمكن أن نلمح في هذا المثال القرآني الدقة في التعبير بحسن اختيار الألفاظ، واختيار أجزاء الصورة لتتقابل في اللوحة تقابلا دقيقا.

فلاحظ ذلك الاستعمال الفذ للفظة"هامدة"في هذه الآيات لتتناسب مع الجو العام للصورة والسياق حيث قال:﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ

---

[1]– من بلاغة القرآن في مجادلة منكري البعث ، بدرية بنت محمد ، ص130.

[2]– المرجع نفسه ، ص247.

بَهِيجٍ﴾[الحج:5]، بينما نجده يورد لفظة "خاشعة" في قوله تعالى :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[فصلت: 39]، وعند التأمل السرّيع في هذين السياقين يتبيّن وجه التناسب في "هامدة "و " خاشعة ".

إنّ الجـــو في السياق الأول جو بعث وإحياء،وإخراج، ممّا يتسق معه تصوير الأرض بأنها "هامدة" ثم تهـــتز وتـــربو ، وتنبـــت من كل زوج بهيج ، وإنّ الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وســـجود ، يتســـق معه تصوير الأرض بأنها "خاشعة "،فإذا أنزل عليها الماء اهتزّت وربت،ثم لايزيد عـــلى الاهـــتزاز والإربـــاء هـــنا الإنـــبات ولإخراج كما زاد هناك ،لأنه لامحل لهما في جو العبادة والسجود.[1]

والملاحظ على هذا المثال الذي بين أيدينا،وعلى المثال السابق له أن عناصرهما مستمدة من الكون (الشـــجر الأخضر ـــ السماوات والأرض ـــ النبات) والإنسان (كيفية خلقه) وهذه إحدى فنيات المثل القرآني ليظل قريبا من الإنسان أيا كان يعيش حتى يؤدي دوره التأثيري على أحسن وجه وأتمه.

قـــال الزمخشـــري :"التمثـــيل إنما يصار إليه ليكشف المعاني ، وإدناء المتوهم من المشاهد، فإذا كان المتمـــثَّل له عظـــيما كـــان المتمـــثل به مثله ، وإن كان حقيرا كان المتمثل به كذلك ، فليس العظم والحقـــارة في المضـــروب به المثل إلا بأمر استدعته حال الممثل له ، ألا ترى أن الحق لما كان واضحا جلـــيا ، تمـــثل له بالضـــياء والنور ، وأن الباطل لما كان بضده تمثل له بالظلمة، وكذلك جُعل بيت العنكبوت مثلا في الوهن والضعف.[2]

ومـــن الآيات التي احتوت على أمثال للإقناع بحقيقة البعث قوله تعالى :﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ،وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ،وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ،فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ

---

[1]- المرجع نفسه ،ص247.

[2] – البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، م1 ، ص488.

الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ، وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾[الروم:54-58].

حيث ضرب القرآن مثالا للإنسان من ذاته ، هذا الإنسان المعاند المصر على رفض الحقيقة مع أنها ناصعة ساطعة ؛فهذه الآيات تسلط الضوء على رحلة العمر التي يقطعها الإنسان بأطواره المختلفة،والتي تبدأ عندما يكون جنينا، وتنتهي عند حفرة القبر ، وهذه الأطوار المختلفة التي يتقلب فيها الإنسان كفيلة لو فكر فيها، وقدرها حق تقديرها بأن تجعله يوقن بلقاء ربه يوم الحساب ، فالله ﷻ خلق الإنسان من ضعف و لم يجعله ضعيفا وإنما كان الخلق من بعد ضعف في المادة الأولى التي بني منها ثم ينتقل به شيئا فشيئا ليصل به إلى مرحلة القوة والفتوة بكل معانيها بعد ذلك يعود به من جديد لينحدر به إلى مرحلة الضعف فيعملية هدم لذلك البناء حتى يفنى ، أفيكون الذي استطاع أن يبني ثم يهدم عاجزا على أن يبني من جديد ؟

و لم تقتصر أمثلة القرآن في هذا المجال على إثبات البعث وحسب؛ بل إن القرآن قد أورد أمثلة تقرب للأذهان مواقف الحساب وما يكون فيها ، فها هو يمثل أعمال الكفار بالرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف :﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[إبراهيم:18].

فالصورة هنا واضحة جلية والعظة فيها بينة قوية ، تقتلع كل ما يأتي في طريقها فلا شك أن ذلك الرماد في لمح البصر يذهب هباء متناثرا لا يكاد يرى منه شيء وفي لحظة يغدوا في دنيا العدم، فكذلك أعمال الكفار مثلها كمثل ذلك الرماد فإنها مهما تكدست، وتجمعت لا ينال صاحبها منها فائدة أو نفع لأنها مبنية على باطل في الأصل .فلا يقام لها يوم القيامة وزنا ، وكذلك تذهب أعمال الكافرين أدراج الرياح كما تذهب الرماد بالريح .

ثالثا– المشاهد :

لقد كان سيد قطب رحمه الله موفقا أيما توفيق حينما أطلق على آيات اليوم الآخر اسم المشاهد ذلك أن طريقة التصوير الفنية التي تناول بها التعبير القرآني آيات اليوم الآخر خاصة فيما يتعلق منه بالبعث والحشر تحيل تلك الآيات ملاحم رائعة « فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر وتتجدد

الحركات، وينسى المستمع أن هذا الكلام يتلى ، ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع ، فهذه شخوص تروح على المسرح، وتغدوا، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة ، إنها الحياة وليس حكاية الحياة». [1]

ولقد وردت مشاهد القيامة في إطار سردي بالغ الدقة، في الوصف والتصوير،وهي تجسد المستقبل المغيب في نسق مصور نحس فيه ونحن نقرأ، ونتلقى بالصورة الحركة والإيقاع والحياة المتلاطمة، وتعني مشاهد القيامة بتصوير الهول في ذلك اليوم ... وهو هول عام شامل لا يفوت منه شيء . الكون كله بما فيه ومن فيه ، حتى لتبدوا كل المفردات حية شاخصة يدب فيها نوع من الحياة.[2]

ومـــن أروع تلــك المشـــاهد، مشـــاهد يـــوم الروع العظيم بما فيه من انقلابات رهيبة في نظام الكون،وبعث ،وحشر،وحساب.يقول تعالى:﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا،وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا،وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى،يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي،فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ،وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ،يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ،ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً،فَادْخُلِي فِي عِبَادِي،وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر: 21-30].

إنـــه لمشـــهد مذهـــل ترســـم صـــورته هـــذه الفقرات،فدك الأرض هو تحطيم لجميع معالمها ،وتسويتها،أما مجيء الرب سبحانه وتعالى، والملائكة صفا صفا،فهو أمر غيبي لاندرك طبيعته ونحن في هـــذه الأرض،لكننا نحس وراء التعبير بالجلال والهول،كذلك فيما يخص مجيء جهنم لا يمكننا معرفة حقيقة الفعل،ولكننا نفهم من خلال الآيات أن مجيئها يعني القرب من المعذّبين.

إنمـــا الـــذي يرتســـم مـــن وراء هذه الآيات،هو العرض العسكري الذي تجسّده تلك الموسيقى الحادة،القويـــة التنغـــيم ،المنبعـــثة مـــن البـــناء اللفظي الشديد الأسر،فالجبار يتجلى ويتولى الحكم والفصل،والملائكة تقف صفا صفا،وجهنم تتهيأ وتقف متأهبة.

في وســـط هـــذا الهول والروع الذي ترجف له القلوب يقف الإنسان متذكرا مامضى،نادما على ما فرّط، متحسرا على عدم استعداده لهذا اليوم الذي تجلّت له حقيقته المتفزعة،فيقـــول متأوّه

---

(1)- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص34.

(2)- من جماليات التصوير الفني في القرآن الكريم ، محمد قطب عبد العال ، ص132.

﴿ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾.

وفجأة ينقشع عن المشهد ذلك السواد ،وتهدأ كل حركة،ويخيم على المشهد الرضى والاطمئنان،والموسيقى حول المشهد مطمئنة رخية متموّجة،في مقابل تلك الموسيقى الشديدة العسكرية،ويأتي الفرج؛إنه العفو والرحمة والعطف،﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ،ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً،فَادْخُلِي فِي عِبَادِي،وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر:27-30].

أما المشهد الموالي فهو مشهد أكثر إثارة ،وأشد تأثيرا إذ يرسم حالة الناس لحظة قيام الساعة، يقول تعالى:﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ،يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج:1-2]، تبدأ الآية بنداء الناس كلهم المؤمنين والمشركين ، فالخطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن يأتون بعدهم يوم القيامة؛ يطالبهم بتقوى الله وقد عبر عن الذات الإلهية بصفة الرب وقد جاء مضافا إلى ضمير المخاطبين وذلك« إيحاء إلى استحقاقه أن يتقي لعظمته بالخالقية ، وإلى جدارة الناس بأن يتقوه لأنه بصفة تدبير الربوبية لا يأمر ولا ينهي إلا لرعي مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم».[1]

"إن زلزلة الساعة شيء عظيم" وهذه الجملة في موضع العلة لتأمر بالتقوى وقد أكدت هنا بـ "إن" والتي هي من أقوى أدوات التوكيد حيث تريد العبارة « أن توقظ النفس الإنسانية من سباتها العميق و تطلعها على أهول يوم القيامة فنراها تهز النفوس بحروفها و كلماتها لتلتفت إلى ما ينجيها في ذلك اليوم العظيم و لتثبت حقيقته بطريقة الترهيب»[2]. و لدخول إن على الجملة فوائد منها « أنك ترى الجملة إذ هي دخلت ترتبط بما قبلها و تأتلف معه و تتحد به حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا و كأن أحدهم قد سبك في الآخر» .[3]

و الزلزلة ظاهرة معروفة،و حقيقتها تحريك شديد بأن يضاعف زليل الأشياء عن مقارها،ومراكزها

---

(1)- تفسير التحرير والتنوير ،محمد الطاهر بن عاشور ، ج17، ص186.

(2)- من بلاغة القران في مجادلة منكري البعث ،بدرية بنت محمد،ص264.

(3)- دلائل الإعجاز ،عبد القاهر الجرجاني،ص209.

مـــن أثر ضغط مجاري الهواء الكائن في طبقات الأرض القريبة من ظاهر الأرض و هي من الظواهر الأرضـــية المرعبة بشناعتها خسف الأشياء في باطن الأرض و إضافة " الزلزلة " إلى الساعة على معنى (في) أي الزلـــزلة التي تحدث وقت حلول الساعة ،أو أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هي التي تزلـــزل الأشياء على المجاز الحكمي فتكون الزلزلة مصدرا مضافا إلى فاعلة و يمكن حمل الزلزلة على الحقيقة أو تكون مجازا عن الأهوال و المفزعات التي تحصل يوم القيامة.[1]

و العظـــيم :الضخم و هو هنا استعارة للقوى الشديد و المقام يفيد أنه شديد في الشر [2]، و الضمير في" تروها " عائد على الزلزلة .

و الذهـــول : نسيان ما من شأنه أن لا ينسى لوجود مقتضى تذكره ، إما لأنه حاضر، أو لأن علمه جديـــد، و إمـــا ينسى لشاغل عظيم عنه ، فذكر لفظ الذهول هنا دون النسيان لأنه أدل على شدة التشاغل .[3]

و قـــد عبر بلفظ "مرضعة " دون " مرضع " ذلك أن المرضع من لها ولد ترضعه ، والمرضعة :من ألقمـــت الـــثدي للرضيع ، فالتعبير ب"مرضعة " أبلغ من مرضع في هذا المقام، فالمرأة قد تذهل عن الرضـــيع إذا كان غير مباشر للرضاعة فإذا التقم الثدي و اشتغلت بإرضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظـــم عندها من اشتغالها بالرضاع[4]. فهي تنزع ثديها عن فيه لدهشتها مما ترى من الأهوال ،و في اختـــيار الأم والإرضاع دلالة أخرى، هي أن غير المرضعة سوف يذهل هو أيضا، سواء أكانوا رجالا أم نساء ذلك أن شفقة الأم على الابن أشد من شفقة الأب، وشفقتها على الرضيع أشد من شفقتها عـــلى غيره و كل ذلك يدل بدلالة الأَوْلَى على ذهول غيرها من النساء و الرجال ،«وقد حصل من هذه الكناية دلالة على جميع اللوازم لأن دلالة الكناية عقلية و ليست لفظية ».[5]

و في "تذهـــل كـــل مرضـــعة " كناية على أن الهول يلزم الجميع من رجال و نساء فليس الأمر مقصـــورا على المرضعات فحسب ،بل هو عام للجميع،ذلك أنه إذا شمل الروع والفزع المرضع ،فهو لباقي الخلق أشمل «لأن خصوصية هذا المعنى بهذا المقام أنه أظهر في تصوير حالة الفزع و الهلع، بحيث

---

(1)- انظر التحرير و التنوير ،محمد الطاهر بن عاشور ،ج17،ص187،و الكشاف ،الزمخشري ،ج3، ص24.

(2)- التحرير و التنوير ،الطاهر بن عاشور ،،ج17،ص188.

(3)- المرجع نفسه ،ص189.

(4)- التفسير القيم ،لابن القيم ،ص383.،

(5)- التحرير و التنوير ،الطاهر بن عاشور ،ج17،ص189.

يذهـــل فـــيه من هو في حال شده التيقظ لوفرة دواعي اليقظة و ذلك لأن المرأة لشدة شفقتها كثيرة الاستحضـــار لمـــا تشفق عليه، و أن المرضع أشد النساء شفقة على رضيعها و أنها في حال ملابسة الإرضـــاع أبعد شيء عن الذهول فإذا ذهلت عن رضيعها في هذه الأحوال دلّ ذلك على أن الهول العـــارض لهـــا هول خارق للعادة ،و هذا من بديع الكناية عن شدة ذلك الهول لأن استلزام ذهول المرضـــع عـــن رضـــيعها لشدة الهول يستلزم شدّة الهول لغيرها بطريق الأوْلى،فهو لزوم بدرجة ثانية ،وهـــذا الـــنوع من الكناية يسمى الإيحاء »[1]،و "عمّا أرضعت "عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته وهـــو الطفـــل ،وفي التعبير بـــ"ما "الموصولة وصلتها في تعريف المذهول عنه دون أن يقول ابنها « للدلالـــة عـــلى أنها تذهل عن شيء هو نصب عينيها وهي في عمل متعلق به وهو الإرضاع زيادة في التَكَنِّي عن شدّة الهول» .[2]

وقولـــه " وتضع كل ذات حمل حملها "أي تضع جنينها لشدّة اظطراب نفسها من كثرة الفزع والرعب وهو كناية أيضا كقوله "تذهل كل مرضعة " فعن الحسن قال:تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام [3]،وفي اختيار "ذات حمل "بدلا من "حامل "سر بديع ذلك أنّ «الحـــامل تطلـــق على المهيأة للحمل وعلى من هي في أول حملها ومباديه فإذا قيل ذات حمل لم يكـــن إلا لمن قد ظهر حملها وصلح للوضع كاملا أو سقطا كما يقال ذات الولد»[4]،"وترى الناس ســـكارى وماهم بسكارى "والسكران هو الذي اختل عقله واضطرب من فرط شرب الخمر وهو تشبيه لحالهم فما هم بسُكارى حقيقة ولكن اضطربت عقولهم وفقدت تميّزها لما أرهقهم من الأهوال الـــتي شـــاهدوها وهـــذا لإظهار شدّة الفزع في ذلك اليوم العظيم «حتى يبدو للرائي أنه قد ذهبت عقولهـــم بسكر،ولكن الأمر ليس كذلك ،لذا أكدت الآية نفي السُّكرِ عنهم بالتعبير بالجملة الاسمية لتأكـــيد اســـتمرار النفي الحاصل قبل»[5]،وفي مجيء الفعل "رأى "مرة بصيغة الجمع "تروها "،ومرة بصـــيغة الإفراد "ترى "علة، ذك أنّ الزلزلة أمر مشاهد من طرف الجميع أمّا ذهول المرضعات ووضع ذوات الحمل وتخبط الناس كالسكارى ليس متاحا للجميع مشاهدته .

---

(1)– المرجع نفسه،ج17،ص ص189-190.

(2)– المرجع نفسه،ج17،ص190.

(3)–الكشاف ،الزمخشري،ج3،ص26.

(4)–التفسير القيم،ابن القيم ،ص383.

(5)– من بلاغة القرآن في مجادلة منكري البعث ،بدرية بنت محمد ،ص265.

إن هـــذا النسيج المحكم لما رأيناه في بناء الآيات القرآنية السابقة، سواء أكان متصلا بالمفردات أو بـــالمعنى،وهذا الإحكام الفني الرائع ليمنح الصورة القرآنية دقّة ويزيدها قوّة؛إذ أننا نلمس فيها حلول الألفاظ في مواضعها،ودقّة في انتقائها،وترتيبها حسب الأهمية،ومتانة في سبكها،وإحكاما في تركيبها ،وغزارة في معانيها وسلاسة في نسقها.

نعم لقد هندست هذه الآيات هندسة فريدة عجيبة، حتى صار كل لفظ فيها يتعلق بالآخر متمكن في موضـــعه لا يمكن أن ينوب عنه غيره، فعبثا يحاول الإنسان أن يجد لفظا يضعه بدلا من لفظة، فلو انـــتزعها مـــن مكانها لانهد البنيان ولفسد البيان،مع أنها لفظة مألوفة بسيطة متداولة كما رأينا حينما وقفنا عند معناها اللغوي ، فالقرآن يبني عباراته من المواد اللغوية نفسها التي يبنى منها العرب عباراتهم لكـــن بهندسة مختلفة متميزة؛إذ أن «صنعة البيان كصنعة البنيان ، فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادة بـــناء لم تكن في الأرض ولا يخرجون في صنعتهم عن قواعدها العامة ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدرانا مرفوعة، وسقفا موضوعة ، وأبوابا مشرعة ، ولكنهم تتفاضل صناعتهم وراء ذلك في اختيار أمـــتن المـــواد وأبقاهـــا على الدهر وأكنّها للناس من الحرّ والقرّ، وفي تعميق الأساس وتطويل البنيان وتخفـــيف المحمول منها على حامله، والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة و ترتيب الحجرات و الأبهاء،بحيـــث يتخلـــلها الضوء والهواء،فمنهم من يفي بذلك كله ،أو جلّه،ومنهم من يخلّ شيء أو أشـــياء إلى فـــنون من الزينة و الزخرف يتفاوت الذوق الهندسي فيها تفاوتا بعيدا ؛كذلك أهل اللغة الواحـــدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حظها في الحسن و القبول، و ما من كلمة مـــن كلامهـــم و لا وضـــع من أوضاعهم خارج عن مواد اللغة و قواعدها في الجملة و لكنه حسن الاختـــيار في تلـــك المواد و الأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعي سمعك، و يثلج صدرك و يملك قلبك، و سوء الاختيار في شيء منه ذاك قد يترل به حتى تُمجُّـــه أذنك و تغثي منه نفســـك و ينفر منه طبعك ».[1]

إضـــافة إلى ذلـــك كلـــه نجدها تبعث في النفس اهتزازا مشبعا بالإعجاب والانبهار والقوّة ،وتثيرها وتحفـــزها للتجاوب والتفاعل،فهي ترسم مشهدا مذهلا مفزعا «مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عمّا أرضـــعت ،تنظر ولا ترى،وتتحرك ولا تعي،وبكل حامل تسقط حملها للهول المروّع ينتابها،وبالناس ســـكارى ومـــا هم بسكارى يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة وفي خطواتهم المترنحة.مشهد مزدحم

---

[1]- النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص90.

بذلـــك الحشد المتماوج تكاد العين تبصره بينما الخيال يتملاه،والهول الشاخص يذهله ؛فلا يكاد يبلغ أقصـــاه،وهو هـــول حـــي لا يقاس بالحجم والضخامة ولكن بوقعه في النفوس الآدمية في المرضعات الذاهلات عمّا أرضعن والحوامل الملقيات حملهن،والسكارى وما هم بسكارى[1]

ومن المشاهد المثيرة أيضا، مشهد الناس وهم واقفون للحساب بين يدي اللهﷻ، يقول تعالى :﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ،قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ، وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾[القصص:62-64] .

فـــبعد أن تنكشف أرض المحشر وتهيأ للحساب، ويهدأ من حولها كل شيء يحضر الخلق أمام اللهﷻ فيصدمهم بسؤال محيِّر :﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ؟﴾، وهنا ترتسم صورتهم وهم يتخاصمون، يحـــاول كل منهم أن يتنصل من الآخر ، وأن يلصق التهمة به ،والله يعلم أن لا وجود لهؤلاء الشركاء الـــيوم، ولكنه الخزي والفضيحة، وهم لا يجيبون بل يحاولون الهروب من هذه المواجهة الصريحة بأن يقولـــوا أنهـــم لم يغـــووا هؤلاء قسرا، و لم يجبروهم على اتباعهم وإنما اتبعوا الغواية عن رضى منهم واختـــيار، فـــيقولون:﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:63].

وهـــنا يتدخل المولى عز وجل بإلقاء السؤال من جديد بصورة أكثر صراحة لمنعهم من أن يخوضوا فيما لا فائدة فيه﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾،حتى لا يخرج الحوار عن هدفه الموضوع له، فالمنهج العلمي لـــلحوار «يقتضي تحديد نقاط الاختلاف بين المتحاورين بدقة، ثم ترتب في سلم المحاورة الواحدة بعد الأخـــرى ، يـــبدأ بـــالأهم فالمهم فينتقل الحوار من الأصول إلى الفروع ومن الكليات إلى الجزئيات بتناســـق عـــلمي مطـــرد ، فليس من الحكمة أن نناقش الفروع قبل الاتفاق على الأصول ، فتحديد الهـــدف إذا وســـيلة مـــن وسائل ضبط الحوار وذلك بمنع تشعبه ودخوله في متاهات واستطرادات لاطائل من ورائها».[2]

---

[1]-مشاهد القيامة ،سيد قطب،ص222.

[2]- الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية،أحمد بن عبد الرحمان الصويان،ط1،دار الوطن،الرياض،1413هـــ،ص65

بعد هذا تسلط الأضواء على هؤلاء،فهاهم ينادون لكن لامن مجيب فلا حياة لمن ينادون ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾، ساعتها يدركون الحقيقة،ويتمنون أن لو كانوا مهتدين.

وقريـــب من هذا المشهد ،المشهد الآتي الذي يرتسم بهذه الآيات:قال تعالى:﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ،هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[يونس:28-30].

فـــإذا كان الشركاء قد تغيّبوا في المشهد السابق عن الحضور؛فإنهم في هذا المشهد يحضرون مع من أشـــركوا بهم،ذلك أن النداء يوجّه إلى هؤلاء وهؤلاء﴿ مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾، «وأمرهم بملازمة المكـــان تثقيف وحبس ،وإذ قدجمع فيه المخاطبون وشركاؤهم عُلِم أن الحبس لأجل جريمة مشتركة بين الفريقين،وهي كون أحد الفريقين عابدا والآخر معبودا».[1]

فيقفون بلا حراك ،وتصمت من حولهم الأصوات ،ثم يفرق بينهم لتبدأ المواجهة الحاسمة.

فهـــؤلاء الشركاء الذين كانوا يعبدون يظهرون ضعافا يطلبون البراءة من إثم أتباعهم،ويلجأون إلى الله مستشـــهدين به،وهنا ينسحب البساط من تحت أقدام المشركين،فمن أشركوهم قد تبرأوا منهم،وتبيّن لهم أنهم على ضلالة.

وهكذا يتجلى المشهد الحي في ساعة الحشر،بكل حقائقه،وبكل وقائعه،وبكل مؤثراته،واستجاباتـــه ،تعرضه تلك الكلمات القلائل،فتبلغ من النفس مالا يبلغه الإخبار المجرّد،ولا براهين الجدل الطويل.[2]

ومن المشاهد الحافلة بالحوار والحركة المليئة بالإثارة قوله تعالى:﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ،قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ،وَقَالَ الَّذِينَ

---

(1) - التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور ،ج11،ص150.

(2)- في ظلال القرآن ،سيد قطب ،م3،ص1780.

اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ،وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[سبأ:31-34].

فالمشهد مشهد خصومة وجدال بين التابعين ومتبوعيهم ،فالتابعون وقد سموا في هذا المشهد بالمستضعفين يردون سبب كفرهم وعصيانهم إلى المتبوعين، وقد سموا هنا أيضا بالمستكبرين ؛فيقولون لهم لولاكم لكنا مؤمنين، أما المستكبرون فيحاولون دفع التهمة عن أنفسهم بأن جعلوا سبب صدِّ هؤلاء عن الهدى راجعا إلى نفوسهم المجرمة.

ويستمر الجدال بين الفريقين وهم في ساحة العرض والأضواء في المشهد مركّزة عليهم،ويدع السياق هذه المحاورة مستمرة دون أن يتدخل لأن « المحاورة تخاطب الجانب العقلي في الإنسان من جهتين ؛إحداهما عرض الحقيقة نفسها ،وهو موضوع المحاورة كالعقيدة مثلا...والجهة الأخرى المباراة بين المتحاورين،والصراع العقلي الذي يدور بينهما ،والحجج التي يتحاوران بها،وكل ذلك يستدعي من السامع أن يشحذ عقله ،ونشاط ذهنه ،ليتابع هذه المباراة ، إما متقمصا شخصية الحكم،وحينئذ يشحذ عقله لإيجاد الحكم ،وإما منحازا إلى أحد الطرفين وحينئذ يجهد عقله للبحث عن حجج يدعّم بها موقف المنحاز له ،وأما مجرّد مشاهد لهذه المباراة .ومع أنّ هذه أضعف وسائل التنشيط الذهني إلا أنها أيسر الفروض ستجعله يستخدم عقله لاستيعاب الصراع العقلي،والحجج المتبادلة ،ليحقق لنفسه المتابعة الصادقة،والاستمتاع بالتباري بين طرفي المحاورة،ثم التخمين بفوز أحد الطرفين،وفي كل هذه الأحوال نجد السامع قد أيقظ عقله، ونشّطه للتفكير في موضوع المحاورة ،وفي الصراع الذي يدور حول هذا الموضوع، واستخدام العقل عامة-فضلا عن شحذه- من أهم أهداف القرآن الكريم في كل أساليبه».[1]

بعد ذلك الجدال العنيف يدرك هؤلاء وهؤلاء أن لافائدة من مخاصمتهم تلك؛فالكل قد أذنب ولانجاة له اليوم،فإذا البؤس باد على الوجوه الكالحة التي أيقنت بالهلاك،ويسود ساحة العرض صمت رهيب فالكل قد دفن ندامته في صدره،وفجأة تقطع هذا الصمت الرهيب قرقعة السلاسل التي تُلف بها أعناقهم إذلالا لهم وتبكيتا﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾،فهم الآن سواء في الجريمة

---

[1] - أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ،عبد الحليم حفني ،ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر ،1985،ص51.

فاســـتحقوا العقـــاب بنفسه فلا ضعيف ولامستكبر " الذين كفروا "،وأخيرا يسدل الستار على منظر هؤلاء وهم يساقون إلى مصيرهم المحتوم﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

ومـــن المشاهد أيضا قوله تعالى :﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ،وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم ﴾[إبراهيم21-22].

هذا مشهد طريف منْ مشاهد الحشر،وإن كنت قد أوردت من قبل مشاهد شبيهة له إلا أن في هذا المشهد تحضر شخصية جديدة ،هي شخصية الشيطان.

وفي هذا المشهد تتجسد أمام الخيال ثلاث فرق:

الضـــعفاء:الذين كانوا ذيولا للأقوياء،وهم مازالوا في ضعفهم،وقصر عقولهم،وخور نفوسهم،يلجأون إلى الذين استكبروا في الدنيا ،يسألونهم الخلاص من هذا الموقف تماما كما كان في الحال في الدنيا من حمايـــة الرئـــيس لأتباعه فيما يواجهونه من مشاكل ومتاعب إزاء ماقدّموه من أعمال وينطلق لسانهم بلهجة متوسلة يائسة تحمل كثيرا من خيبة الأمل،وعدم الثقة بالنتيجة﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾.

الذين استكبروا: وقد ذلت كبرياؤهم ،وواجهوا مصيرهم،وهم ضيقو الصدور بهؤلاء الضعفاء ،الذين لا يكفيهم ما يرونهم من ذلة وعذاب،فيسألونهم الخلاص،وهم لا يملكون لذات أنفسهم خلاصا.

وتـــأتي الصـــورة القرآنـــية لتجسّد لنا الموقف المتهرّب من أولئك المستكبرين باعتبار الموقف يائسا للطـــرفين ؛فهـــم لا يملكون لأنفسهم شيئا فكيف يملكون لهم الحماية في هذا المجال ،فليس في الموقف متّســـع للحساب،وليس هناك مجال للهروب ،بل هو الاستسلام البائس للمصير المحتوم﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيص ﴾.

الشـــيطان: بكل ما في شخصيته من مراوغة، ومغالطة ،واستهتار وتبجّح،ومكر،وظهوره المفاجئ في المشـــهد يضـــفي علـــيه طرافة رائعة؛ فبعد أن كانت الأنظار مشدودة إلى الضعفاء والمستكبرين،يبرز الشيطان ليسرق الأضواء ويغيّر مجرى الحوار بأن ينفض يديه من هؤلاء وهؤلاء، ويتبرّأ منهم جميعا.

وإن هـــذا لهـــو الإبـــداع في تصـــوير الموقـــف ،الذي يتخلى فيه التابع عن المتبوع،ويتنكر المتبوع للتابع،حيـــث لا يجدي أحدا منهم أن يتخلى، أو يستمسك،ولكنها طبيعة كل فريق تبرز عارية أمام الهول العظيم.

وإن الشيطان هنا لمنطقي مع نفسه،ومع الصورة التي يرسما القرآن له.وإلا فما يكون شيطانا بغير هذا التلاعب والتبجح والتنكر.[1]

إن القـــرآن يريد أن يرسم الصورة على الطبيعة كما هي في الدنيا لأن الآخرة هي مرآة الإنسان في الدنيا فلا يحشر الإنسان بخلق جديد ،ولا بفكر جديد ؛بل يحشر الإنسان على الصورة التي كان يقف عليها ليقف بين يدي الله سبحانه وتعالى وهو يحمل في داخله صورته الحقيقية بكل ما تحتوي عليه من دوافع،ونيّات،وأفكار ليحاسب على أعماله من خلال واقع حياته الذي كان،دون ما لم يكن.[2]

---

[1]- انظر : مشاهد القيامة ،سيد قطب ، ص 167-168.

[2]- الحوار في القرآن ،حسين فضل الله ، ص360.

الخاتمـــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مما تقدم يمكن أن أجمل النتائج التي توصلت إليها دراستي في:

- أن الدراسة الفنية توضح بجلاء مقدار ما يزخر به النص القرآني من ذخيرة فنية و ما يتميز به من خصائص فذة ،من قوة في الإيحاء ،و دقة في التصوير ،و متانة في السبكْ ،و روعة في الأداء ،و إتقان في التركيب و النظم و جمال في الإيقاع.
- أن كل ما تقدم من تلك الخصائص و غيرها،إنما يساق لغاية سامية هي تحقيق الغرض الديني عن طريق تحريك العقل و إثارة الوجدان و المخيلة ، فالقرآن يجعل الجمال الفني وسيلة مقصودة للتأثير الوجداني .
- يصل التعبير عن البعث و الحشر في القرآن الكريم قمة في الجمال عن طريق مجموعة من المفردات الفصيحة القوية الإثارة والتي تساهم إسهاما رائعا في إخراج المشهد كاملا إخراجا حيا مصورا .
- بلاغة القرآن النادرة التي لا يحيطها وصف و لا يستطيع أن يكشف خصائصها باحث و يكفيك أن علوم البلاغة و النقد و الإعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هده البلاغة و أسرارها ثم هي الآن و بعد قرون مديدة من الزمان لا تزال في أول الغاية على أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته و كناياته و تشبيهاته و أمثاله و حكمه و إيجازه و مجازه فهي تشمل كل خصائص الفن الأدبي و البياني في القرآن الكريم.
- صَوَّرَ القرآن بألفاظه و عباراته أروع ما تكون عليه الآخرة في جانبيها البعث و الحشر حيث أفاد كل منها إفادة تامة، بتقريرها حقائق متعددة ،وفي كل لفظ منها و في كل عبارة منها تتجسد روعة التصوير و حسن الإخراج و صدق الجمال و قوة الإيحاء و التناسق في الأداء.
- و تظهر أيضا من خلال تحليل آيات البعث و الحشر قدرة القرآن الفنية الفائقة مثل طول النفس و تناول الموضوع الواحد بالعديد من الصور و التراكيب وإقحام الخصم فكرا و وجدانا بالحقائق القرآنية التي اكتسبت لبوس الروعة الفنية و شحنها بالمؤثرات الكلامية الملائمة و أنواع التزيين اللفظي المعنوي و تنويع طرائق البيان .
- روعة القرآن وجدته وأخذه بالأفئدة والأسماع والمشاعر،والعواطف والنفوس،وبساطة أسلوبه،ووضوحه،وجماله وقوته،وجزا لته،وعذوبته،وهو أسلوب

أدبي شـــيق ذو نغمـــة مثيرة ومؤثرة في عرض الحقائق والأحداث والحالات النفسية على شتى أنواعها.

- سمـــو الـــروح في القـــرآن الكـــريم فهو ليس كتاب قصص ،أو تسلية أو أدب أو حكمـــة،أو فلســـفة،أو تـــاريخ أو اجتماع،وإنما خلاصة لكل مافي الحياة من ثقافة وحقائق.
- إنـــه لابـــد لدارس القرآن أن يعتمد على الحس الفني قبل اعتماده على ما تعلمه من مصطلحات بلاغية،وقواعد نحوية،وصرفية،والتزامات لغوية،ليستطيع أن يدرك شيئا من فن القرآن.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمـــة

المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* القرآن الكريم برواية حفص .

1- الإبـــداع الفـــني وتـــذوق الفـــنون الجميلة،علي عبد المعطي محمد،دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية،1985م.

2- الإتقان في علوم القرآن،جلال الدين السيوطي،د ط،دار الفكر،د ت.

3- أســـرار الـــبلاغة في علم البيان،عبد القاهر الجرجاني،تحقيق:محمد الاسكندراني ومحمد بن مسعود،ط2،دار الكتاب العربي،بيروت،1418هـــ-1998م.

4- الأســـس الفنـــية لأساليب البلاغة العربية،ناجي مجيد عبد الحميد،ط1،المؤسسة الجامعية للدراسات،بيروت،1984م.

5- أســـلوب المحـــاورة في القـــرآن الكريم،عـــبد الحلـــيم حفني،ط2،الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر،1985م.

6- الإعجـــاز البياني في صيغ الألفاظ(دراسة تحليلية للأفراد والجمع في القرآن)،محمد الأمين الخضري،ط1،مطبعة الحسين الإسلامية،القاهرة،1413هـــ-1993م.

7- الإعجاز الفني في القرآن،عمر السلامي،د ط،مؤسسة عبد الكريم،تونس،1980م.

8- إعجـــاز القرآن والبلاغة النبوية،مصطفى صادق الرافعي،ط2،دار الكتب العلمية،بيروت، 2003م.

9- الأمثال والمثل والتمثل والمثلات في القرآن،سميح عاطف الزين،ط1،دار الكتاب،بيروت ،لبنان،1407هـــ-1987م.

10- ابن القيم وحسه البلاغي،عبد الفتاح لاشين،ط1،دار الرائد العربي،بيروت،لبنان،1406 هـــ-1982م.

11- اجـــتهادات في التفسير العلمي في القرآن الكريم،محمد عادل أبو الخير،ط1،مكتب الدلتا للطباعة،القاهرة،مصر،د ت.

12- بديع القرآن،ابن الأصبع المصري،ت:حنفي محمد شرف،ط2،دار النهضة،مصر،د ت.

13- الـــبرهان في علوم القرآن،بدر الدين الزركشي،تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم،د ط،دار التراث،القاهرة،د ت.

14- بلاغـــة القرآن بين الفن والتاريخ:دراسة تاريخية فنية مقارنة،فتحي أحمد عامر،د ط،منشأة المعارف المصرية،د ت.

15- البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية،عبد الله سليمان هنداوي،ط6 ، 1411هـ-1995م،مطبعة الأمانة،مصر.

16- بيان إعجاز القرآن:ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز،أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي ،تحقيق:محمد خلف الله وزغلول سلام،ط2،دار المعارف،مصر،1287هـ-1968م.

17- البيان والتبيين،أبو عثمان بن بحر الجاحظ،تحقيق:درويش جودي،المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت،1423هـ-2003م.

18- تأويل مشكل القرآن،أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة،شرح ونشر:أحمد صقر،ط3 ،المكتبة العلمية،القاهرة،1401هـ-1981م.

19- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن،ابن أبي الإصبع المصري ،تحقيق:حفني محمد شرف،مطابع شركة الإعلانات الشرقية،القاهرة،1383هـ.

20- التحرير والتنوير،محمد الطاهر بن عاشور،د ط،الدار التونسية للنشر،تونس،1984م.

21- التصوير الفني في القرآن،محمد قطب،ط13،دار الشروق،بيروت،1386هـ-1966م.

22- التعبير الفني في القرآن الكريم،بكري الشيخ أمين،ط1،دار العلم للملايين،بيروت،1994

23- التعبير القرآني،فاضل صالح السامرائي،ط2،دار عمار،عمان،الأردن،2002م.

24- تفسير أبي السعود:المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،محمد بن محمد العمادي أبو السعود،ط2،دار إحياء التراث العربي،بيروت،1990م.

25- التفسير البياني للقرآن الكريم،عائشة عبد الرحمان،ط2،دار المعارف،القاهرة،1982م.

26- تفسير القرآن العظيم،أبو الفداء إسماعيل بن كثير،ط1،الشركة الدولية للطباعة،القاهرة، 2001م.

27- التفسير القيم،ابن القيم الجوزية،د ط،دار الفكر،بيروت،د ت.

28- تلخيص البيان في مجازات القرآن،الشريف الرضي،تحقيق:محمد عبد الغني،ط1،دار إحياء الكتب العلمية،القاهرة،1374هـ-1955م.

29- التناسب البياني في القرآن:دراسة في النظم المعنوي والصوتي،أحمد أبو زيد،د ط،مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء،الرباط،د ت.

30- التنغيم اللغوي في القرآن الكريم،سمير إبراهيم وحيد العزاوي،ط1،دار الضياء ،عمان،الأردن،1421هـ-2000م.

31- جماليات القصة القرآنية،يوسف حسن نوفل،ط1،دار الشروق،1424هـ-2003م.
32- جماليات المفردة القرآنية،أحمد ياسوف،ط2،دار المكنجي،دمشق،1999م.
33- الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية،أحمد بن عبد الرحمان الصويان،ط1،دار الوطن للنشر،الرياض،1413هـ.
34- الحوار في القرآن(قواعده- أساليبه- معطياته)،محمد حسين فضل الله،ط3،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت،1405هـ-1985م.
35- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية،عبد العظيم إبراهيم المطعني،ط1،مكتبة وهبة،القاهرة،1413هـ-1992م.
36- خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتركيب،محمد محمد المبارك،د ط،دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت،1964م.
37- خطوات التفسير البياني،رجب البيومي،د ط،الشركة المصرية للطباعة والنشر،مصر، 1971م.
38- دفاع عن البلاغة،أحمد حسن الزيات،د ط،مطبعة النهضة،1967م.
39- دلائل الإعجاز في علم المعاني،عبد القاهر الجرجاني،تعليق:محمد رشيد رضا،ط2،دار المعرفة،بيروت،لبنان،1419هـ-1998م.
40- ديوان أبي نواس،د ط،دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت،1406هـ-1986م.
41- ديوان الأعشى،د ط،دار بيروت للطباعة والنشر،بيروت،1400هـ-1980م.
42- ديوان النابغة الذبياني،ط1،دار السعادة،بيروت،د ت.
43- ديوان رؤية بن العجاج(ضمن مجموع أشعار العرب)،تصحيح وترتيب،وليم بن الورد البروسي،ط2،دار الآفاق الجديدة،بيروت،1400هـ-1980م.
44- رجال ونساء أسلموا،عرفات كامل العيشي،د ط،دار القلم،الكويت،د ت.
45- سر الفصاحة،أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي،تصحيح وتعليق:عبد المتعال المعيدي،مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده،القاهرة،1372 هـ-1953م.
46- سورة الرحمان وسور قصار،شوقي ضيف ط2،دار المعارف،القاهرة،مصر،1980م.

47- السيرة النبوية،ابن هشام،تحقيق:مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي،ط2 ،مصطفى البابي الحلبي،1375هـ-1955م.

48- شرح ديوان حسان بن ثابت،ضبط وتصحيح:عبد الرحمان البرقوني،ط3،دار الأندلس ،بيروت ،1983م.

49- صحيح البخاري،أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري،ترقيم وترتيب:محمد فؤاد عد الباقي،ط1،دار ابن الهيثم،القاهرة،1425هـ-2004م.

50- الصناعتين:الكتابة والشعر،أبو هلال العسكري،تحقيق:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم،ط1،دار إحياء الكتب العربية،1371هـ-1952م.

51- الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم،نذير حمدان،ط1،دار المنارة،جدة،السعودية،1312 هـ-1991م.

52- الظاهرة القرآنية،مالك بن نبي،ترجمة:عبد الصبور شاهين،ط1،دار الجهاد،القاهرة، 1958م.

53- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،أبو علي حسن بن رشيق المسيلي القيرواني الأزدي،تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد،ط2،مطبعة السعادة،مصر،1374هـ-1955م.

54- غريب القرآن في شعر العرب "سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس "، تحقيق:عبد الرحيم وأحمد نصرالله ،ط1،مؤسسة الكتب الثقافية،بيروت،لبنان،1413هـ 1999م

55- الفاصلة القرآنية،عبد الفتاح لاشين،د ط،دار المريخ للنشر،الرياض،1402هـ1982م.

56- فجر الإسلام،أحمد أمين،ط9،مكتبة النهضة المصرية،1964م.

57- الفن القصصي في القرآن،محمد أحمد خلف الله،ط3،المطبعة الفتية الحديثة،القاهرة، 1965م.

58- في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم،وليد قصاب،ط1،دار القلم،الإمارات العربية المتحدة، 1442هـ-200م.

59- في الرواية العربية(عصر التجمع)،فاروق خورشيد،ط3،دار العودة،بيروت،1997م.

60- القرآن وقضايا العصر،عائشة عبد الرحمان،ط5،دار العلم للملايين،بيروت،1988م.

61- القصة في القرآن:مقاصد الدين وقيم الفن،محمد قطب،دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،مصر،2002م.

62- القيامة مشاهدها وعظاتها في السنة النبوية،محمد صالح أديب،ط1،المكتب الإسلامي ،بيروت،1415هـ-1994م.

63- الكشاف عن غوامض التنزيل،محمود بن عمر الزمخشري،ط1،المكتبة التجارية الكبرى ،مصر ،1984م.

64- مجاز القرآن،أبو عبيدة معمر بن المثنى،تحقيق:محمد فؤاد سركين،د ط،مؤسسة الرسالة، بيروت،دت.

65- مشاهد القيامة في القرآن،سيد قطب،ط7،دار المعرفة،القاهرة،1981م.

66- معاني القرآن،أبو زكرياء يحي بن زياد،ط3،عالم الكتب،بيروت،1403هـ-1983م.

67- معجزة القرآن،محمد متولي الشعراوي،د ط،شركة الشهاب،الجزائر،1990م.

68- المعجزة القرآنية،بلقاسم بغدادي،د ط،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1992م.

69- من بلاغة القرآن في مجادلة منكري البعث،بدرية بنت محمد بن الحسن العثماني،ط1،دار الراية للنشر والتوزيع،الرياض،السعودية،1417هـ.

70- من بلاغة القرآن،أحمد أحمد بدوي،ط3،مكتبة النهضة،مصر،د ت.

71- من جماليات التصوير في القرآن الكريم،محمد قطب عبد العال،د ط،د م،د ت.

72- من روائع القرآن،محمد سعيد رمضان البوطي،ط3،مكتبة الفرابي،دمشق،1975م.

73- مناهل العرفان في علوم القرآن،محمد عبد العظيم الزرقاني،د ط،دار إحياء الكتب العربية،د ت.

74- منهج القصة في القرآن،محمد شديد،ط1،شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع ،جدة،المملكة العربية السعودية،1404هـ-1984م.

75- النبأ العظيم،عبد الله دراز،ط4،دار القلم،الكويت،1977م.

76- النثر الفني في القرن الرابع هجري،زكي مبارك،د ط،منشورات المكتبة العصرية ،صيدا،بيروت،د ت.

77- نظام الخطاب القرآني(تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمان)،عبد المالك مرتاض،د ط، دار هومة للطباعة والنشر،الجزائر،2001م.

78- نظـــرات في الكون والقرآن:مدارسة عقلية إيمانية،عبد الهادي ناصر،ط1،المكتبة الأكاديمية ،القاهرة،1995م.

79- نظرية إيقاع الشعر العربي،محد العياشي،د ط،مطبعة المصرية،تونس،1976م.

80- نظـــرية الإعجـــاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم،أحمد سيد محمد عمار،ط1،دار الفكر،دمشق،د ت.

81- نظرية التصوير الفني عند سيد قطب،صلاح عبد الفتاح الخالدي،د ط،دار الشهاب ،باتنة ،الجزائر،د ت.

82- النقد الأدبي أصوله ومنهجه،سيد قطب،د ط،دار الكتب العربية،بيروت،د ت.

83- النقد الأدبي:دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن،صلاح الدين محمد عبد التواب،د ط،دار الكتاب الحديث،1423هـ-2003م.

84- النقد الجمالي وأثره في النقد العربي،روز غريب،ط1،دار العلم للملايين،بيروت،1952م

85- النقد الفني:دراسة جمالية وفلسفية،جيروم ستولنتيز،ترجمة:فؤاد زكرياء،ط2،الهيئة المصرية للكتاب،مصر،1981م.

86- النكـــت في إعجـــاز القرآن:ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز،أبو الحسن علي بن عيسى الرماني،تحقيق:محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام،ط2،دار المعارف،مصر،1387هـ-1968م.

87- يوم الدين والحساب،عباد محمد شكري،ط1،دار الوحدة،بيروت،1980م.

- **المعاجم والقواميس:**

88- بصـــائر ذوي التميـــيز في لطـــائف الكتاب العزيز،مجد الدين بن يعقوب الفيروز بادي، تحقيق:محمد علي نجارة،ط3،القاهرة،د ت.

89- القاموس المحيط،مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز بادي،د ط،دار الكتاب العربي،د ت.

90- لســـان العرب،أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور،إعداد وتصنيف:يوسف خياط،د ط،دار لسان العرب،بيروت،د ت.

91- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،فؤاد عبد الباقي،د ط،دار الحديث،القاهرة،1987

92- المعجـــم الوســـيط،إبراهيم أنـــيس عـــبد الحليم منتصر عطية الصوالحي،محمد خلف الله أحمد،دار إحياء التراث العربي،بيروت،د ط،د ت.

الدوريـــــــــــــــات:

93- الإعجـــاز التأثيري للقرآن الكريم،محمد أحمد يوسف،مجلة الشريعة الإسلامية،العدد:36 ،الكويت،1988م.

94- إنـــا نحن نزلنا الذكر،عز الدين علي السيد،مجلة الأزهر،م41،رمضان سنة1389هـــ ، نوفمبر1969م.

95- الكلمة القرآنية،فضل محسن عباس،مجلة الشريعة والدراسات القرآنية،ديسمبر1985م.

96- نفـــوس ودروس في إطار التصوير القرآني،توفيق محمد السع،سلسلة البحوث الإسلامية، 1391هـ-1991م.

الرسائل الجامعـــــــــية:

97- أســـاليب الإقـــناع في القـــرآن الكـــريم:دراسة تطبيقية لسورة الفرقان (مخطوط رسالة ماجستير)،ابن عبد القادر بن الطاهر،جامعة الأمير بد القادر للعلوم الإسلامية،قسنطينة.

98- أسلوب الدعوة في القرآن الكريم:مخطوط رسالة دكتوراه دولة في الدراسات القرآنية،عبد الحليم بوزيد، جامعة الأمير بد القادر للعلوم الإسلامية،قسنطينة.1999.

99- آيـــات العـــذاب والنعـــيم في القـــرآن الكريم:دراسة فنية،سعاد بولشفار،مخطوط رسالة ماجستير،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،قسنطينة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهـــــارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: فهرس الآيات القرآنية

طرف الآية	رقمها	الصفحة
-سورة البقرة-		
﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ...﴾.	81	91
﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى...﴾.	187	6
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾.	214	17
﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ...	259	164- 163 -161
﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ...﴾.	266	7
-سورة آل عمران-		
﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ...﴾.	30	86
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ...﴾.	44	110-119
﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ...﴾.	107-106	-115-125-65-57 116
﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ...﴾.	107	12
﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا...﴾.	119	54
-سورة النساء-		
﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ...﴾.	82	65
﴿...وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾.	85	7

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ...﴾.	103	50
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ...﴾.	175	12
-سورة المائـــدة-		
﴿...غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾.	3	6
-سورة الأنعـــام -		
﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا...﴾.	28	87
﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا...﴾.	31	88
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا...﴾.	82	6
﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى...﴾.	94	135
-سورة الأعراف-		
﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ...﴾.	9-8	125
﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ...﴾.	57	12
﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ...﴾.	154	26
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ...﴾.	187	29
-سورة التوبة-		
﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ...﴾.	109	9
-سورة يونـــس-		
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى...﴾.	26	56
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى...﴾.	27-26	126

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ...﴾.	27	135-64-56
﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا...﴾.	30-28	179
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ...﴾.	45	160
-سورة هـــود-		
﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ...﴾.	44	16
-سورة يوســف-		
﴿...فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ...﴾.	17	13
﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ ...﴾.	80	8
﴿...وَتَوَلَّى عَنْهُم...﴾.	84	55
-سورة إبراهيم-		
﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ...﴾.	18	172
﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا...﴾.	22-21	181
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا...﴾.	42	74
﴿...لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ...﴾.	43	72-69-54
﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ.﴾	48	133
-سورة الحجر-		
﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ...﴾.	94	8
-سورة النحـــل-		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ...﴾.	1	29
﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾....	25	89
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ...﴾.	44	5
﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ...﴾.	57	138
﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ...﴾.	68	78
-سورة الإسراء-		
﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ...﴾.	13	88
﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ...﴾.	72-71	122
﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى...﴾.	72	51
﴿...وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾.	97	50
﴿قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ...﴾.	100	12
-سورة الكهـــف-		
﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ...﴾.	12-9	152
﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ...﴾.	26-9	151
﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ...﴾.	11	158
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ...﴾.	15-13	153
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ...﴾.	16-13	157
﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ...﴾.	14	157

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿نَشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِه﴾.	16	157
﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾.	16	153
﴿...ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ...﴾.	17	155
﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾.	17	159
﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾.	18	159
﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ...﴾.	19	159
﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ...﴾.	20-19	154
﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ...﴾.	21	-153 -154-155 160
﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.	24-22	155
﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ..﴾.	25	161
﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا...﴾.	28-26	156
﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ...﴾.	47	135
﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا...﴾.	48	135
﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا...﴾.	49	87
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ..﴾.	54	166
﴿...فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا...﴾.	105	6
-سورة مـــريم-		

﴿ . . . ولَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾.	62	11
﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ...﴾.	85	58
﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ ...﴾.	86-85	138-118
﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ. . . ﴾.	95-88	138
﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ. . .﴾.	92	138
﴿ . . . وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيامَةِ. . .﴾.	95	137
-سورة طـــــه-		
﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ. . .﴾.	102	49
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ﴾.	105	105-42-37
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ﴾.	107-105	37
﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾.	106	105
﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾.	114-106	
﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ. . .﴾.	108	105-67-66
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي...﴾.	124	51
-سورة الأنبياء-		
﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ. .﴾.	93	15
﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ...﴾.	97	69
﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ...﴾.	104	31

جامعة عبد القادر للعلوم الإسلامية

-سورة الـــــحج-		
﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾.	1	63
﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾.	2-1	174
﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾.	5-1	
﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً...﴾.	5	171
﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾	7-5	169
-سورة النور-		
﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ...﴾.	40-37	126
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ...﴾.	39	83
﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ...﴾.	40	84
-سورة الفرقان-		
﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ...﴾.	27	105-52
﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ..﴾	28-27	106
-سورة النمل-		
﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ...﴾.	8-7	106-45
﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ...﴾	89	61
-سورة القصص-		
﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ...﴾.	64-62	178

﴿...رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا...﴾.	63	178
-سورة العنكبوت-		
﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا...﴾	13	90
﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ...﴾.	43	165
-سـورة الروم-		
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ...﴾.	58-54	172
-سورة لقـمان-		
﴿...يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ...﴾.	13	111-86
﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾.	33	86
-سورة الأحزاب-		
﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾.	11	36
-سورة سـبأ-		
﴿...وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ..﴾.	34-31	180

-سورة فاطـــر-		
﴿مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ...﴾.	2	12

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-سورة يس-		
﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً...﴾.	49	110-44
﴿...هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَان...﴾.	52	77
﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ...﴾.	83-77	167
﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ...﴾.	78	14
-سورة الزمـــر-		
﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ...﴾.	27	165
﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ...﴾.	61-60	116
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾.	67	33
﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ...﴾.	68	106-46
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ...﴾.	74-71	120
-سورة غافر -		
﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ...﴾.	18	55
﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ:..﴾.	19	17

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ...﴾.	49	11
-سورة فصلـــت-		
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ...﴾.	39	171
-سورة الجاثـــية-		
﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ...﴾.	32	37
- سورة ق -		
﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ...﴾.	6-5	140
﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ...﴾.	11-6	140
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ...﴾.	18-16	140
﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ...﴾.	35-19	139
﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا...﴾.	22-21	68
-سورة الطور-		
﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ...﴾.	9	29
﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا...﴾.	40	75

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-سورة النجم-		
﴿أَزِفَتْ الْآزِفَةُ. . .﴾.	57	91
-سورة القمر-		
﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ. . .﴾.	7-6	47
﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ. . .﴾.	48	50
-سورة الرحمان-		
﴿...فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ. . .﴾.	37	9
-سورة الواقعة-		
﴿إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَة. . .﴾.	1	92
﴿وَبُسَّتْ الْجِبَالُ. . .﴾.	6-5	40
﴿...فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾.	6	41
﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ...﴾.	28-27	123
﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَال...﴾.	42-41	123
-سورة الحاقة-		
﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا...﴾	6-5	142

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿....فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى....﴾.	7	142
﴿...فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِن بَاقِيَة﴾.	8	142
﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ...﴾.	10	142
﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ...﴾.	11	143
﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّور...﴾.	16-13	143
﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ...﴾.	29-13	141
﴿وَحُمِلَتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَال....﴾.	14	41
﴿وَانشَقَّتْ السَّمَاءُ....﴾.	16	30
﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا...﴾ .	17	143
﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ....﴾.	20-19	112
﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ....﴾.	29-19	123
﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَة...﴾	22-21	144
﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ...﴾.	26-25	114
﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ...﴾.	32-25	144

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ...﴾.	31-30	145
﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ...﴾.	34-33	144
﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ...﴾.	37-35	144
﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ...﴾	42-38	144
﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ...﴾	45	123
-سورة المعارج-		
﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا...﴾	43	69
-سورة المزمل-		
﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ...﴾.	20	87
-سورة القيامة-		
﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ...﴾.	25-22	117
-سورة الإنسان-		
﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ....﴾.	11	62
﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ...﴾.	27	92

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– سورة النبأ–		
﴿وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾.	19	30
–سورة النازعات–		
﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾	7-6	136
﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾.	14-6	134
﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ...﴾.	14-13	134
﴿فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَّةُ...﴾.	34	136-91
–سورة عبس–		
﴿فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ...﴾.	24	136
﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا...﴾.	31	8
﴿فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ...﴾.	33	136
﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ...﴾.	39-38	136-59
﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ...﴾.	42-38	118
﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا...﴾.	40	65

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-سورة التكوير-		
﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ...﴾.	2-1	137
﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ...﴾.	14-1	128
﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ...﴾.	14	137
﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ...﴾	6	137
-سورة الانفطار-		
﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ...﴾.	3	137
﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.	5	137
-سورة الانشقاق-		
﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ...﴾.	4-3	75
﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ...﴾.	15-7	124
﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ...﴾.	8	125
﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا...﴾.	13-11	125
-سورة الغاشية-		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ...﴾.	1	92
-سورة الفجر-		
﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا...﴾.	21	105
﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتْ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا...﴾.	30-21	173
﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ...﴾.	30-27	173- 62
-سورة الزلزلة-		
﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.	1	35
﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا...﴾.	5-1	75
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ..﴾	8-7	127
-سورة القارعة-		
﴿الْقَارِعَةُ،مَا الْقَارِعَةُ...﴾.	11-1	107
﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ...﴾.	5-4	108
﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾.	11-6	109

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: فهرس الأحاديث:

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة.....	البخاري	6
إن الله يمسك الخلائق على إصبع والسماوات على إصبع...	البخاري	34
يحشر الناس يوم القيامة على أرض عفراء صفراء كقرصة نقي	البخاري	38
أليس الذي أمشاه على قدميه...	البخاري	50
أتدرون ما أخبارها.....؟	الإمام أحمد	78
من حوسب عذب.....	البخاري	125

ثالثا: فهرس الأبيات الشعرية

البيت الشعري	الوزن	القائل	الصفحة
كَأَنَّ مِشيَتَها مِن بَيتِ جارَتِها مَرُّ السَحابَةِ لا رَيثٌ وَلا عَجَلُ	البسيط	الأعشى	29
أَلا أَبلِغ أَبا سُفيانَ عَنّي فَأَنتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَواء	الوافر	حسان بن ثابت	55
تَحَسَّنَتِ الدُّنيا بِوَجهِ خَليفَةٍ هُوَ الصُبحُ إِلّا أَنَّهُ الدَهرَ مُسفِرُ	الطويل	أبو نواس	60
فَياتوا يُلاحونَ وَياتَ يَسري يَصيرُ بِاللُجى هادٍ هَموسُ	الوافر	أبو زيد الطائي	67
حَتّى يُقالَ إِذا مَرّوا عَلى جَلَتي أَرشَدَهُ اللَهُ مِن غازٍ وَقَد رَشَدا	البسيط	عبد الله بن رواحة	70

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ظَلَّتْ أَقَاطِيعُ أَنعامٍ مُؤَبَّلَةٍ لَدَى صَلِيبٍ عَلَى الزَّوْرَاءِ مَنصُوبِ	البسيط	النابغة الذبياني	70
وَذَا النُّصُبِ المَنصوبَ لا تَنسُكَنَّهُ وَلا تَعبُدِ الأَوثانَ وَاللَهَ فَاعبُدا	الطويل	الأعشى	70
سُوداً مِنَ الشامِ وبيضاً نُصَّعا أَشْرَفَ رَوْقاهُ صَلِيقاً مُقْتَعا	الرجز	رؤيـــة بـــن العجاج	73

رابعا:فهرس الأشكال.

رقم الشكل	عنوان الشكل	الصفحة
01	تحليل تنغيمي للآية:﴿هاؤم اقرأوا كتابيه إني ظننت ...﴾	113
02	تحليل تنغيمي للآية:﴿يا ليتني لم أوت كتابيه و لم أدر ...﴾	113

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خامسا: فهرس الموضوعات

- المقدمة ..... أ

-المدخل:الدراسة الفنية-مفهومها*تاريخها*أهميتها.....1

-الفصل الأول:التصوير الفني في آيات البعث والحشر 24

أولا:سمات التصوير باللفظ القرآني.....28.

1- التصوير الحسي لأهوال القيامة.....28.

2- التصوير الحسي للعصاة.....48.

3- التصوير النفسي للعصاة.....52

4- التصوير الحسي للمتقين.....57

5- التصوير النفسي للمتقين 60

ثانيا:سمات التصوير بالعبارة القرآنية.....63.

1-القصر.....64.

2-الطول.....72

ثالثا:التجسيم .....79.

1- تجسيم الأعمال.....81

2- تجسيم الذنوب.....88

3- تجسيم يوم القيامة.....91

الفصل الثاني :التناسق الفني في آيات البعث والحشر.....94

أولا: جرس الألفاظ.....97

ثانيا: التناسق في جزئيات المشهد.....114

1- المقابلة.....114

2- الفواصل.....127.

ثالثا :اتساق المشهد مع السياق.....135.

الفصل الثالث:القوالب الفنية في آيات البعث والحشر.....146

أولا:القصة.....147.

1- قصة أصحاب الكهف.....149

2- قصة الذي مرّ على قرية.....161.

ثانيا: الأمثال.....165

ثالثا: المشاهد.....172

-الخاتمة.....183.

- قائمة المصادر والمراجع.....186

-الفهارس.....194

أولا:فهرس الآيات القرآنية.....195

ثانيا :فهرس الأحاديث.....211.

ثالثا:فهرس الأبيات الشعرية.....211

رابعا: فهرس الأشكال.....212.

خامسا: فهرس الموضوعات.....213.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية